طه حسين

نقدٌ وإصلاح

منتدى مكتبة الاسكندرية

دار العلم للملايين - بيروت

طه حسين

نقد وإصلاح

الطبعة الثانية

دار العلم للملايين
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ، بيروت كانون الثاني ١٩٥٦
الطبعة الثانية ، بيروت كانون الثاني ١٩٦٠

خطأ التقدير

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي ألبير كامو

هذا لون جديد من الادب التمثيلي عرفه الفرنسيون منذ أواخر الفترة التي انقضت بين الحربين العالميتين ، أو قل ان شئت الدقة انهم عرفوا أصوله في هذه الفترة ولكن انتاجهم فيه لم يستكمل قوته ونضجه الا أثناء الحرب العالمية الثانية ولم يظهر الا في أعقابها ، وهو صورة للنفس الاوروبية منذ انقضت الحرب العالمية الاولى وتركت ما تركت من الآثار البغيضة ، ومن ذكرى الاحداث المروعة التي صبتها على الناس .

وصورة كذلك لما دفعت اليه النفس الاوروبية حين جعلت نذر الحرب الثانية تسعى الى الناس متواترة يقفو بعضها اثر بعض ، مجددة ما عرف الاوروبيون من الخوف

والهلع ، ومن الروع والجزع ، اثناء الحرب الاولى، ممهدة لكثير منهم طريق التفكير المظلم المتشائم الذي لا يـــرى في الدنيا الا شراً ولا يرى الخير والنعيم في هذا العـــالم الحديث الا وهماً ، بعد ان أتيح للعقل ما أتيح له مـن الرقي ، وتم للعلم ما تم من التقدم ، وبعد ان استكبر العقل وطغى .واسرف في الكبرياء والطغيان ، وغره ما وفق اليه من استكشافات . وبعد ان تسلط غرور العقل هذا على حياة الناس . فاشاع فيها ضروباً من فساد الخلق وسوء التقدير للقيم الموروثة التي كانت الحياة تعتمد عليها وتأتلف منها ، أثناء القرن التاسع عشر بل في القرون التي سبقته .

فقد نشأ عن هذا كله ايثار الانسان لنفسه بالخير مـن دون غيره من الناس . وشاعت هذه الا ثرة في الافراد أول ما شاعت ثم تجاوزتهم الى الجماعات ثم تجاوزتهم الى الشعوب. وكان من هذه الاثرة الفردية والاجتماعية والدولية ان ضعف التضامن ، ووهت الصلات بين الناس ، ومضى كل فرد لا يلوي على شيء جامحاً في طريقه الى تحقيق آرابـــه ومنافعه ، ومضت الامم كما مضى الافراد غير ملوية على شيء ولا حافلة بشيء الا أن يكون التسلط على أعظـــم جزء ممكن من الارض والانتفاع بأعظم حظ ممكن مـــن الموارد ، والاستعلاء لا على الضعفاء وحدهم بل عليهم وعلى الاقوياء أيضاً .

كل ذلك أدى الى اثارة الحرب فانتصر المنتصر وأطغاه

انتصاره ، وانهزم المنهزم وأحفظه انهزامه، فأضمر الشر واستعد للثأر ، واختلف المتصرون في اقتسام الغنائم فامتلأت الدنيا فساداً واضطراباً . وما دام الادب صورة لحياة الناس ، فقد صور الأدب الاوروبي بين الحربين آثار هذا كله ، ثم صور ما ملأ النفوس من روع وهلع ، حين تتابعت نذر الحرب الثانية . فنشأ الأدب المظلم الذي سماه الاوروبيون في ذلك الوقت الادب الاسود . نشأ في اوروبا الوسطى كما نشأ في أمريكا ولم يلبث ان شاع في فرنسا كما تشيع النار في الحطب .

ونشأت فلسفة متشائمة الى جانب هذا الادب المتشائم تقوم على اعتداد الانسان بنفسه وبنفسه وحدها، وعلى اهدار القيم القديمة واستحداث قيم جديدة لا تكاد تحفل بالفضيلة والخير ولا بالحق والجمال . كما عرفها الناس من قبل .

ولم تلبث هذه الفلسفة ان تجاوزت مكاتب الفلاسفة والمفكرين الى رؤوس الشباب فاحدثت شراً كثيراً ،أحدثت استهتاراً بالنقائص على اختلافها ، وانتهازاً للفرص واختلاساً للذات كلما أتيح اختلاسها ، وازدراء للاوضاع الاجتماعية المألوفة واستخفافاً بالسنن الموروثة . كما أحدثت زهداً في الحياة وسخطاً عليها ونفوراً منها وتهالكاً على الانتحار . ثم جاءت الحرب الثانية فأضافت شراً الى شر ، ونكراً الى نكر ، وثبتت في نفوس الناس ما كان يضطرب فيها اضطراباً ، وأقرت في عقولهم وقلوبهم ما كان يخطر لها ولا يكاد

يتأصل فيها .

وعظم خطر الادب المظلم هذا كما عظم خطر الفلسفة المتشائمة تلك .. فشاع في الشعر وشاع في المقالات ، وشاع في القصص ، وحاول ان ينفذ الى التمثيل فأتيح له شيء من نُجح أول الامر ، ولكن الناس لم يلبثوا ان انصرفوا عنه وزهدوا فيه . واصبح التمثيل المتشائم هذا أدباً يقرأ ولا يكاد يعرض على النظارة حتى يستخفي لان الجماعات لا تثبت للتعمق الفلسفي وانما هي تذهب الى ملاعب التمثيل تلتمس فيها الجد الذي يثير العواطف ويدعو الى العبرة والموعظة ويكفل المتعة الادبية الخالصة ويخرج الناس عن أطوارهم التي ألفوها ويحط عنهم أثقالهم التي تنوء بهم أثناء النهار أو يلتمسون فيها الفكاهة التي تسري عنهم الهمّ وتغري بهم الضحك وتسوق اليهم الرضى وتهدي اليهم الفائدة من حين الى حين .

فأما الجلوس الى تعمق الحقائق الفلسفية العليا فليس من جمهور النظارة في شيء ، وجمهور النظارة كما تعلم يتألف من أخلاط من الناس تتفاوت حظوظهم من الثقافة والمعرفة وحسن الاستعداد ، والتأتي لمواجهة ما يثير العقل من المشكلات .

وكاتبنا الذي أقدم لقصته بهذه المقدمة الطويلة أحد هؤلاء الأدباء المتشائمين الذين أخذ التشاؤم عليهم نفوسهم من كل أقطارها ، وهو قد واجه قراءه في أواخر الحرب

الثانية وفي أعقابها بمذهبه الفلسفي المشهور ، مذهب العبث، وهو مذهب قديم في أصله جديد في صورته يقوم على أن وجود هذا العالم لا حكمة له فيما يرى العقل :

فلا تسل اذن عن غاية هذا الوجود أو عن علتـــه ، فالعقل لا يعرف له علة كما انه لا يعرف له غاية ، والعالم عند هذا الكاتب أشبه شيء بالاسطورة القديمة التي اتخـذ منها اسماً لكتابه ذاك وهي أسطورة البطل اليوناني كيزيفوس الذي قضى الآلهة عليه ان يرفع صخرة من أسفل الجبل الى قمته فهو لا يزال يدفع هذه الصخرة أمامه حتى ينتهي بها الى القمة . ولكنها لا تبلغها حتى تنحدر عنهـــا الـــى القاع ، فهو في جهد متصـــل ، ولكنـــه جهد لا غاية له ولا نفع فيه .

ثم لم يكتف الكاتب بأن يصوّر مذهبه هذا في كتاب أدبي فلسفي وانما أراد ان يذهب به مذهب التمثيل ،فوضع طائفة من القصص احداها قصتنا هذه وهي تعتمد عـــلى أسطورة شائعة في أوروبا الوسطى فيما يقال .

وتلخيصها يسير . فالفصل الاول منها يرفع فيه الستار عن فندق متواضع من فنادق القرى تديره أيّم وابنتها وخادم لهما شيخ ، وقد تعودت الام وابنتها اقتراف نوع غريب من الجرائم فهما تستقبلان أضياف الفندق وقلما ينزل الناس به لانه بعيد منعزل في قرية قلما يُلم بها غرباء ، فـــاذا كان الضيف فقيراً ومتوسط الثراء ألمّ بالفندق في يســـر

وانصرف عنه في سلام . واذا كان غنياً ظاهر الثراء ألمّ بالفندق ولكنه لا يخرج منه الى حيث يخرج الأضياف الاحياء ، وانما يُسقى قدحاً من الشاي فيه منوم ، فاذا أغرق في نومه أقبلت الام وابنتها وخادمها عليه فاحتملوه الى النهر غير بعيد والقوه فيه أثناء الليل واحتجزوا ماله وحرقوا ثيابه واوراقه وكل ما يدل عليه . ولهذه الايم ابن قد غاب عنها في طلب الثراء منذ عشرين عاماً وانقطعت عنها أخباره فهي لا تعرف من أمره شيئاً كما ان ابنتها لا تعرف من أمر أخيها ذاك شيئاً .

ونحن نراهما في أول القصة وقد خلت احداهما الى الاخرى وهما تتحدثان عن ضيف ألمّ واحتجز لنفسه غرفة من غرفات الفندق ، ثم ذهب ليعود الى غرفته بعد حين . وهما تتحدثان عن ثرائه وعن انه ظاهر اليسار لم يسأل عن أجر غرفته ولم يحفل به كما يفعل الفقراء وأوساط الناس . وهما تتمنيان عودته لتصنعا به صنيعهما بغيره من الاضياف الاغنياء تتحرق الفتاة إلى هذا تحرقاً وتقبل الام عليه مستكرهة لا تنشط له كما تعودت ان تنشط لمثله فيما مضى . أما الفتاة فتتحرق لانها طامحة الى الغنى الذي يتيح لها ان تهجر هذه القرية بل ان تهجر وطنها كله لتسعد بالحياة الحرة الناعمة حيث البحر والشمس. وقد ملكت أمواج البحر وأشعة الشمس عليها أمرها كله فهي تريد ان تظفر بهما مهما يكلفها ذلك من جهد أو اثم .

ويقبل الضيف ولا نلبث أن نفهم أنه ابن الأيّم واخو الفتاة ، أقبل من مهاجره البعيد ليبر أمه واخته وينقذهما من حياتهما الضيقة . وهو متنكر لا يعلن اسمه ولا شخصه يريد ان يفاجئهما بالحق من أمره بعد ان يمتحن معرفتهما له وتذكّرهما لشخصه . وهما لا تعرفانه ولكن الام تحس اشفاقاً عليه ، اشفاقاً غامضاً لا تفهمه ولا تعلله الا بالتعب الذي يأتيها من الشيخوخة وقد أقر الفتى زوجه في فندق آخر وتدبر معها أمره تدبيراً ، ولكن زوجه لا تحب منه هذا الاحتيال ، وانّما توثر الصراحة وتريده على ان يعلن اليهما نفسه في غير لعب ولا مداورة . وهي تكره ان تفارقه ليلة كاملة لانها لم تفارقه منذ اقترنا . ولكنه مصرّ على حيلته يريد ان يمتحن بها نفسه وامه واخته . والأم رفيقة به ؛ وابنتها عنيفة به أشد العنف . كلتاهما لا تعرفه ولا تحقق شخصه ، ولكن في قلب الأم ميلاً غامضاً اليه ورحمة غامضة له . وفي قلب الفتاة طمع في المال وشوق إلى البحر والشمس ، والخادم الشيخ يتردد بين حين وحين لا ينطق بحرف ، ولا يسمع له صوت ، والحوار بين الفتى واخته غريب فيه ما ينبغي من الغموض لأن الفتى يخفي نفسه ؛ وفيه ما ينبغي من عنف الفتاة لأنها لا تفهم ولا تسيغ أن يكون القاتل رؤوفاً عطوفاً عليه ، وقد أعدت للفتى غرفته وصعد اليها وأقبلت أخته عليه بعد حين كأنها تريد أن تصلح في الغرفة شيئاً فيكون بينها وبينه شيء من هذا الحوار الغامض

الذي يرفق فيه هو وتعنف فيه هي، يريد هو أن يتلطف ليعرف هذه الاسرة وليعرّف اليها نفسه وتأبى هي كل رفق لأن أمر هذا الفتى لا يعنيها إلا من حيث الغاية التي يجب أن ينتهي اليها وهي الموت .

وتعود الفتاة إلى الغرفة بعد حين حاملة اليه قـــدح الشاي فتضعه وتنصرف مع انه لم يطلبه ، ولكنها تزعم له انه خيل اليها ذلك ، والفتى يشرب ما في القدح ولا يكاد يفرغ منه حتى تأتي أمه تريد أن تحتال في صده عن هذا القدح الذي قدّم اليه خلسة وعلى غير علم منها ، فاذا رأته قد أفرغه في جوفه اذعنت لما ليس لها منه بدّ ولكنها على ذلك تتحدث إلى الفتى رفيقةً به ، متحببة اليه ، والفتى يرضيه ذلك فيمضي معها في الحديث ويوشك ان يفضي اليها بذات نفسه لو اتصل الحديث ولكنه لا يتصل . فالفتى متعب مكدود قد ادركه النوم ، ثم اشتمل عليه . وتأتي الفتاة فيكون بينها وبين أمها شيء من صراع الأم محزونةً ضيقة بابنتها التي خالفت عن أمرها وتعجلت موت الفتى . والفتاة عجلة تريد أن تفرغ من أمرها لتسرع بعد ذلك إلى السفر . وهي تأخذ كل ما في ثياب الفتى مـــن مال . وما تزال بامها تتعجلها وتلح في تعجلها حتى تنتهي بها إلى ما تريد .

وكذلك التقت هذه الأسرة في الفصل الأول من القصة وانتهت إلى غايتها في الفصل الثاني . فاذا رفع الستار عن

الفصل الثالث ، فنحن في الصباح ، وقد ألقي في النهر الفتاة راضية والأم محزونة كارهة والفتاة مبتهجة قد استرد وجهها نضرته واسترد ثغرها ابتسامته واسترد قلبها الغبطة والامل ، ولكن الخادم الشيخ يقبل صامتاً ، صارمـاً ويدفع اليها جواز السفر الذي كان بين أوراق الفقيد ، فلا تكاد تنظر فيه حتى يسقط في يدها وحتى تدفعه إلى أمها ، فإذا نظرت فيه اشتمل عليها حزن يائس ولـكنه هادئ لا ثورة فيه .

حزن يعيد إلى قلبها ما كان قد ندّ عنه من حب ابنها ويغمر قلبها بهذا الحب بعد أن فات أوان الحب وبعد أن لم يبق إلى استدراكه سبيل .

والحوار عنيف بين الفتاة وأمها لا في الاثم بل في عواقبه .. فالفتاة لا تحفل بأخيها لأنها لم تعرفه ولم تقبّله قط ولا تذكر انه قبّلها وهي طموحة إلى الحياة تريد أن تستنفد لذاتها كلها ، تريد أن تفر إلى البحر والشمس وان تنعم بكل ما تنعم به فتاة في نضرة الشباب .. والأم يائسة بائسة قـد أزمعت ان تلحق بابنهـا في النهر وان تستقبل معه هذا العدم بعد أن لم يُتَحْ لها ان تستقبل معه الوجود .

والفتاة تنازعها في حبها وتلح عليها في ألا تتركها ولا تنأى عنها ولا تسلمها وحدها لخطوب الحياة .. ولـكن الأم حازمة مصممة قد سئمت الحياة واثقالها وعجزت عن

احتمال أمها هذا الأخير على كثرة ما احتملت قبله من الآثام . وهي تترك ابنتها وحدها وتمضي في سرعة هادئة إلى النهر لتلتمس فيه الموت .. ولا تكاد الفتاة تخلو إلى نفسها حتى تقبل عليها زوج اخيها تسأل عن زوجها فتنبئها الفتاة بكل شيء ويكون بينهما حوار يصور اللوعة اليائسة في نفس الزوج والقسوة اليائسة في نفس الأخت ، احداهما مولهة لا تدري ماذا تصنع ولا كيف تحتمل رزءها ، وهي تتجه إلى الله تسأله الرحمة والمعونة ، والاخرى يائسة من الارض والسماء جميعاً ، قد أزمعت أن تموت ، ولكنها لا تريد أن تموت في النهر حيث مات أخوها الذي تبغضه لأن أمها آثرته عليها ، وحيث ماتت أمها التي لم ترحمها ولم ترثِ لشبابها وآثرت أن تلحق بابنها الميت على أن تصحب بنتها الحية ، وتستقبل معها السعادة والمتاع . وإنما تريد أن تموت شنقاً في غرفتها وهي تترك زوج أخيهـا مولهةً ملحة معولة تلتمس رحمة الله ومعونته ، وإذا الخادم الشيخ يقبل على هذه الزوج البائسة ، يحسبها قد دعته فاذا التمست منه المعونة والاشفاق أجابها بأول كلمة وآخر كلمة نسمعها منه في القصة وهي لا .. وعلى هذه الكلمة الحاسمة يسدل الستار .

فأنت ترى ان القصة لم تبتكر شيئاً وانما صورت تلك الاسطورة القديمة .

ولم تصورها تصويراً خالصاً للادب ، وإنما صورتها

تصويراً توشك الفلسفة ان تستأثر به ، ففيم وُجدت الأم وابنها وابنتها وفيم ماتوا ؟ وما غاية وجودهم ؟ وما غاية موتهم ؟ وهذه الأم البائسة التي أقبلت مع زوجها ليستخلصا هاتين المرأتين من حياة الخشونة والضيق فكانت عاقبة أمرهما موت هؤلاء الثلاثة في غير طائل ولا غناء . وهذا الخادم الصامت الذي لا ينطق بحرف إلا هذه الكلمة التي تصور اليأس ولا تصور شيئاً غير اليأس من هو ؟ ومن عسى أن يكون ؟ إنه القضاء الذي لا يحفل بالناس ولا بما يلقون من لين الحياة وشدتها ، بل لا يحفل بما تختلف عليهم من حياة أو موت . قد أوجدهم لغير علة ولا غاية ... أوجدهم معرضاً عنهم ساخراً منهم غير مفكر إلا في نفسه غير معرب حتى عن تفكيره في نفسه .

وكذلك صور الكاتب مذهبه الفلسفي ذاك تصويراً قد يكون حسناً ولكن التكلف فيه ظاهر يوشك أن نامسه بأيدينا . فما هذه الحيلة التي ابتكرها الفتى ليفاجئ أمه واخته بعد ان غاب عنهما عشرين عاماً ؟ وما هذه المطاولة والمداورة المصنوعة بين هؤلاء الثلاثة الذين لم يتح الكاتب لهم أن يجتمعوا إلا ليقضي عليهم آخر الامر ان يتفرقوا وان يكون الموت هو الذي يفرق بينهم ؟

وقد مثلت هذه القصة في القاهرة على احد المسارح الخاصة منذ أيام وشهدتها بعد ان كنت قرأتها منذ أعوام . واعترف بأني لم أجد أثناء شهودها كما لم اجد أثناء قراءتها الاولى

ولا أثناء قراءتها الثانية التي فرغت منها اليوم ما تعودت أن أجده من المتعة الأدبية . ولولا ان الممثلين والممثلات كانوا من البراعة في فنهم بحيث سحروا أعين النظارة وخدعوهم عن أنفسهم لما تركت هذه القصة في قلوبهم اثراً ، ولما دفعت أيديهم إلى التصفيق :

وأكاد أقطع بأن النظارة إنما صفقوا للممثلين والممثلات لا للقصة ولا لكاتبها . وأمثال هذه القصة التي تغلب عليها الفلسفة وتستأثر بها من دون الأدب كثير في الأدب الفرنسي المعاصر . وكتابه الظاهرون هم هؤلاء الثلاثة : جان بول سارتر والبر كامو وجبرائيل مارسيل ؛ وان كان ثالثهم يذهب بفلسفته الوجودية مذهباً دينياً مسيحياً قد أعرض له في يوم من الايام .

العائد

قصة للكاتب الالماني ارنست فيكرت

وتستطيع ان تفهم كلمة العائد هذه على وجهين مختلفين وان تقاربا من بعض أنحائهما . تستطيع أن تفهم منها عاد من سفره بعد غيبة طالت أو قصرت . وتستطيع أن تفهم منها من بعث بعد أن مات ومضت على موته الأعوام الطوال .

فقد أراد المؤلف هذين المعنيين جميعاً وفهمهما الناس عنه أول الأمر ثم عرفوا وجه الحق كما ستعرفه آخر الامر .

وتستطيع كذلك ان تذكر الحديث الذي سقته اليك في الفصل الماضي عن ذلك الفتى الذي حمله قطار القضاء وقطار الناس إلى موت محتوم كان ينتظره في ميدان من ميادين القتال أو غير بعيد من هذا الميدان .

فسأحدثك اليوم عن فتى آخر نقله قطار القضاء وحملته قدماه بسعيهما في الارض العريضة إلى الحياة .

وتستطيع بعد هذا وذاك ان تذكر تلك المرأة التي أرادت ان تنقذ ذلك الفتى من موته ذاك الذي كان ينتظره لأنها أحبته كما أحبها فلم تزد على ان القت بنفسها معه ومع غيره أيضاً بين ذراعي ذلك الموت الذي لم يكن إلى الافلات منه سبيل .

فسأحدثك اليوم عن امرأة أخرى انقذت فتى آخر من موت لم يكن فيه شك وردّته إلى حياة ليس فيها شك أيضاً . لأنها أحبته كما أحبها هو ، ولكن حبهما كان قوياً وكان ضعيفاً في وقت واحد ، ولان كلمة القضاء هي العليا دائماً .

والقصتان كما ترى لم تصدرا عن كاتب واحد وانما صدرتا عن كاتبين مختلفين أشد الاختلاف لم يلتقيا في أكبر الظن ، ولكنهما نظرا إلى الحياة وظروفها وإلى الناس والخطوب التي تختلف عليهم نظرتين متباينتين من جميع الوجوه منتهيتين دائماً إلى ان كلمة القضاء هي الاخيرة سواء أكانت للأنسان إرادة قوية عاملة أم كانت له ارادة ضعيفة مستسلمة .

والقصتان تقعان في ألمانيا ، والحرب هي التي تثيرهما ، وفيهما على اختلافهما عبرة للذين يريدون الاعتبار ، وفقه للذين يريدون التفكير وتعمق شؤون الحياة .

وقصتنا اليوم تعرض علينا أول ما تعرض حياة امرأة فقدت زوجها في الحرب . وورثت عنه لنفسها وابنها ارضاً واسعة متباعدة الارجاء . فيها الخصب الكثير الذي يغل ثراء كثيراً . وفيها الغابات الكثاف التي تغل الثراء أيضاً والتي يكثر فيها الصيد ، وفيها البحيرة الرائقة التي تتيح منظراً جميلاً ويتهيأ شاطئها للنزهة الممتعة . وفيها الذين يعملون في الارض والذين يعملون في الغابة . وهي بعيدة عن المدينة ولكن بينها وبين المدينة من الصلة المنظمة ما يتيح لوجوهها ان يزوروا هذه السيدة بين حين وحين وان ينفقوا في قصرها ساعات حلوة هادئة يتحدثون فيها عما يكون من الاحداث . وإلى جانب هذه الأرض الواسعة قرية تقوم منها غير بعيد . وتتصل بها اتصالاً يشبه ما يكون بين السادة النبلاء وبين ما يقوم قريباً من قصورهم من القرى . وهذه المرأة تدبر ثراءها في حزم وعزم ومضاء ، جعلت لها في نفوس الناس من قرب منها ومن بعد عنها مهابة وجلالاً .

فهم لا يذكرونها باسمها ولا باسم زوجها الفقيد ، وانما يذكرونها بالرتبة العسكرية التي كانت لزوجها فقد كان من رجال الجيش . فالناس يدعونها بالسيدة الصاغة لأن زوجها كان صاغاً ، وكأنها أخذت من زوجها صفة الضابط الصارم ، الذي لا يحب تهاوناً ولا تقصيراً في اداء الواجب وطاعة ما يصدر من الأمر ، والذي يؤثر النظام في كل

ما يأتي من الأمر وفي كل ما يأتي الناس حوله من الأمر أيضاً على كل شيء ويحرص عليه أشد الحرص . فأمور قصرها وأرضها تمضي في دقة دقيقة واستقامة لا عوج فيها ولا التواء ، ولها عادات منظمة مطردة لا تنحرف عنها مهما تكن الظروف ، ولا ينبغي للخدم ولا للعاملين في الأرض من حولها أن ينحرفوا عنها ، وهي مع هذا كله قليلة الكلام تؤثر الايجاز والصراحة على الاطالة والتأنق في القول . ومن عاداتها إذا تقدم النهار ان تخرج للتزهـة والتفتيش على فرس لها يهيئه خادم لا عمل له إلا ان يهيئ الفرس ويقدمه اليه لتركبه ويتلقى منها عنانه حين تعود ويقوم على خيلها فيما بين ذلك .

قد وقف حياته على هذا واضطر إلى صمت ذاهل لأنه وحيد عصفت الحرب بأسرته وأخويه وهو في الوقت نفسه معذب أشد العذاب : ألقي في روعه ان احد أخويه قد قُتل بالعراء فنفسه هائمة تلتمس قبراً ولا تجد اليه سبيلاً ، وهي تصيح باكية مستغيثة إذا كان الليل ، والفتى يسمع صياحها وإعوالها فلا يذوق النوم إلا غراراً . وهو من أجل ذلك محزون كاسف البال مفرّق النفس . لا يتكلم في النهار إلاّ قليلاً ، فإذا كان الليل أنفقه في السهاد واللوعة والبكاء . وقد خرجت الصاغة ذات يوم حين أقبل المساء ومضت على فرسها فطوفت في الأرض ما شاء الله لها ان تطوف ، ومضت في الغابة حتّى انتهت إلى البحيرة

فنظرت اليها وأطالت النظر مفكّرة فيما يفكر فيه أمثالها من هذه الوحدة التي اضطرت اليها ومن فقدِ زوجهــا العزيز عليها وغياب ابنها الذي يدرس في احدى المــدن الجامعية . ومن شؤونها الكثيرة المختلفة وهي تهمّ بالعودة فقد انقضى النهار أو كاد ينقضي وجعلت أشعة الشمس تنحسر قليلاً قليلاً عن الغابة فتسلم ما تنحسر عنه إلى هذه الظلمة الشاحبة التي لا تلبث أن تتكاثف شيئاً فشيئاً . ولكنها ترى ظلاً يتنقل في الطرف المضيء من أطراف الغابة وهو يتنقل في اناة مستأنية وحذر شديد كأنه يخشى ان يراه أحد . ويريد أن يدنو من هذه الأرض دون أن يشعر أحدٌ بمكانه وهو لا يرى السيدة ولكنها تراه . وقد أثار مرآه في نفسها شيئاً ليس بالخوف وعسى أن يكون أدنى إلى الاستغراب وحب الاستطلاع . وهي تتردد قليلاً ثم تثبت في مكانها لتعلم علم هذا الشخص الغريب . وهو يسعى في خطو متقارب متردد ، ويطيل النظر فيما حوله ويطيل النظر أمامه كأنه يريد أن يملأ عينيه مما يرى قبل أن يلقي الظلام أستاره الكثاف .. وهو يبسط ذراعيه وقد فرج بينهما ويرفعهما إلى السماء كأن شيئاً رائعاً قد ملك عليه نفسه أو كـأنه يريد أن يرفع إلى السماء دعــاء ، وهو يدنو وهي ترقبه ، حتى إذا كان منها بمسمع الصوت أظهرت نفسها واضطرته إلى أن يقف ثم إلى أن يسدنه

منها ثم أخذت تسأله من هو ومن أين يأتي وإلى أين يريد. فيجيبها في كلام غامض لا تكاد تفهم منه شيئاً. ولكنها استيقنت آخر الامر انه غريب هائم في الطريق العامة لا مأوى له. وما ينبغي لها ان تخلي بينه وبين الهيـام في الطريق العامة وقد أقبل الليل وجعل ينشر ظلمته، فهي تدعوه إلى أن يصحبها، وهو يستجيب لها ويمضي معها، وقد تتحدث اليه أثناء الطريق فيجيبها بما لا يغني عنهـا شيئاً. وقد انتهت آخر الامر إلى القصر ووجدت خادمها ذاك الذاهل ينتظرها ليتسلم منها عنان الفرس. وهو في شيء من القلق لأن سيدته قد أبطأت بعودتها على غير ما ألفت، وهي تدفع اليه العنان وتهدئ من قلقه وتنبئه بأنها استصحبت ضيفاً، ثم تدخل ضيفها القصر وتأمر وصيفتها أن تقوده إلى احدى غرفاته ليستريح وينفض عنه غبـار السفر وتؤذنه بالعشاء حين يأتي موعده. وقد خلا الضيف إلى نفسه في غرفة ليست أنيقة ولا مترفة ولكنها مريحة لعله لم يأو إلى مثلها قط. ورأى الخدم هذا الضيف حين دخل إلى القصر فراعهم منظره الرث وزيه الغريب ووجهه الذي هو إلى الاظلام والعبوس أدنى منه إلى الاشـراق والابتسام. وهم ينكرون مكانه ويعجبون لأن سيدتهم قد احتفلت به وصيفته ويسألون من عسى أن يكون! وما عسى أن يكون وطنه الذي جاء منه وجنسه الذي ينتمي اليه. وهم يفترضون في هذا كله الفروض والخـادم

الذاهل صامت يسمع لهم ولا يقول شيئاً . فإذا اتجهت اليه أحاديثهم قال إنما هو ميكائيليس بن فلان ذلك الشيخ الذي يعمل في الضيعة .

ويسمع الخدم هذا فينكرونه أشد الانكار فقد مات ميكائيليس هذا ، قتلته الحرب منذ عشرين سنة . وجاء بذلك النبأ الرسميّ ونقش اسمه على هذا النصب الذي يقوم غير بعيد من القصر والذي أقيم لصرعى القرية في الحرب ونقشت عليه اسماؤهم . ولكن الخادم الذاهل يعيد عليهم قوله في تصميم وثقة فيضيفون قوله هذا إلى ما يعتريه من مظاهر الذهول وشرود البال .

وفي هؤلاء الخدم فتاة شغلها أمر هذا الضيف فهي معنية به مشفقة منه . تود لو علمت علمه وتخشى أن يصيبها منه مكروه .

أما الضيف فقد أوى إلى غرفته ونظر ما فيها من أدوات النظافة والراحة . فأنكر مكانه من هذا كله وسأل نفسه ماذا يصنع في هذه الغرفة أو ماذا يصنع بهذه الأدوات ! فهو لا يستطيع ان يغير من زيه الرث ، ولا أن يستبدل به زياً يلائم هذا القصر ويلائم الجلوس مع هذه السيدة إلى مائدة العشاء . ولكنه أصلح من أمره بما استطاع ان يصلح ووقف ينتظر أن يدعى إلى المائدة بعد أن نظر من النافذة فرأى ، على بعد ، ذلك النصب الذي رأى كثيراً من أمثاله فيما مر به من المدن

والقرى . وقد دعي إلى العشاء فشهده وحيداً مع السيدة التي تلقته أحسن لقاء وعنيت به كما تعودت أن تعنى بضيفها من الاغنياء والمترفين . ثم قضت معه ساعة من الليل تحاول أن تعرف من أمره شيئاً فلا تظفر منه بما يجدي أو يفيد . ثم ثاب إلى غرفته وثابت السيدة إلى غرفتها .

فأما هي فمفكرة مع كثير من الحزن في فقيدها ، تستحضر مصرعه وتستحضر اوبته اليها جثة هامدة وتستحضر الأعوام التي مرت عليها وهي وحيدة تدبر أمر هذه الأرض وتقوم على تربية ابنها وتنشيئه ، وأما الضيف فقد خلا إلى نفسه مفكراً في هذه الخطوب الكثيرة التي اختلفت منذ شارك في الحرب فرأى الناس يموتون من حوله يساقطون كما يساقط الذباب ، ورأى اخلاءه واخوانه يسبقونه إلى الموت بعضهم في اثر بعض حتى هانت في نفسه قيمة الحياة . ثم رأى نفسه يصرع فيمن كانوا يصرعون واستيقن انه قد لحق بمن سبقه إلى الموت ، ولكن الموت ينظر اليه ساخراً منه ثم ينأى عنه غير حافل به ويتركه جريحاً ينتظر الاسار . وقد أسر فطال اسره وسجن فطال سجنه ونظمت أعقاب الحرب وهو محسوب في الموتى لا يحفل به أحد ولا يذكره احد إلا أبوه ذاك الشيخ الذي جزع عليه وعلى من مات معه من اخوانه ثم اطمأن إلى جزعه وأصبح يكتفي بذكره وذكرهم في صلاته والنظر إلى اسمه واسمائهم على

ذلك النصب القائم غير بعيد من القصر ، واستقر في نفوس أهل القرية انه قد قضى نحبه مع من قضى نحبه من ابنائها في الميدان ، وأصبح هذا النصب آية واضحة وحجة قاطعة على انهم جميعاً قد قتلوا فيمن قتل من شباب ألمانيا وكهولها في سبيل مجد الوطن وعظمته . فهم يذكرونهم كلما مروا بالنصب وكلما صلوا ولكنهم يمضون في حياتهم غير حاسبين للموتى حساباً فما ينبغي للموتى أن يصدوا الاحياء عن سبيل الحياة .

ذلك إلى ان الأوراق الرسمية التي جاءت من وزارة الحرب واستقرت في مركز المدينة قد اثبتت موت هذا الفتى فيمن مات ، ليس في ذلك شك ولا معنى للجدال فيه .

كل ذلك يديره الضيف في رأسه بعد أن خلا إلى نفسه ، فهو ينكر مكانه من هذا القصر بل ينكر مكانه في هذه الأرض التي تحيط بالقصر ، بل هو لا يعد نفسه بين الاحياء وانما يرى نفسه ظلاً هائماً ليست له أسرة ولا قرية ولا مدينة وليس بينه وبين الأحياء من الناس صلة : فليس له إلا ان يهيم في الارض تتقاذفه مدنها وقراها وغاباتها وجبالها وطرقها العامة . والخير له أن يجتنب الناس ما وجد إلى اجتنابهم سبيلاً وان يقوت نفسه مما يتاح له أثناء هيامه من هذا الرزق الذي يتاح للطير والحيوان المتوحش . ولم يكن يقدر انه سيلقى هذه السيدة وسيأتي

معها إلى هذا القصر وميلهم بهذه البيئة التي لم يبق له بها عهد والتي نسيها أو كاد ينساها كما أنها هي قد نسيته ولم تذكر منه إلاّ هذا الاسم المنقوش على هذا النصب .

أذاق النوم في تلك الليلة أم لم يذقه ؟ مهما يكن من شيء فقد أخذ الفجر يرسل ضوءه الضئيل بعد ذلك الليل الطويل . ونهض الفتى من سريره ذاك ونظر من النافذة فرأى النصب أمامه غير بعيد ، وما دام الناس قد نسوه وما دام هو أيضاً قد نسيهم أو كاد ينساهم فما بال اسمه هذا يظل منقوشاً يراه أهل القرية بين حين وحين فيذكرونه لحظة ثم يسرعون إلى نسيانه أو يسرع نسيانه اليهم . يجب أن يكون نسيانهم له كاملاً متصلاً كما يتصل الزمن متكاثفاً كما تتكاثف ظلمة الليل حين يتراكم السحاب وتحجب النجوم .

يجب أن يمحى هذا الاسم ، لتقطع الصلة بينه وبين الأحياء من جميع الوجوه . وما بقاؤه في هذه الغرفة ؟ وما لقاؤه لأهل هذا القصر ؟ ثم لأهل هذه القرية حين يشرق وجه النهار ؟ يجب عليه أن يخرج ولكن أنّى له الخروج وقد أغلقت من دونه أبواب القصر ؟ وما له لا يثب من هذه النافذة ويرسل نفسه في الفضاء العريض ؟

وقد فعل ، وقد احتال حتى ظفر باداة حادة ثم عمد إلى النصب وجعل يمحو اسمه منه . وسمعت سيدة القصر

حركة مريبة ثم سمعت صوت هذه الاداة تعمل في الصخر فانكرت ما سمعته وانتظرت حتى آن لمثلها أن تخرج من غرفتها . ثم خرجت وفي نفسها ريب من أمر الفتى ، ثم ذهبت إلى غرفته فطرقت بابها فلم يرجع عليها احد جواباً ، فتدخل الغرفة فلا ترى احداً وترى النافذة وقد فتحت على مصراعيها . فتعلن ان الفتى هو صاحب الحركة التي رابتها وهو مصدر الصوت الذي سمعته ، ولا تلبث أن تدير في نفسها كل ما أدار الفتى في نفسه من الخواطر .

أراد أن يمحو من القرية حتى أيسر ما بقي من ذكراه فمحا اسمه من بين اسماء الموتى . ومضى لا يعرف أحد إلى أين .

ولكنها تلتمسه حين يتقدم النهار فتجده في طرف من أطراف الغابة كأنه قد أوى اليه حيناً قبل ان يأخذ في هيامه ذلك في الطريق العامة . فترفق بـه أشد الرفـق وتتلطف له أعظم التلطف وما تزال به حتى يأنس اليها شيئاً وقد عرفت انه لا يريد أن يعاشر الناس أو لا يستطيع أن يعاشر الناس ، فتمضي بـه إلى بيت منعزل في جانب من جوانب الغابة قد هيئ فيه أثاث ساذج يسير . فإذا دخلت معه انبأته بأنهـا في حاجة شديدة إلى من يحرس لها الغابة وما فيها من صيد ، وانها تريـد أن يـكون حارس هذا الصيد وان يقيم في هذا البيت بعيـداً عن القرية وأهلها لا يرى احداً ولا يراه احد . وتنبئه بأنها

ستزوره في تروّضها بين حين وحين ، وقد ألقي في روعه شيء من الحب الخفي الغامض أشد الغموض لهذه السيدة الرفيقة السمحة التي تظهر ما تظهر من رفق به يوشك أن يكون حناناً . فيستجيب لها متحفظاً وتطيل معه المكث حتى يأنس إلى البيت ثم تنصرف عنه لتزوره كما قالت بين حين وحين. وقد أقام في هذا البيت يأتيه الطعام إذا تقدم النهار ويأتيه طعامه إذا تقدم الليل ، وتزوره السيدة فتتحدث اليه بين ذلك . وهو يطمئن إلى هذه الحياة شيئاً ولكن في نفسه قلقاً ما يزال يساورها ، فهو لا يرى لنفسه ارباً في الحياة ولا يرى للناس نفعاً في حياته ، فما بقاؤه ، وما له لا يستأنف هيامه !

شيء واحد يمسكه في هذا البيت هو هذه السيدة التي تزوره حين يقبل المساء من كل يوم ، تقبل راكبة حتى إذا بلغت البيت ترجلت عن جوادها والقت عنانه إلى خشبة من خشب السور الذي يحيط بالحديقة الصغيرة ، ودخلت عليه مبتسمة فحملت اليه انساً وبشراً ثم انصرفت عنه على موعد . فهو يريد أن يأخذ طريقه ولكن ما في نفسه من هذه السيدة يمسكه في بيتها هذا المنعزل .

ينعم بلقائها حين تلقاه وينعم بانتظارها حين تنصرف عنه . والأيام تمضي وإذا حبه الذي كان خفياً غامضاً يتضح في نفسه شيئاً فشيئاً . وإذا هو يسأل نفسه : ما مقامه في هذا البيت ! لا هو بالانيس الذي يدنو ممن يحب ولا

هو بالغريب المجوال الذي لا يحفل به الناس ومتى رأى الناس سيدة في منزلة هذه السيدة تلمّ بحارس غابتها كل يوم ، حفية به مؤنسة له ثم تنصرف عنه كما جاءت فهي دانية نائية وهي مطعمة مؤنسة ، أيمكن أن يكون في نفسها منه شيء كما ان في نفسه منها شيئاً .. واذن فما بال الامور تظل غامضة مسرفة في الغموض ؟ أتراها تتكلف ايناسه ليألف الحياة ، ولكنه لا أرب له في الحياة ، ام تراها تود لو دنت منه أكثر مما تدنو ولكن لها ما يشغلها عنه ؟

فمثل هذه السيدة لا يمكن إلاّ أن يكون لها صاحب أو رفيق ، وهذه الغيرة قد أخذت تعبث بنفسه قليلاً قليلاً ، وإذا هو يضيق بمكانه من هذه الغابة ويكره حياته التي يحياها معلقاً لا هو بالغريب ولا هو بالبعيد . وقد شغلت السيدة عنه يوماً ويوماً فازمع ان ينطلق ، ولكنه كره أن يمضي دون أن ينبئها بما يريد : فيذهب إلى القصر ، ولا تكاد السيدة تعلم بمكانه حتى تدعوه ، وإذا هي مشغولة ببعض الضيف من سادة المدينة وأشرافها فتقدمه اليهم وتخلطه بهم وتجلسه معهم إلى الشاي وتحدّثه كما تتحدّث إلى غيره من ضيوفها ، حتى إذا همّ أن ينصرف وأراد أن يقول لها شيئاً آذنته بأنها ستزوره من غد .

فيعود أدراجه ولم ينفذ مما صمم عليه شيئاً . وقد تحدث

الفتى إلى ذلك الخادم الذاهل شيئاً من حديث . وعرف قصة أخيه ذاك الذي قتلته الحرب بالعراء والذي هامت نفسه تلتمس قبراً وجعلت تعول إذا أقبل الليل فيحاول الفتى ان يرد على هذا الذاهل شيئاً من عقله وان يبين له ان ما يسمع إذا أقبل الليل ليس هو نفس اخيه الهائمة وإنما هي بومة تنوح في مكان ما قريب من البحيرة . ثم يزمع ان يريح الفتى من هذا العويل الذي يؤرق عليه ليله ويملأ قلبه خوفاً وفرقاً وحزناً .

فقد جعل لنفسه إذن ارباً في الحياة وليس قليلاً ان يرد على هذا الفتى شيئاً من الراحة وأمن القلب وطمأنينة النفس . وقد جعل يرصد هذه البومة في كل ليلة حتى قتلها وانقطع عويلها ، ورد إلى الفتى أمنه ، ولكنه أزعج الناس الذين يقيمون قريباً من ساحل البحيرة فجعلوا يضيقون به ويشكون منه ، وجعلت السيدة تلم به بين حين وحين حتى كثر الحديث عنهما في القرية وحتى ساءت بهما الظنون . ولكن السيدة ماضية في سيرتها هذه حازمة مصممة لا تحفل بالناس ولا بما يسيئون بها من الظن ، حتى انهـا لتزور الفتى ذات يوم فتجده قد جلس في حديقته تلقاء إلى زجاجة من زجاجات الخمر فتجلس معه وتأخذ في الشراب كما أخذ فيه ، وتسرف في الشرب كما أسرف حتى تلغي الكلفة بين الفتى وبينها ولكنها على ذلك محتفظة بما ينبغي لها من الوقار . في نفسها عطف على هذا الفتى ليس

في ذلك شك ولكنها وفية لزوجها الفقيد ووفية لابنها ذاك الذي يتعلم في احدى المدن الجامعية وضنينة بنفسها آخر الأمر على ما لا يليق بالمرأة الكريمة .

وقد أقبل ابنها ومعه خطيبته فأقام في القصر يوماً وبعض يوم ، وخرج مع خطيبته للتروض ، فمضى بسيارته في الغابة حتى إذا دنا من بيت الحارس ورآه فجعل ينظر اليه شزراً ، وغاظ الحارس ما رأى فأطلق النار على السيارة حتى ازعج الفتى وخطيبته ، فعادا مسرعين وانبأا السيدة بما رأيا وساء ظن الفتى بأمه كما ساء بها ظن غيرها من الناس ولكنها لم تحفل بشيء من ذلك . وأمرت ابنها أن يعود إلى المدينة الجامعية من غده . ومضت تتقرب إلى الحارس حتى أقرت في نفسه انه قد أصبح لها إلفاً . وجاء موسم الحرث وأخذ الفلاحون يعملون في إعداد الأرض والفتى يراهم فيضيق بما يرى لأنه فلاح مثلهم . فما أمسكه في هذه الغابة في غير عمل ينظر إلى العاملين وهو متبطل ؟ لمَ لا يشاركهم فيما يعملون ؟ انهم لا يألفونه ولا يجرؤون على أن يدنوا منه ، وهو لا يألفهم ولكنه يحسدهم على العمل، ويود لو شاركهم فيه ، وقد انست السيدة منه كل هذا وحاولت أن تعد اباه الشيخ لاستقباله فذهبت اليه وجعلت تحدثه في رفق واناة عن ابنه ومن أن من الممكن أن يعود هذا الفتى بعد هذه الغيبة الطويلة . ولكن الشيخ يسمع لها هادئاً أول الأمر ثم يشقّ عليه ما يسمع حتى يخرجه عن

طوره فهو لم يعرف قط ان الموتى بعثوا من قبورهم في هذه الحياة ، فاذا الحت عليه في ذلك خرج الشيخ عن طوره ومسه طائف من جنون ، فاسرف في العبث والفساد واضطر أهل القرية إلى ان ينقلوه إلى المستشفى. وتقبل السيدة ذات يوم على حارسها فتتحدث اليه ساعة من نهار ، حتى إذا كاد الليل أن يغشى زعمت له انها تريد أن تجرب نفسها في حرث الأرض ، وطلبت اليه ان يعينها على ذلك فيمضي معها ، وهو يظن ان هذا عبث من العبث ، ولكنها تأخذ في العمل فيشق عليه ما يرى وتثوب اليه فجاءة نفسه القديمة التي كانت قد شردت عنه منذ زمن بعيد . وإذا هو يقول للسيدة : ليس هذا اليك ياسيدتي انما هو عملي أنا . ثم يأخذ مكانها ويمضي في الحرث كأحسن ما يحرث الفلاحون وكعهده قبل أن تخطف الحرب منه نفسه الأولى . وقد عمل فأحسن العمل وعاد كعهده الأول القديم .

والسيدة تشهد عمله من قريب وتملك ما يثور في نفسها من عواطف عنيفة مضطربة ، حتى إذا بلغ الفتى من العمل اربه قالت له : فهذا اذن نصيبك من الأرض تتولى حرثه وزرعه . ثم أمرته ان يتبعها فتبعها فتنحرف به عن الغابة إلى القرية وتمضي به حتى تبلغ منزل أبيه الشيخ . ثم تدخل معه هذا المنزل ثم تقول له : هذه دارك فأو اليها وتلك أرضك فأعمل فيها واستأنف حياتك تلك التي كنت تحياها .

والفتى يسمع هذا كله واجماً أول الأمر ثم ثائباً إلى

نفسه بعد ذلك معجباً بهذه السيدة التي عرفت كيف ترد اليه نفسه بعد أن شردت عنه عشرين عاماً تتألفه حتى تنقذه لا من الغربة والهيام معاً بل من الموت أيضاً . فقد سمت في صمت وهدوء حتى أثبتت في الجهات الرسمية شخصية هذا الفتى ، وانه لم يمت وانما حسب من الموتى خطأ .

نجحت هذه السيدة في رد هذا الفتى إلى عهده بحياته الأولى لا بشيء إلا بأنها عرفت كيف تتألفه وكيف تدعو نفسه الشاردة من غربتها الطويلة حتى ثابت اليه .

وفي الوقت الذي ثابت إلى الفتى نفسه وعاد كما كان رجلاً من رجال القرية يسكن دار أسرته ويعمل في الأرض التي عمل فيها أبوه واخوته عادت السيدة إلى قصرها راضية مطمئنة النفس مقتنعة بأنها لم تصنع شيئاً ذا خطر وانما أدت واجباً يسيراً من واجبات الحياة .

مضى القطار في موعده

قصة للكاتب الالماني هنرايخ بول

قرأت ترجمتها الفرنسية مفرّقة في مجلة العصور الحديثة، وعسى أن تكون قد ظهرت الآن مجتمعة في كتاب ، كما ظهر أصلها الألماني ، ولست أخفي انني احتجت إلى قراءتها مرتين ، لا لأن فيها شيئاً من غموض أو التواء ، بل لأنها راقتني ، ومن الأدب ما يروقك فتقرأه مرة ومرة ، وقد تقرأه مرات كثيرة ، دون أن تقضي العجب من قراءته . أو دون أن تبلغ حاجتك إلى هذه القراءة المتكررة . وانا بعد لم اقرأ هذه القصة في أصلها الألماني ، وانما قرأتها وقد نقلت إلى لغة أخرى ، وفقدت غير قليل من جمالها الأصيل ، وما أشك في أن الذين سيقرأونها كما صدرت عن صاحبها سيرضون عنها أكثر مما رضيت ،

وسيذوقون فيها من الجمال والفن أكثر مما ذقت .

والقصة لا تروع بغرابة الاحداث فليس فيها حدث واحد غريب بل ليس فيها فكرة واحدة تتفك عندها للتأمل والتعمق . وانما هي تجري على نسق يسير مطرد لا اضطراب فيه ولا أمت .

هي أشبه شيء بحديث يقصه صديق على صديق في غير تكلف ولا تأنق ولا التماس للاطراف أو اثارة العجب . وهي بالطبع لم ترقش بجمال اللفظ وروعة الاساوب... وهذه الخصال الأدبية المعروفة التي تسحر القارئ وتملك عليه هواه .

فأنا كما قلت لم أقرأها في أصلها الألماني . وانما قرأتها في ترجمة فرنسية كل جمالها يأتيها من السذاجة ، ويسر المذهب ، واستقامة الأساوب . وصواب التعبير وملاءمته لأصول اللغة الفرنسية حين يكتبها أصحابها ميسرين غير معسرين ومتوخين صدق التعبير والاصابة فيه ، وأكبر الظن ان أصلها الألماني يقارب ترجمتها الفرنسية في هذه الخصال . فالترجمة الصحيحة الصادقة لا تخلو من أصداء صادقة متقاربة لما نقلت عنه .

فليست هذه القصة اذن طرفة فنية بالمعنى الدقيق المألوف لهذه الكلمة في اصطلاح الأدباء والنقاد ، وانما هي صورة يسيرة صادقة ساذجة للون من الوان الحياة التي يحياها الشباب حين تفجأهم الحرب وتأخذ عليهم الحياة من

جميع أقطارها . وتفرض عليهم التفكير في أحداثها وخطوبها وفي اخطارها . وكوارثها ، وحين توئسهم من النجاة ، وتمثل لهم صورة الموت بشعة رهيبة مروعة يملؤها الهول فتملك عليهم تفكيرهم كله وشعورهم كله وحياتهم كلها ، وتحول بينهم وبين الاستمتاع بما يمكن ان يعرض لهم من لذة أو نعمة فيما بقي لهم من الحياة ، وتجعل أعمالهم كلها ، وخواطرهم كلها موسومة بسمة واحدة . هي سمة الخوف اليائس أو اليأس الخائف الذي يصد عن كل شيء إلا نفسه ؛

فهذا الشاب الذي لا نعرف من أمره إلا ان اسمه اندريه وانه من اسرة متوسطة ، وانه فقد ابويه . وانه نشأ نشأة اترابه معتمداً على نفسه . يريد أن يسلك طريقه في الحياة كما يسلكها أمثاله من الشباب حين تستقيم لهم الأمور في السلم . فيجاهدون ويكافحون ويظفرون آخر الأمر بما يتاح لهم من المنازل الاجتماعية .

هذا الشاب الذي نيف على العشرين ، ولم يبلغ الثلاثين ، بل لم يزل بينه وبينها شيء من أمد . تدركه الحرب فتقطع عليه طريقه إلى الحياة ، كما تصورها وكما ارادها ؛ وتنحرف به إلى طريق أخرى قد استقر في روعه انها منتهية به إلى الموت سواء قصرت هذه الطريق أم طالت ، وهو قد ذهب في هذه الحرب مذاهب وشهد منها مشاهد فلم ير الا هولاً وبؤساً وشقاء وموتاً يحاول أن ينسى ذكره ؛ فيتمثل له بكل سبيل كما كانت ليلى تتمثل

لشاعرنا العربي القديم الذي يقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما

تمثّل لي ليلى بكل سبيل

وقد أتيحت لهذا الشاب اجازة قصيرة قضاها في مدينته تلك التي لم تسمّ لنا على ضفة الرين ، فلما انقضت اجازته مضى إلى القطار الذي سيحمله إلى الميدان من وراء الحدود الألمانية في بولندا وصحبه إلى القطار صديق له قسيس في مثل سنه . وقد انتهى الفتيان إلى المحطة وسلكا بعض أنفاقها إلى الرصيف وهما يسمعان أثناء سلوكهما لهذا النفق الدعاء إلى القطار الذي سيسافر في موعده بعد دقائق لا يتأخر عنه قليلاً ولا كثيراً ، وهما يسرعان إلى القطار حتّى إذا بلغاه لم يصعد الشاب إلى مكانه وانما وقف يتحدث إلى صديقه متمهلاً متلكئاً ، كأنه لم يأت لسفر ، وإذا صديقه يسأله متعجلاً له منكراً تباطؤه : « ما بالك لا تصعد إلى القطار ؟ انه يوشك ان يفوتك ؟ ألم تسمع انه سيمضي في موعده ؟ ألا ترى انه يتهيأ للانطلاق ؟ » فيجيبه الفتى ساخراً : « وما عليك ان يفوتني القطار ، وإذ كنت اوثر الحرب ، وإذا كنت أكره أن أموت » ... ثم تثوب إلى الفتى نفسه فيقول لصاحبه : « لا عليك ، سأصعد إلى القطار ، فادعُ لي ! » ثم يصعد متلكئاً متكرهاً فيلتمس مكانه . حتى إذا ظفر به جعل ينظر إلى صديقه الواقف على الرصيف وقد أخذ القطار يمضي أمامه وشخص

الصديق يصغر في عينيه شيئاً فشيئاً حتى يستخفي .

وينظر الفتى من حوله في القطار فيرى رجالاً ونساء ويرى جنداً ولكنه لا يكاد يلتفت إلى أحد ممن يرى لأن شخصاً واحداً قد ملأ عليه نفسه كلها وهو الموت .

وقد سقط في سمعه حوار قصير بين جماعة يتحدثون في القطار وهم منه غير بعيد يقول أحدهم لأصحابه : اما الحرب فقد ربحنا فيها النصر ما في ذلك شك ، بل يكفي أن نعلن الحرب لنثق بأننا منتصرون ...

فيقع هذا الكلام من نفس الفتى موقع رجع الصدى الذي يأتي من بعيد ولا يجد في نفسه رداً على ما سمع إلا ان الالمان انتصروا فسينتصرون دون أن يشاركهم في الانتصار لأنه ميت ما في ذلك شك ، ثم يفكر في المسافة التي تفصل بينه وبين الميدان ، فيقدرها ويحققها ويعد ساعاتها ويقطع بأن هذه الساعات هي كل ما اتيح له من الحياة . والحزن يملأ نفسه وهو حزن خائف مخيف يملؤه اليأس والأسى ، فهو في أول حياته وقد كانت له آمال طوال عراض مشرقة رائعة ولكنها تقطع فجأة ، وهو يريد ان يحقق هذا الموت الذي ينتظره والذي يحمله القطار اليه في غير تردد ولا ابطاء ، فأيسر حركة يتحركها القطار تقربه من الموت وتباعد بينه وبين الحياة ، وهو يذكر الاعوام القليلة التي اتيح له أن يحياها شاعراً بنفسه ، عاقلاً لأمره منذ أتيح له العقل ، ويذكر اللذات القليلة التي

أتيحت له . ثم صرفت عنه إلى غير رجعة واللذات الكثيرة التي كان يرجو ان ينالها . ثم تقطعت بينه وبينها الأسباب . فالموت ينتظره هناك من وراء الحدود باسطاً له ذراعيه ليضمه اليه في عنف . أو في رفق .. لا يدري .

والقطار يمضي به حازماً مسرعاً ليسلمه إلى هاتين الذراعين. وهو يذكر أوقاتاً قصاراً قضاها في فرنسا حين حملته الحرب اليها ولذاتٍ خاطفة أتيحت له هناك ، فقد تتيح الحرب للجند بعض اللذات الخاطفة حين تحملهم إلى هذا المكان أو ذاك ولكنها في هذه المرة لن تتيح له لذة خاطفة أو غير خاطفة لأنه سيصل إلى الميدان في ساعة بعينها وسيتلقاه الموت اثر وصوله لا يمهله ولا ينتظر به لذة أو ألماً .

والفتى يثوب إلى نفسه بين حين وحين ويلومها أعنف اللوم لا لأنها تفكر في الموت بل لأنها أثناء تفكيرها في الموت لا تتأهب له بالصلاة والدعاء ، وإنما تنفق وقتها القليل في استحضار ذكريات لا سبيل إلى أن تعود وليس يغني استحضارها عنه شيئاً ولا ينفعه قليلاً أو كثيراً .

ما أضعف النفس وما اسخفها وما أحرصها على ان تضيع وقتها فيما لا ينفع ولا يفيد . إنه لا يحتاج إلى شيء ، كما يحتاج إلى الصلاة والدعاء . يتهيأ بهما للقاء هذا الموت الذي ينتظره هناك ليتلقاه اثر نزوله من القطار : وهو هنا يشغل نفسه عن الصلاة والدعاء بهذه الفتاة التي

لقيها في فرنسا فأحبها وكلف بها ، وكان حبه لها أول عهده بالحب .

ما شأنه بالحب الآن ! ان الحب نعمة تغمر النفس وتملأ القلب حياة وأملاً ولا سيما حين يتاح للفتيان في طور الشباب الذي يتسع للحياة والأمل ولذاتهما . ولكن شبابه هو ليس كغيره من الشباب فهو لا يتسع لحياة ولا لأمل ولا للذة لانه شباب ضيق لا يتسع إلا بمقدار ما يتسع هذا القطار : أو هذا المكان الذي يشغله من القطار ، ولا يطول الا بمقدار هذه المسافة التي تقصر في كل لحظة بمقدار ما تتحرك عجلات القطار . فليعمد إلى الصلاة والدعاء اذن يملأ بهما هذا الشباب الضيق القصير . ولكنه لا يشقى بنفسه هذه التي تشغله بذكرياتها فحسب وانما يشقى بجسمه أيضاً . انه يحس الجوع ولم يبق إلا أن يشغله جسمه عن الصلاة والدعاء بحاجته الملحة إلى الطعام . فليرح جسمه وليكفه عن هذا النداء الملح وليتناول شيئاً من الطعام وليفرغ بعد ذلك من جسمه ونفسه من ذكريات هذه وجوع ذاك ، وليقصر ما بقي من وقته على الصلاة .

والفتى يعمد إلى الطعام الذي أعده له صاحبه القسيس فيصيب منه شيئاً ، ولكن ماذا ! انه يجد للطعام لذة ترغبه في الاسترادة منه . أيمكن ان يجد الانسان لذة الطعام وهو يعلم انه ميت بعد قليل من غير شك ؟ ان امر الحياة لا يخلو من عجب فهي لا تفرق بين الجد

والهزل ولا بين المهم والسخيف . موت قريبٌ محقق وجوع مع ذلك وشهوة إلى الطعام ورغبة في الاستزادة منه . فليقطع هذه الشهوة اذن وليصب من الطعام حظاً آخر وليشرب شيئاً من نبيذ . انه لنبيذ عذب المذاق . حسن الموقع في الجوف . انه ليشيع في الجسم حرارة ودفئاً وانه ليشيع في القلب سروراً ونشوة . ان شيئاً من هذا لا ينسيه الموت ولا يشغله عنه ولكنه يخفف من حزنه ومن مرارة يأسه . فليستزد من هذا الشراب كما استزاد من ذلك الطعام . وليفرغ بعد ذلك كله لما ينبغي أن يفرغ له من الصلاة والدعاء ، حتى لا يلقى الموت بنفس مجدبة قاسية .

وقد فرغ الفتى من طعامه وشرابه ولكنه لم يفرغ لصلاة ولا لدعاء ، فقد كان النوم يرقبه من قريب جداً ، فلم يكد يفرغ من طعامه وشرابه حتى مسه بجناحه مساً رفيقاً فأنساه نفسه وأنساه الصلاة و الدعاء وانساه الموت أيضاً . أعرض له الموت في أحلامه ام انتظر به حتى يفيق من نومه ؟ لا يدري . لأنه لم يكد يفيق من نومه حتى رأى الموت ماثلاً أمامه ، بل مستأثراً بنفسه وقلبه ، فهو لا يدري أنام ام لم ينم ، وانما يعلم انه ما زال مصاحباً للموت دائماً . ولكنه يرى رفيقين في القطار لا يذكر انه رآهما حين صعدا إليه ، ولعلهما صعداً إلى القطار اثناء نومه ذاك اليقظ أو يقظته تلك النائمة .

وهما جنديان مثله . وهما يلتمسان الاسباب للتحدث اليه . وما أسرع ما يتصل بينه وبينهما الحديث ؛ وإذا هما يذهبان إلى نفس الميدان الذي يذهب اليه .. ولكن الغريب ان الفتى لا يقدر ان الموت ينتظرهما كما ينتظره . إنما الموت ينتظره هو وحده فأما غيره فليس يعلم من أمره شيئاً ولا يعنيه ان يعلم من أمر غيره شيئاً . وهو لا يعرف اسم رفيقيه ولا يعنيه ان يعرف اسميهما . فليكونوا رفاق سفر حتى إذا بلغوا الميدان فرق الموت بينهم فاستأثر به وصنعت الأحداث بصاحبيه ما لا حاجة به إلى ان يعلمه . وهم ينفقون الوقت في حديث ولعب بالورق وفي طعام وشراب يشرك كل منهم صاحبيه فيما عنده ، فقد ألف بينهم السفر وألفت بينهم الحرب وجعلتهم رفاقاً مخلصين في الخير والشر لا يستأثر أحد منهم بشيء من دون صاحبيه . والقطار يبلغ غايته بعد ليلة كاملة وبعد جزء من النهار ، ولكنه ينتهي بهم إلى مدينة قريبة من الميدان ثم يتركهم فيها ليأخذوا إلى الميدان قطاراً آخر لا يعرفون موعده ولا يلبثون أن يتبينوا ان قد مدت اجازتهم بقية يومهم ذاك . فلن يبلغوا الميدان الا في الساعة السادسة من صباح الغد وليس بينهم وبين الميدان مع ذلك الا أمد قصير . فلينفقوا يومهم إذن وادعين في هذه المدينة ، وقد أخذوا في ذلك فأصلحوا من شأنهم وغيروا ملابسهم واستردوا هيآتهم كما تكون في أيام

الأقامة ، وإذا هم فتيان أقوياء عليهم وسامة ولهم شارة .
واحدهم ضابط رشيق كريم موفور يريد أن يمتع صاحبيه بشيء من نعمة المال قبل ان يذهبا إلى الميدان . فهو يدعوهما إلى مطعم فخم يتناولون فيه غذاء مترفاً . وهو يذهب بصاحبيه بعد ذلك إلى دار من دور الاثم . وقد أسرفوا على أنفسهم في الطعام والشراب . وماذا يصنع الجند الناظرون الذين تنتظرهم الحرب بأهوالها من الغد وقد طعموا وشربوا فأكثروا ؟ وهم قد ذهبوا إلى هذه الدار واختار الضابط لنفسه ولصاحبيه وخلا كل منهم إلى صاحبته ..
ولكن فتانا لم ينس الموت حين طعم وحين شرب وحين أوى إلى هذه الدار الآثمة ، فقد دخل الموت معه في ثيابه واستقرت صورته في عقله وقلبه جميعاً . واشتد استئثارها به بمقدار ما قرب الأمد في الزمان والمكان بين الفتى وبين الميدان . وهو يلقى صاحبته باسماً لها ولكنه لا يريد الا أن تبقى معه في غرفته ، هو لا يبتغي إثماً ولا لذة وانما يبتغي فراراً من الوحدة ، فراراً من نفسه وفراراً من صورة الموت . وصاحبته ضيقة بذلك أول الأمر ولكنها لا تلبث ان تطمئن اليه . فضرورات الحرب وقسوة الحياة وطلب العيش هي التي اضطرتها إلى هذه المهنة البغيضة . ولا تكاد الفتاة تتحدث إلى الفتى حتى يعلم انها محاربة وانها تتجسس لمواطنيها الثائرين بالعدو المحتل .
قالت ذلك للفتى حين امنته واطمأنت اليه ، وهي في اول امرها

وفي أيام السلم كانت تتهيأ لصناعة الموسيقى ، والفتى مشوق إلى الموسيقى . مشوق اليها اي شوق . ومن يدري لعل الموسيقى ترده إلى هذه الصلاة التي لم يفرغ لها إلى الآن . وهو لا يكاد يسمع عزف الفتاة حتى يحبها أعمق الحب وأقواه ، وهي أيضاً قد احبته والفتى كلف بالفتاة إلى أقصى غايات الكلف . ولكنه على ذلك لا يريد إلا صحبتها وإلا صحبتها التي تتصل حتى تسلمه إلى الموت . صحبتها التي تسليه عن الموت ما امتد الليل وتسلمه إلى الموت حين يسفر الصبح . وهما يطعمان ويشربان ويتحدثان . ولكن الباب يطرق وإذا صاحبة الدار تدعو الفتاة لأن القائد يريدها . والفتى يأبى أشد الاباء ويمسك الفتاة معه وينفق كل ما عنده من نقد ويترل حتى عن بعض ملابسه وعن حذائه لتبقى معه الفتاة . وما يمنعه ان يلقى الموت غير كامل الزي وان يلقى الموت حافياً ؟ وما يصنع الموت بزيه وحذائه ؟ إنما يريد الموت مهجته وحدها . وقد بقيت معه الفتاة ورقت له واقسمت لتنجينه من الموت . فستأتي سيارة القائد في آخر الليل لتحمل اليه الفتاة وسائق السيارة بولندي مثلها وهو عدو مثلها للالمان . فستصطحب الفتى معها في السيارة وستنحرف السيارة بهما قليلاً وسيفران إلى قرية تعرفها الفتاة في شعب من شعاب الجبل . والفتى لا يكره ذلك ولكنه يطمئن بشرط ان يصطحب رفيقيه . وما يمنع ان يفروا جميعاً

إلى ثنى من أثناء الجبل فيعيشون فيه حتى تضع الحرب اوزارها . وقد مضت بهم السيارة مع الصبح ، وهم جميعاً فيها يحاولون امراً ، وقد دبر القضاء امراً آخر . فقد نظر فتانا اندريه في ساعته فاذا هو يقرأ الساعة السادسة ولا يكاد يحول عينه عن ساعته حتى تنشق السيارة نصفين . سقطت عليها قنبلة فجعلتها ومن فيها حطاماً . ويفكر الفتى اين هو ! واين يداه ورجلاه ! وينظر في سكرة من سكرات الفجاءة فيرى يداً قد خرجت من حطام السيارة هي يد صاحبته تلك التي اقسمت له لتذهبن به إلى حيث يلقى الحياة الناعمة .

أي القطارين كان دقيقاً في المحافظة على موعده أعظم الدقة واشدها ؟ أهو ذلك القطار الذي حمل الفتى ورفاقه إلى الميدان ام هو قطار آخر هيأه القضاء ليحمل الناس من الحياة إلى الموت !

الرَّبْوَةُ المَنْسِيَّةُ

قصة الكاتب الجزائري مولود معمري

صاحب هذا الكتاب أخ لنا من أهل الجزائر لا أعرفه ولا أكاد أحقق اسمه الذي يحمله كتابه هذا مكتوباً باللغة الفرنسية .

ولو قد كان من أصل عربي لأمكن ان يرد اسمه من التحريف الفرنسي إلى طبيعته العربية الأولى . ولكنه نشأ في قبيلة من قبائل البربر : فتأثر اسمه بلغته الأولى ، وكتب بالاحرف الفرنسية مولود مامبري ، وعسى أن يكون أصله مولود معمري . وتعيش الفصيلة التي ينتمي اليها الكاتب على ربوة تقوم من دونها جبال شاهقة تحول بينها وبين السهل الذي يسكنه العرب .

وهي كغيرها من الفصائل تتخذ الاسلام ديناً ولكنه على

تأصله فيها ، وبعد عهدها به منذ القرون الطويلة قد انحرف إلى شيء من الوثنية التي يسرع بها الجهل المتصل بكثير من طبقات الدهماء . فأفرادها يقدسون الاولياء تقديساً يوشك ان يبلغ العبادة ، وهم يقربون اليهم الضحايا في أيام بعينها من العام ويحملون اليهم الهدايا ، ويتوسلون اليهم بفنون من الدعاء ويتخذونهم وسطاء بينهم وبين الله . وهم وسطاء أقوياء يملكون دفع الأذى وكشف الضر ، كما يملكون تحقيق الآمال واجابة المطالب : وقبورهم مشهودة دائماً قد وضعت مراسم لزيارتها في بيوتها التي قامت من حولها ، كما وضعت مراسم للانصراف عنها بعد الزيارة وبعد رفع الحاجات اليها .

وفي عبادتها أو التقرب اليها من طريق الذكر أمور أقل ما توصف به انها تنافي المألوف من أمور الدين حتى في البيئات الشرقية الجاهلة .. فتدخين الحشيش مثلاً مقدمة من مقدمات الذكر . والذكر نفسه رقص أو شيء يشبه الرقص ، وعلى هذا اللون من الوان الدين والاعتقاد قامت لهؤلاء الناس عادات وسنن تأثروا بها في تصورهم للاشياء وحكمهم عليها وتفكيرهم فيها وتقديرهم لها . وهم على ذلك يؤدون الصلوات لأوقاتها ويصومون حين يظلهم شهر الصوم ، ويقرّون في أعماق نفوسهم ما يقر المسلمون من أصول الاسلام الصحيح ، ثم هم بعد هذا كله ينظرون إلى الطبيعة من حولهم نظرة خاصة ويبثون فيها شيئاً من الحياة

ويضيفون اليها شيئاً من الارادة أيضاً ويجرون بين عناصرها ضروباً من الصلاة تذكّر بالوثنية في بعض البيئات القديمة .

والربوة التي تعيش عليها هذه الفصيلة من فصائل البربر قليلة الصلة بغيرها من الناس : تكاد تعيش في عزلة لولا أن ضرورة الحياة تفرض عليها الشعور بأنها تخضع لسلطان بعيد مختلط هو سلطان الحكومة التي تأتلف من الفرنسيين الذين يسودون ويدبرون الأمر ومن القادة المواطنين الذين يتوسطون بين هؤلاء السادة ورعاياهم وساطة فيها كثير من الاستعلاء : وفيها كثير من الفساد أيضاً . هم في قصورهم أو دورهم أشبه بالأولياء في قبورهم . للاولياء الوساطة بين الناس وبين الله : وللقادة الوساطة بين الناس وبين السادة الفرنسيين .

يقدم القربان إلى اولئك كما يقدم إلى هؤلاء : وترفع الحاجات والمطالب والمظالم إلى أولئك كما ترفع إلى هؤلاء ، ويتقى الشر ويرجى الخير من اولئك ومن هؤلاء . وكذلك تجري أمور هؤلاء الناس في شيء من الطمأنينة الغريبة التي يمازجها كثير من الخوف وكثير من الحب والبغض .. فهم يخافون الاولياء والقادة جميعاً ، ولكنهم يحبون الاولياء ويبغضون القادة ، وهم يذعنون للفرنسيين كما يذعن الانسان للقضاء المحتوم الذي لا حيلة له فيه . لا يعرفون كيف جاءوا اليهم . ولا يعرفون كيف يخلصون منهم فهم راضون لأنهم لا يملكون إلا الرضى . هذه هي البيئة التي نشأ فيها الكاتب والتي صورها في كتابه اجمل تصوير وأروعه ، وهو يكتب باللغة الفرنسية ، وكتابه رائع أشد الروعة وأقصاها

بحيث يمكن ان يعد من خير ما أخرج في الادب الفرنسي اثناء هذه الأعوام الأخيرة ، وان كنت لا أعرف انه ظفر بجائزة من هذه الجوائز الكثيرة التي تمنح في فرنسا لكتب لا ترقى إلى منزلة هذا الكتاب روعة وجمالاً ..

والكاتب معلم في احدى المدارس الفرنسية بمدينة الجزائر ، وأكبر الظن انه لا يحسن العربية ولا يكتب بها ، وآية ذلك رسالته تلك التي قدم بها كتابه إليّ منذ شهور .

وان مما يؤلم حقاً ان يصدر مثل هذا الكتاب الرائع الممتاز في بلد كالجزائر ، للعربية فيه المنزلة الأولى بالقياس إلى أهله ، ولكني لم أتلق من هذا البلد كتاباً بلغة أهله يقارب هذا الكتاب جودة واتقاناً وامتيازاً . واكاد اعتقد ان اللغة العربية في الجزائر لم يتح لها بعد أن تكون لغة الأدب بالقياس إلى الذين يتكلمونها ، لأن العناية بها لا تكاد تذكر ، وهذا أقل ما ينتظر من الاستعمار وان كان الفرنسيون يرون استعمارهم للجزائر نعمة لم يحسن الجزائريون شكرها إلى الآن ، وما أحسب انهم سيحسنون شكرها في يوم من الأيام .

وكيف السبيل إلى ان تشكر نعمة تعلم الناس لغة غير لغتهم حتى يمتازوا فيها ، ويتصرفوا بها خيراً من تصرف كثير من أهلها وتجهلهم لغة آبائهم وأمهاتهم حتى لا يكتبوا بها أيسر الرسائل وأهونها شأناً .

ولكن أنسيت اني اكتب اليوم في الادب لا في السياسة ، فلأعد إلى هذا الكتاب الذي سماه صاحبه « الربوة المنسية » ولو

كان أمر تسميته اني لسميته « خطيئة الليل » لما سترى بعد حين .

وفي الكتاب خصلتان كل واحدة منهما تكفي لتبلغ بالكتاب منزلة ممتازة من الجودة والاتقان : فكيف وقد اجتمعتا احسن اجتماع . والتأمتا أدق التئام ، وائتلفت منهما موسيقى حلوة مرة ترضي القلب والذوق معاً .

فالكتاب دراسة اجتماعية عميقة دقيقة مفصلة مستقصاة تصور أهل هذه الربوة في عزلتهم تلك، وقد فرغوا لأنفسهم واعتمدوا عليها ، فلم يكادوا يذكرون أحداً غيرهم من الناس . وهم يجهلون ما وراء الجبال التي تقوم دونهم . لا يعرفونهم إلا حين يضطرون إلى ذلك اضطراراً وما أقل ما يضطرون اليه ، وهم لا يشعرون بالحكومة إلا حين تجبي منهم الضرائب على ما تثمر لهم الأرض ، وما يكسبون من المال وحين تدفعهم الحاجة الملحة إلى ان يؤدوا إلى القائد البعيد شيئاً من الرشوة لقضاء مأرب من المآرب والعروض التجارية التي يحتاجون اليها ، وهي قليلة تأتيهم من وراء الجبل ، وربما سعى بعضهم اليها ليجلبها ولكنهم لا يحفلون بذلك ولا يلتفتون اليه ، إنما هم فارغون لما تعودوا ان يفرغوا له من حياتهم تلك التي تشبه الاقطاع الهين السهل ...

جماعة من الاغنياء يملكون الأرض أو أكثرها ، وآخرون من الفقراء يعملون لهم في هذه الأرض ويرعون لهم قطعانهم ، واولئك وهؤلاء اخوة متحابون ليس فيهم تسلط ولا كبرياء وانما هو التعاون الرفيق في ظل هذا العرف المقرر الذي

قسم بينهم حظوظهم قسمة جرى بها القضاء كما يجري بكثير من الأشياء . فما ينبغي أن ينكرد أحد أو يتعرض عليه إلا بمقدار ما يكون من الضيق بالعاصفة حين تثور أو البرد حين يسقط على الأرض ويتكاثف ، ويضطر الناس إلى أن يلزموا دورهم أياماً تقصر أو تطول ، أو القيظ حين يشتد اتقاده حتى يجعل بعض ساعات النهار قاسية لا تطاق . وهم في حياتهم هذه الوادعة المطمئنة لا يشقون إلا بما يعرض للناس من الشقاء حين تلم العلة أو يطرق الموت . ولا يكادون ينكرون من أمرهم إلا هذا الخلاف اليسير الذي يكون بين الشيوخ المحافظين الذين ألفوا حياتهم الموروثة وعرفهم المحفوظ . وهؤلاء الشباب الذين اختلفوا إلى المدارس الفرنسية فالتوت ألسنتهم برطانة يعرفونها ولا يحبونها ، وجعلوا يأخذون عن معلميهم وأساتذتهم وبيئتهم تلك المدرسية بعض التقاليد الأجنبية التي تفسد عليهم شيئاً غير قليل من تفكيرهم وتقديرهم وتغير آراءهم في بعض العادات والمقدسات ، ومع ذلك فقد أذعن الشيوخ لما ليس بد من الاذعان له فقبلوا الشباب على علاتهم ، واضطر الشباب أيضاً إلى شيء من الاذعان فخضعوا للعادات والعرف ينكرونها في قلوبهم ، ويعرفونها في سيرتهم ولا يحاولون تغييرها إلا في كثير جداً من التردد والاستحياء ، ثم هم مع ذلك لا يبلغون من محاولاتهم هذه أو لا يكادون يبلغون منها شيئاً .

حياة تمضي مطردة يسيرة لا أمت فيها ولا عوج . لولا

ان القضاء يفجأ الناس بين حين وحين بما لا يقدرون، فهذه نذر الحرب لا تكاد تبلغهم وتدعوهم إلى شيء من الروية والتفكير والاحتياط حتى تتبعها أنباء الحرب مسرعة ، وإذا الخوف يستقر في قلوبهم ،وإذا القلق يسيطر على سيرتهم كلها ثم لا يلبث البريد ان يمطر الدور بوابل من الرسائل موجهة كلها إلى الشباب تأمرهم ان يسرعوا إلى أماكنهم من الجيش .

فصوّر لنفسك وقع هذه الرسائل في نفوس الآباء والامهات هؤلاء الذين يكرهون على فراق أبنائهم في غير حاجة منهم إلى هذا الفراق ، وما شأنهم هم بهذه الحرب التي يثيرها الروم فيما بينهم — والروم عندهم هم الأوروبيون—لا يستشيرونهم ولا يستأمرونهم ، وليس لهم فيها ارب قريب أو بعيد ثم هم يصلون نارها . وأي نار ، يصلاها ابناؤهم هينة أول الأمر حين يذهبون إلى مواقفهم من الجيش فينفقون وقتاً ما في التدريب ، ثم يقذف بهم بعد ذلك إلى ما وراء البحر هناك حيث لا يستطيع احد أن يعرف من امرهم ، ولا من مصيرهم شيئاً . وإنما هي صور الموت المنكرة بشعة متوثبة قد فغرت أفواهها وبسطت أيديها الطوال القوية لتخطف الشباب وتزدردهم ازدراداً في غير رفق ولا لين .

وهؤلاء الآباء والامهات لا يجهرون بشيء من هذا وانما يجمجمون به ويرددونه في ضمائرهم ترديداً ملحاً اليماً ، وهم على ذلك يتجلدون تجملاً وتكرماً فيما بينهم ، ويتجلدون تجملاً وتكرماً فيما بينهم ، ويتجلدون حباً لأبنائهم ورعاية لهم ، كذلك

يكظمون الغيظ ويحبسون العبرات ، حتى إذا خلوا إلى أنفسهم ساعة من نهار أو ليل أرسلوها على سجاياها فشكوا وألحّوا في الشكاة ، وبكى النساء وامعنّ في البكاء ثم خرجوا بعد ذلك كراماً لا يظهر عليهم إلاّ حزن وقور .

والشباب قد عرفوا من شؤون الحرب الماضية القريبة مـا يبغض اليهم هذه الحرب الجديدة وينفرهم منها نفوراً شديداً . في نفوسهم القلق وفي نفوس كثير منهم اليأس ، ولكنهم كآبائهم يتجلدون . يرفقون بهؤلاء الشيوخ من جهة ويكرهون ان يظهر عليهم الفرق والضعف من جهة أخرى ، فقد ينبغي أن يكونوا رجالاً وان يكبروا في نفوس رفاقهم وفيما بينهم وبـين ضمائرهم أيضاً .

الشباب اذن يتأهبون للسفر ، والشيوخ يهيئون لهم أسبابه ، ثم تأتي الليلة التي سيسافرون من غدها ، فسل عن القلوب الواجفة والنفوس الخائفة وعن الحسرات المكظومة والعبرات المكتومة ، وهذه الليلة تقصر حتى كأنها ساعة ، وتطول حتى كأنها ليـال طويلة يقصّرها الحرص على البقاء بين الأهل والصديق ، وفي ظلال الوطن الحبيب ، ويطوّلها توقع الهول الذي ستتكشف عنه ساعات الفراق ، ثم تأتي هذه الساعة قبل أن تشرق الشمس فيخرج الشباب في غير فرح ولا مرح تشيعهم صيحات الامهات والاخوات والزوجات ودعوات الآباء الذين يعرفون كيـف يحتفظون بالاناة والجد ويدخرون لأنفسهم كنوز الحزن والقلق والخوف ، والحرب لا تأخذ من هؤلاء الناس أبناءهم وحدهم

وانما تأخذ معهم الدعة والأمل والرضى : وهي لا تجاب لهم الخوف والحزن وحدهما . وانما تجاب لهم معهما مصاعب الحياة من كل لون . فما أكثر ما تستولي الحكومة على بعض ما تملكون من اداة وحيوان . وما تخرج لهم الأرض من ثمرات . وما أقل ما تجلب اليهم من حاجاتهم . وما تكاد الحرب تنفق الأسابيع الأولى من حياتها المنكرة حتى يكون الغلاء الذي تجعل حياة الفقراء وأوساط الناس عسراً كلها وضيقاً .

غير ان الحرب في أول أطوارها لا تصيب الناس بشرّها كله ، فما تلبث الهزيمة أن تلم بالفرنسيين وتستقر في بلادهم وتظهر آثارها في الجزائر وقد سرّح الجيش وعاد كثير من هؤلاء الشباب إلى أهلهم وأوطانهم موفورين واستأنفوا حياتهم كما كانوا يحيونها من قبل ولكن فيها ضيقاً وعسراً وضروباً من المصاعب والواناً من الشدائد الثقال .

والشيوخ راضون بعودة أبنائهم اليهم ، والشباب راضون باستئناف حياتهم على ما فيها من عسر وضيق ولكن الحرب تستأنف بعد شيء من الوقت . فهؤلاء الأمريكيون قد احتلوا الجزائر وأخذوا في طرد الألمان من شمال افريقيا ، والفرنسيون يريدون أن يشاركوا في الحرب والانتصار ، فيدعى هؤلاء الشباب إلى مواطنهم من الجيش مرة أخرى ويستأنفون حياتهم تلك القاسية المرة التي ذاقوها منذ حين .

هذه هي الصورة الاجتماعية التي يصورها لنا الكاتب في كتابه ، وقد أوجزتها ايجازاً شديداً وتركت خير ما فيها مما يسخط

ويرضي . ومما يحزن ويسر . فاني لا أفصل الكتاب وانما ألخصه وأترك لمن شاء واستطاع من القراء ان يقرأه كاملاً . واننا بعد لم نُلم إلا بالخصلة الاجتماعية لهذا الكتاب ، وقد قلت ان في الكتاب خصلة أخرى رائعة أشد الروعة وهي هذه التي تعرض لحياة جماعة من الفتيان فيما بينهم من جهة وفيما بينهم وبين أنفسهم من جهة أخرى . وهم فتية تختلف حظوظهم من الغنى والفقر ، ولكنهم على ذلك متقاربون أشد التقارب تجمع بينهم قيباتهــم وتجمع بينهم سنهم وتجمع بينهم اشتراكهم في جد الشباب ولعبه . هم ينسون ما بينهم من الفروق حين يلتقون ليلعبوا أو يسمروا أو يأخذوا فيما شاء الله ان يأخذوا فيه من فنون الشباب حين يتاح لهم الفراغ ، وهم جميعاً ينعمون بالحب حين يكون في نفوسهم أملاً يداعبونه ويجدون اللذة في مداعبته ، والتحدث فيه ، وينعمون كذلك حين تتاح لهم بعض لذاته النقية البريئة يختطفونها اختطافــاً ، فتكون لهم متاعاً وذخراً ، ثم هم جميعاً يشقون بالحب حين تتحول آماله إلى يأس مهلك لا راحة منـه ولا سبيل إلى اتقائه ، أو حين تحقق آماله فتملأ القلوب رضى وغبطة ، وتملأ الحياة سعادة وهناءة واشراقاً ثم لا يلبث الحرمان ان يمسّها بجناحه البغيض فتتحول يأساً مظلماً ينتهي بأصحـابه إلى الموت .

هذا قد احب صاحبته أشد الحب ، ولم يشك في أن حبه هذا منته إلى غايته من اجتماع الشمل وتحقق الامل . ولكن اسرة الفتاة يغرها غنى فتى آخر فتؤثر الاصهار اليه وترضاه لابنتهـا

زوجاً . والفتاة تحب صاحبها القديم ولكنها خاضعة لعرف القبيلة وتقاليدها فهي تكظم حبها وتكتم شقاءها به وتمنح زوجها من الوفاء والاخلاص والنصح والصدق في العشرة وحسن الرعاية لحقوقه ومصالحه ما ينبغي للمرأة الحرة الكريمة ان تختص به زوجها .

ولكن القلوب ليست بأيدي أصحابها يصرفونهـا كما يحبون ، وانما هي بايدي هذه العواطف الثائرة الجامحة التي تملك عليها أمرها كله وتدبرها كما تشاء .

فلا أقل من ان تملك هذه المرأة أمر نفسها في قوة وحزم ومضاء فلا تفرط في حق زوجها ولا تستجيب لهذه العواطف الجامحة حين تدعوها إلى بعض ما تريد . فلتظهر سعادة وأمناً ورضى ولتضمر شقاء وخوفاً وحزناً ،ولتخف ما تضمر على الناس جميعاً وعلى هذا المحب القديم خاصة فما ينبغي أن يظهر منها على ضعف ولا أن يجد إلى الطمع فيها سبيلاً ، وهي تراه موطاً مدلهاً مفتوناً قد أخرجه الحب عن طوره ودفعه إلى الوان من التصرف الغريب ، وهي تبتهج بما ترى وتظهر مع ذلك قسوة لا حد لها .

وهذا فتى آخر يحب صاحبته ، ويكلف بها أشد الكلف ، يفطن لحبه قبل أن تفطن له صاحبته فهي مشغولة عنه وعن الرفاق جميعاً بمحب لها آخر شديد الأثرة ، شديد الغيرة ، يريد أن تكون له وحده لا يشاركه فيها شريك من قرب ولا من بعد وهذا المحب الاثر الغيران الذي لا يحب هذه الفتاة وحدها وإنما

يحب معها فتيات أخريات كثيرات قد بسط عليهن سلطاناً قاسياً صارماً فهن خالصات له لا ينبغي ان يشغلهن شاغل . وهـذا المحب القاسي هو الليل ، الليل الذي ألف عشيقاته من فتيات الأنهار والغابات يسعين اليه مصطحبات منذ تجنح الشمس إلى الغروب حتى تؤوب إلى مشرقها مع الصبح ، وصاحبتنا تسعى معهن إلى الليل وتخلص له معهن من كل شيء ومن كل انسان ، فاذا أقبل النهار عادت إلى رفاقها تشاركهم فيما يأخذون فيه من لعب أو حديث . وقد أتيح لهذا الفتى ان يستخلص حبيبته من عاشقها ذلك الغريب المخيف وان يتخذها لنفسه زوجاً ، فهو ناعم سعيد وهي ليست أقل منه سعادة ونعيماً لولا هذه الحرب التي تفرق بينهما مرتين ، ولولا أم الفتى هذه التي لم تزوج ابنها لتسعد بنعيمه ورضاه ، وانما زوجته لينجب لها الولد الذي يحفظ اسم الاسرة من الضياع ، ويحفظ ثروة الاسرة من ان تنتقـل إلى الغرباء .

والأم تنتظر الولد فيطول انتظارها حتى إذا أدركها اليأس ضاقت بهذه الزوجة السعيدة وأرادت أن يطلقها ابنها وان يتخذ مكانها زوجة ولوداً . ولكن الفتى يأبى ويمعن في الاباء ، والام تلح وتمعن في الالحاح ،والفتى يلتمس الحيل على اختلافها ليتاح له الولد ، وإذا هو ينسى ما تعلم في المدارس والجامعة ، ويطلب للولد عند القديسين كما يطلبه من عجائز القبيلة دون أن يبلـغ شيئاً . والزوجة الشابة محزونة قد استحالت سعادتها شقاء وامنها خوفاً واشفاقاً .. والوالد الشيخ حائر بين زوجه تلك التي تلح

وابنه الذي يحب . ولكنه ينتهز غيبة ابنه فيحمل الزوجة الشابة إلى أهلها ، ويضطر الفتى إلى فراقها . والفتى من أجل ذلك يمضي إلى الحرب حين يدعى اليها في المرة الثانية ، مطمئناً اليها ، قد كره الحياة وأنكر كل شيء فيها . وهو يشارك في بعض المواقع ويحسن البلاء ويعود مع بعض رفاقه في اجازة قصيرة ليرى القرية ومن فيها وليلم بزوجته تلك التي أكره على فراقها ، وقد تلقى منها كتاباً تتحدث فيه عن حبها اليائس وبؤسها المقيم ، وتذكر له فيما تذكر انها لم تكد تبلغ أهلها حتى احست الحمل فهي تنتظر الولد اذن بعد حين .

وقد سلك الفتية طريقهم إلى قريتهم في يوم عاصف يسقط فيه الثلج فيكسو قمم الجبال ثم ينحدر فيغطي السفوح ، وما تكاد السيارة تسلك طريقها بالفتية إلى القرية حتى يتبينوا ان العاصفة قد أخذت عليهم طريقهم بما القت فيها من ثلج وبما صدعت من صخور الجبال ، فيعودون أدراجهم ينتظرون هدوء العاصفة ، الا الفتى هذا المشغوف بلقاء زوجته تلك المطلقة بغير حق ، فهو يخالف رفاقه ويزمع أن يبلغ القرية ماشياً وان يقتحم الهول في سبيل ذلك ، وهو يلمح زوجته تلك خطيئة الليل تتراءى له من بعيد تدعوه دعاء المحب مرة وتزجره زجر اللائمة مرة أخرى ، وهو يستجيب لها ويمضي أمامه يغالب العاصفة والبرد والثلج والجبل . ويخيل اليه انه من قريته غير بعيد ، ولكنه لا يجد القوة على المضي أمامه ، قد أنهكه هذا الصراع المر فيجلس ليأخذ نصيباً من راحة ولكنها جلسة

لا يقوم منها فقد انتهى بـه الاعياء إلى اقصاه وكان المـوت ينتظره في ذلك العطف من أعطاف الجبل ، فتلقاه رفيقاً بـه عطوفـاً عليه .

وفتية آخرون وشيوخ آخرون أيضاً يصور لنا الكاتب حياتهم على هذا النحو من التصوير الدقيق الذي يصدر عن شعور صادق وحس رقيق وعواطف قوية قد تبلغ القوة بها طوراً من الحدة في كثير من الاحيان ولكنها حدة لا تلبث ان تثوب إلى شيء من الهدوء والاعتدال . والحرمان المتصل أو الحرمـان الطارئ هو الفكرة المصاحبة للكتاب منذ يبدأ إلى أن ينتهي وهو حرمان يتصل بالنفوس في أكثر الأحيان ولكنه ربما يتصل بالمال أيضاً ، فينغص حياة سعيدة كانت خليقة ان تمضي في سعادتها وان تتيح لأهلها النعيم وتنشئ من رزقوا من الولد في ثراء وخفض ، ولكن الحرب قد جاءت فيما جاءت به بكثير من الكوارث التي تفقر بعض الاغنياء وتغني بعض الفقراء وتقلب حياة بعض الاسر ظهـراً لبطن ، فيشقى بذلك قوم كانوا خليقين ان ينعموا،ويسرف قوم آخرون في سعادة كان يمكن ان ينعموا بها في شيء من التوسط والقصد والاعتدال .

وفي الكتاب كـآبة هادئة تصحبه كما يصحبه الحرمان ، ليست كـآبة يأس وسخط وثورة ، وإنما هي كـآبـة رضى بالقضاء ، واذعان للخطوب ، وانتظار لما يمكن أن يأتي بما يخرج هذه الربوة من هذا النسيان الذي يغمرها ،

ومن هذا الاهمال الذي يعرضها لكثير من الخطوب ، ولعل الزمان أن يتيح لهم حياة يشاركون فيها مؤثرين لا متأثرين فحسب ، وعاملين منتجين لا مذعنين خاضعين لما يلم بهم من الصروف .

ما أشد اعجابي بهذا الكتاب الذي لا أنكر من أمره شيئاً إلا انه لم يكتب بالعربية ، وكان خليقاً ان يكتب بها . ولكن هذا عيب لا يؤخذ به الكاتب وانما يؤخذ به الاستعمار ، وما أكثر ما يؤخذ به الاستعمار من العيوب والذنوب .

القرية الظالمة

فلسفة وأدب ... للدكتور محمد كامل حسين

وأخيراً أتيح لنا كتاب نقرأه بعقولنا في اناة ومهل وفي تدبر وتفكر ، وفي كثير من المراجعة وكثير من الوقوف عند هذا الفصل أو ذاك من فصوله ، لا نمر به مر السحاب ولا تلتهمه الابصار والآذان في أقصر وقت ممكن ولا تكرّه الالسنة كراً .

أتيح لنا كتاب لا نقرأه لقطع الوقت ولا نقرأه لندعو بقراءته النوم حين يمتنع علينا وانما نقرأه لنفهم عن كاتبه ما أراد ان يسوق الينا من حديث ، ولنرى بعد ذلك أنقبل حديثه أم نزورّ عنه ، أنقبل على معانيه اقبال المشوق الوامق أم ننفر نفوراً شديداً؟ كتاب لم يرح كاتبه ولن يريح قارئه ، وأكبر الظن ان كاتبه قد أهدى

الينا فيه خلاصة حياته وصفوة تجاربه ونتيجة جهوده المتصلة التي أنفقها دارساً للطب والجراحة ، معالجاً للمرضى ، مبتلياً أخبار الناس وأسرارهم ، ممتحناً ما يكون من سيرتهم افراداً وجماعات وما يكون من تجاوب بين هؤلاء الأفراد والجماعات حين يعرف بعضهم بعضاً ، وحين ينكر بعضهم بعضاً ، وحين يمكر بعضهم ببعض ، وحين يسعى بعضهم إلى بعض بالخير والمعروف .

وأهدى الينا فيه كذلك خلاصة حياته قارئاً هذه القراءة المتصلة التي يستريح اليها إذا فرغ من طبه ومرضاه ومن اتصاله بالناس ، سعيداً بهذا الاتصال حيناً ، وشقياً به احياناً.

فصاحب هذا الكتاب من أشد الناس حباً للقراءة وأعظمهم بها كلفاً وأكثرهم عليها إقبالاً . لا يكاد يستريح من جهده إلا اليها ولا يكاد يفرغ من العمل والناس إلا لها . وقراءته متنوعة أشد التنوع ، فهو يقرأ في الطب والجراحة كما تفرض عليه صناعته، ويقرأ في العلم والفلسفة كما يفرض عليه عقله وطبيعته ، ويقرأ في الادب القديم والحديث ، العربي والاجنبي ، كما يفرض عليه مزاجه ، وهو لا يقرأ بقلبه وحده ولا يقرأ بعقله وحده وانما يقرأ بهما جميعاً . وأبغض شيء اليه هذه القراءة السريعة اليسيرة التي يغرق الناس فيها من حوله إلى أذقانهم أو إلى آذانهم في هذه الايام . ثم هو لا يفرغ من قراءة إلا ليستبقي منها شيئاً يدخره في زاوية من زوايا نفسه قبل أن يأخذ في قراءة أخرى .

كذلك عرفته منذ زمن طويل جداً . ولذلك ألفته وأحببته منذ عرفته . ولذلك اطمأننت إلى حديثه وشغفت بمجلسه لأن حديثه صورة لعقله . وصورة لقلبه أيضاً . وخير حديث الناس ما أنبأ عن العقول والقلوب ولا سيما حين تكون العقول ناضجة والقلوب حية دائماً يقظة دائماً. ومن أجل ذلك لم أكد اتلقى كتابه هذا حتى انصرفت عن كل شيء وأقبلت عليه من دون كل شيء فلم أدعه حتى فرغت من قراءته الآن . وما أرى إلا اني سأعود إلى قراءته مرة أخرى ...

وما أرى إلا اني سأعود إلى بعض فصوله بين حين وحين بعد هذه القراءة الثانية . فقراءته لا تمل كما ان حديثه لا يمل .

وأريد بعد ذلك انأشخص هذا الكتاب لا ان ألخصه . فتلخيصه عسير أعظم العسر يوشك ان لا يكون اليه سبيل ، وكل فصل من فصوله محتاج إلى مقال خاص يناقش ما جاء فيه من الخواطر والآراء . وأنا بعدُ لا أريد إلا أن أدل القارئ عليه وأدعوه إلى قراءته ان كان من الذين يألفون الصبر على الفلسفة الحية والغوص في أعماق الحياة الاجتماعية والفردية في هذه الأيام ، التي ان امتازت بشيء فانما تمتاز باختلاط القيم فيها وقصور الناس عن أن يفقهوا حقائقها ويتعمقوا أسرارها ، لأنها تعجلهم عن ذلك وتصرفهم عنه صرفاً . والكتاب في ظاهره قصة أو قصص كثيرة تدور

حول موضوع بعينه يجعل منها وحدة واضحة لا اختلاف فيها ولا اضطراب . وقد حدد زمان هذه القصص وحدد مكانها أيضاً . فأما الزمان فقصير جداً لا يكاد يتجاوز يوماً وليلة ، وهو الوقت الذي امتحن فيه المسيح حين تألب عليه بنو اسرائيل وأرادوا به الكيد . واما المكان فهو أورشليم ، وربما تجاوز هذه المدينة إلى هذه الناحية أو تلك من نواحي فلسطين .

وشخص المسيح فيها لا يرى ولا يسمع وانما هو موضوع الحديث فيها كلها نسمع عنه وتنقل الينا عنه الأحاديث ولكننا لا نراه ولا نحس شخصه ، وهو مع ذلك ماثل في قلوبنا وعقولنا لا يبرحها منذ نبدأ في قراءة الكتاب إلى أن نفرغ منها . ومع ذلك فهذا الزمان الذي حدد بيوم واحد ممتد إلى غير مدى . وهذا المكان الذي حدد بمدينة واحدة ممتد يسع الأرض كلها في جميع عصورها وفي جميع أطوارها منذ عاش فيها الناس ...

وأشخاص القصص محدودون أيضاً ، فأكثرهم من بني اسرائيل يضاف اليهم نفر من الرومان ورجل واحد أثيني ورجل آخر لا نعرف من أين هو ، وانما تحدثنا الأنباء بأنه جاء من أقصى الأرض مع آخرين يهديهم النجم ليحيوا المسيح بعد مولده .

ولكن أشخاص القصة على ذلك لا يحصون وليس إلى احصائهم سبيل لأنهم الناس جميعاً في كل زمان ومكان :

فحديث المسيح في هذا الكتاب ليس إلا رمزاً لحديث الناس في كل عصر وفي كل بيئة حين تعرض لهم الأحداث وحين تلم بهم الخطوب وحين تمتحن عقولهم وقلوبهم وضمائرهم . وتستطيع أن تقول ان موضوع الكتاب في حقيقة الأمر إنما هو هذا الصراع المتصل بين القوى الثلاث التي تأتلف منها حياة الانسان ، وهي قوة الحياة الغريزية وقوة العقل وقوة الضمير . فليس في حياة الناس شيء خطير أو ضئيل الا وهو مردود إلى الصراع بين هذه القوى التي ليس منها كلها بد ليكون الانسان انساناً .

ولكني لا أحب لك أن تخدع نفسك وأن تقبل على الكتاب على أنه قصة أو طائفة من القصص فان يلبث هذا الخداع أن يزول لمجرد النظر فيه . فالقصص في هذا الكتاب وسيلة لا غاية : وقد اكتفى الكاتب من هذه الوسيلة بأيسرها وأهونها ليقدم اليك الاشخاص الذين يحاور بعضهم بعضاً بين يديك في هذا الموضوع أو ذاك من موضوعات الحياة الانسانية . بالضبط كما يفعل أفلاطون حين يقدم لك أشخاص كتبه الذين يحاور بعضهم بعضاً أو الذين يحاورهم سقراط . ولا يريد أفلاطون أن يقص عليك قصة وانما يريد أن يحضرك مجلساً من مجالس الحوار ، والحوار عنده ليس غاية وانما هو وسيلة إلى فن من فنون الفلسفة السياسية أو الطبيعية أو الخلقية أو ما شئت من موضوعات الفلسفة .

وكذلك يعمد كاتبنا إلى القصص والحوار ليخوض بك فيما شاء الله أن يخوض فيه من فلسفة الحياة الانسانية حين يلقى الناس بعضهم بعضاً وحين يخلو أحدهم إلى نفسه فيما يعرض له من الامر وما يلم به من الخطب وما يثور أمامه من المشكلات .

فهذا الفتى الوسيم ذو المكانة الرقيقة والثراء العظيم لا ينبغي أن يخدعك عن نفسه حين يتحدث إلى زوجه الشابة الجميلة التي ملكت عليه قلبه والتي أحبته أشد الحب وكلفت به أعظم الكلف ، وحين يتحدث اليها في يوم عيدها . فالكاتب لا يعنى من أمر هذا الفتى ولا من أمر زوجه بشيء ، بل هو لا يعنى بحبهما نفسه ، وانما يريد أن يصور لك ان خطباً عظيماً ألم ببني اسرائيل وانهم يحاكمون المسيح ويريدون أن يبطشوا به وأن الفتى هو صاحب الاتهام ، وهو مشغول بهذه القضية الضخمة لا يستطيع أن يفرغ لزوجه في يوم عيدها . وهي ضائقة بذلك ، ثم كارهة له ثم منصرفة عن زوجها وعن حبها وعن عيدها لأنها قد شغلت عن هذا كله بالمسيح وبهذا الظلم الذي يصب عليه صباً . وزوجها نفسه لا يكاد يتركها محزوناً لما أصابها من الضيق حتى يشغل عنها وعن حبها وعن عيدها وعن حزنها لأنه رأى ما أفسد عليه تحمسه في مخاصمة المسيح وفي دعاء بني اسرائيل إلى أن يصبوا عليه الظلم صباً .

وهذه الفتاة الأخرى المجدلية التي أفسدت الكبرياء عليها وعلى أهلها وقريتها أمرهم كله حتى كان منهم القتلى وحتى عظم بينهم الشر وحتى اضطرت إلى أن تفارق قريتها وإلى أن تفارق الأثم . هذه الفتاة في نفسها ليست إلا وسيلة إلى شيء آخر هو تصوير الظلم الذي يراد بالمسيح وتصوير ما يثيره هذا الظلم في بعض النفوس من ايقاظ الضمير وتطهير الناس من آثام الحياة ونقائصها ومن غرورها وباطلها حتى يندفعوا إلى الايمان اندفاعاً يرفعهم إلى منازل القديسين .

وقل مثل ذلك بالقياس إلى جميع الاشخاص الذين تلقاهم في هذا الكتاب . ليسوا جميعاً إلا وسائل لما يريد الكاتب أن يسوق اليك من أحاديثه في فلسفة الحياة الفردية والاجتماعية .

وأكاد أعتقد ان كاتبنا لم يرد ان يصور قصة المسيح ولا ظلم بني اسرائيل له ليصل إلى غاية من هذه الغايات الدينية التي يقصد اليها الكاتبون حين يعرضون لهذه القصة أو ما يشبهها من القصص ، وإنما أراد إلى غاية أخرى كان يمكنه ان يصل اليها بتصوير أي شخص آخر مخلص صادق يريد الخير للناس فصب عليه الشر . ودبر له الكيد من الذين أراد اصلاحهم . ولو عرض كاتبنا لقصة سقراط مثلاً لاستطاع ان يتخذها وسيلة إلى ما أراد لولا انه صدر في حديثه بعض المعجزات ؛ وان سقراط لم يصنع معجزة أو

شيئاً يشبه المعجزة كما يفهمها الذين يتحدثون في شؤون الدين .

وما اريد أن أدخل في هذا الحوار السخيف الذي يحب الناس أن يخوضوا فيه في هذه الأيام حول طبيعة هـذا الكتاب . أقصة هو لأنه يحدثنا عن أشخاص وعن أحداث عرضت لهم وخطوب ألمت بهم في زمان بعينه ومكان بعينه ؟ ام هو شيء آخر غير القصة لأنه لم يستوف الشروط التي يشترطها المتكلفون من النقاد لهذا الفن ؟ بل أنا لا أريد أن أخوض في حوار آخر حول هذا الكتاب أأدب هو بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة أم فلسفة وإلى أي لون من ألوان الفلسفة يمكن أن يضاف ؟

كل هذا كلام لا يعنيك ولا يعنيني لأنه لا يغني عنك ولا عني شيئاً ، وإنما الشيء الذي يعنيك ويعنيني هو ان الكتاب ممتع بأوسع معاني هذه الكلمة وأدقها وأصدقها :

ممتع بموضوعه وممتع بما يثار فيه من مشكلات الحياة الإنسانية ومن وجوه الصراع بين العقل والضمير وبين الحياة العملية التي تملؤها التجارب وتفعمها الخطوب ، وبين الدين الذي يدعو إلى الطهر والنقاء وإلى الدعة والسلم والعافية بين الناس : وإلى الخير الشامل الذي لا يشوبه الشر من أي وجه من وجوهه .

وممتع بعد ذلك بلفظه العذب واسلوبه السمح وصرامته التي لا تحول بينه وبين اليسر ، ووضوحه الذي لا يهبط

به إلى ما نألف في هذه الأيام من هذا الوضوح البغيض الذي يزهد في القراءة ويصد عنها كأنه يتجه إلى آذان القارئين وأبصارهم والسنتهم دون أن يتجه إلى عقولهم وقلوبهم . أو كأن الكتاب حين يكتبونه يضعون قراءهم في منزلة من الغباء والسذاجة لا يستطيعون معها أن يفقهوا أو يذوقوا إلا إذا جليت لهم الاشياء تجلية لا يحتاجون معها إلى جهد أو عناء .

والكتاب على يسره ووضوحه وصفائه لا سبيل إلى قراءته إلا بالعقل كما ذكرت في أول هذا الحديث لأنه موجه إلى العقل وحده وإلى العقل الذي يفلسف الاشياء ويتعمقها ولا يطمئن إلا إلى ما يفهم حق الفهم ولا يكتفي بالجمل الغامضة ولا بالعبارات المبهمة التي يشيع فيها اللبس .

وليس في الكتاب فصل إلا وانت تقرؤه فتجد فيه ما يلذك ويمتعك ويدعوك إلى التفكير الطويل ويثيرك في أكثر الاحيان إلى الجدل والخصومة ، وربما وقفك من الكاتب موقف المخالف له المنكر لما يقول في هذه المشكلة أو تلك . ولكنك تخالف الكاتب خلاف المحب له المستأنس اليه الذي لا يعنف بك فيما يهدي اليك من رأي فلا يتعرض لان تعنف به فيما يهدى اليه من رد عليه .

وفي الكتاب بعد هذا كله أو مع هذا كله آراء تفجأ قراءنا في هذه الأيام وتقفهم موقف الحيرة وتخرجهم عن

أطوارهم أحياناً ولكنهم حين يفكرون في أناة ومهل يثوبون الى الكاتب راضين عنه مرة ومخالفين له في ابتسام رفيق مرة أخرى .

أنظر اليه حين يحاول ان يلقي في روعك ان الضمير خاصة من خصائص الفرد يأمره بالخير وينهاه عن الشر ويصده عن الظلم والاذى . وان الجماعة لا ضمير لها فهي مدفوعة الى ما تدفع اليه في غير روية ولا تدبر ولا شعور بعواقب ما تأتي من الامر أو تدع ، كأن كل فرد من أفرادها ينسى ضميره حين يلقي نظراءه ، وكأن شيئاً آخر غير ما ركب في الافراد المجتمعين من ملكة العقل والضمير هو الذي يسيرهم ويسيطر عليهم في كل ما يقدمون عليه .

أحق هذا ؟ أم الحق شيء آخر هو ان للجماعات كما يقول بعض الاجتماعيين ضميراً اجتماعياً له طبيعة أخرى غير طبيعة الضمير الفردي ، بل للجماعة نفس أخرى غير نفس الفرد. ولأمر ما حاول علماء النفس ان يضعوا علماً خاصاً لسيكولوجية الجماعات هو الذي يسمونه علم النفس الاجتماعي ؟ أم الحق هو أن ضمير الفرد يخرج عن طوره في الجماعة وينتقل منه الى طور آخر ويتشكل بشكل آخر يفرضه وجوده مع نظرائه ؟ فالفرد من غير شك ينسى أكثر فرديته حين يختلط بأمثاله ولا يستبقي من هذه الشخصية الا أقلها وأيسرها واعجزها عن المقاومة . قل ما شئت ، ولكن الذي ليس فيه شك هو ان الجماعة ليست مجردة من

الضمير ، وإنما هي مجردة من الضمير الفردي تتأثر بضمير آخر مشترك يقدر الخير والشر والخطأ والصواب على نحو يخالف النحو الذي يقدر به الضمير الاجتماعي هذه الاشياء .

وأنت تستطيع ان تقبل من الكاتب رأيه في أن الضمير مقصور على الفرد وان الجماعة لا ضمير لها أو ان تجادله فيه ، ولكن الشيء المحقق هو ان خلافك معه لن يتجاوز الرفق الباسم .

وانظر اليه حين يجري على لسان بعض بني اسرائيل هذه النظرية الرائعة المرحة التي تضحك أكثر مما تقنع وتصور مذاهب بعض الفقهاء في الحيل وهي ان الاثم الذي تقترفه الجماعة لا عقاب عليه لأنه موزع بين أفرادها أو لأن تبعته شائعة لا سبيل إلى أن يلزم بها فرد دون فرد فهي اجدر ان تسقط ويلغى حسابها وكذلك تستطيع الجماعة ان تقترف كبائر الاثم دون أن يتعرض فرد من أفرادها لعقاب أو حساب .

ونظرية أخرى ليست أقل من هذه النظرية اثارة للعجب المبتسم يجريها الكاتب أو يديرها الكاتب في نفس الحبر الاكبر لليهود ، فهو ينكر سخط المسيح على الفريسيين وما يصطنعون من النفاق والرياء في الدين ويرى ان الرياء في الدين ينفع ولا يضر ، ينفع الجماعات لأنه قد يدعوها إلى الايمان ، وقد يغريها بالخير . ولا على الجماعات التي ترى مظاهر هذا الدين الذي يتكلفه أصحابه رثاء الناس ان

يكون هؤلاء المتكلفون مخلصين أو منافقين فان حسابهم على ذلك إلى الله إن يشأ يعذبهم أو يتوب عليهم .

وواضحٌ ما في هذه النظرية من الخطر لأنها تغري كل الناس بأن يتخذوا النفاق وسيلة إلى الاصلاح ، ومن يدري عسى أن يتاح لهذا النفاق ان يبلغ من الاصلاح في نفوس كثير أو قليل من الناس ما يريد أصحابه ، وان يشفع لهم ذلك عند الله فيغفر لهم نفاقهم لأنهم أصلحوا به نفوس الناس وان افسدوا به ذات نفوسهم . وكذلك يصبح المبدأ المشهور الغاية تبرر الوسيلة سائغاً في الدين نفسه . ولست أدري أدارت هذه الفكرة في رأس الحبر الأعظم لليهود حقاً أم ادارها الكاتب في رأسه ذاك : فكل الشخصية التي صورها الكاتب لهذا الحبر الاعظم غريبة حقاً . فهو لم يكن مطمئناً إلى اتهام المسيح ولا إلى ما يراد ان يصب عليه من الظلم ، وانما كان ضميره مضطرباً أشد الاضطراب ، يقدم على هذا الإثم العظيم غير مقتنع بـه ، وانما هو مضطر اليه اضطراراً لأن جماعات الشعب تريد اقترافه . وليس لجماعات الشعب كما رأينا آنفاً ضمير يحاسبها أو يحاسبه وهذا الاضطراب في الحكم ليس مقصوراً على الحبر الأعظم ولكنه يوشك ان يكون شائعاً بين أحبار بني اسرائيل جميعاً . فمفي بني اسرائيل غير مقتنع بهـذا الظلم ولا راض عنه . وكثير من أحبارهم يقدم كارهاً على هذا الاثم لأن الشعب يريده وما ينبغي لقادة الشعب ان يخالفوا

عن ارادته فيضطرهم ذلك إلى التضحية بمكانهم من قيادته والتسلط عليه .

وكذلك يُكره الاحبار على التورط في هذا الظلم والشعب هو الذي يكرههم عليه . ولست أدري إلى أي حد نستطيع ان نطمئن إلى هذهالصورة التي يعرضها الكاتب للصلة بين أحبار بني اسرائيل وبين الشعب . فالذي نعرفه مما وصل الينا من الروايات والانباء ان الخصومة إنما كانت بين المسيح وبين الاحبار أكثر مما كانت بينه وبين عامة الشعب . وان الاحبار هم الذين ضللوا الشعب وحببوا اليه هذا الاثم وزينوه في قلوبهم لأن المسيح كان خليقاً أن يضيع عليهم منزلتهم وسلطانهم وتأثيرهم في النفوس ، وان يصرف عنهم الشعب بما كان يذيع من التعاليم اليسيرة السهلة القريبة من نفوس الناس والملائمة لسذاجتهم ولأنه كان يغير كثيراً من القوانين التي كان الاحبار والعلماء يعيشون عليها . ولكن كاتبنا موكل بالجماعات يلقي عليها أعظم التبعات لأنها غافلة لا ضمير لها ، وهو مكبر لضمير الفرد مُعظم لسلطانه على أصحابه حريص ان استطاع على ان يبرئه من كل شائبة ويعصمه من التورط في الاثم . وهو من أجل ذلك يعطينا من أشخاص هؤلاء العلماء من بني اسرائيل صوراً اقل ما توصف به أنها تلائم مـذهب الكاتب في الضمير الفردي والاجتماعي أكثر مما تلائم الحقائق الواقعة التي نشهدها في كل يوم وأكثر مما تلائم ما نقلت

الينا الانباء والروايات من سيرة هؤلاء الاحبار مع المسيح ومع من جاء قبله من الانبياء .

وكاتبنا ظالم للجماعات يحمل عليها من التبعات أكثر مما ينبغي ان نحمل والذي نعلمه ان القادة والسادة هم الذين يضللون الجماعات ويورطونها في الخطأ ويدفعونها إلى كثير من الآثام . وإذا لم يكن بد من اكبار هذا الضمير الفردي واعظامه فلا أقل من أن نحمله تبعاته ونسأله عما يدفع اليه الفرد والجماعات من الشر العظيم في كثير من الاحيان .

وللكاتب آراء أخرى ليست أقل خطراً واثارة للمناقشة والجدل من هذه الآراء . وكثير من آرائه جديدة بالقياس إلى جماعات من قرائنا ، وان كانت في نفسها مألوفة شائعة في جماعات العالم الغربي الحديث ، وهي قديمة مع ذلك قدم الدين نفسه . فرأي الكاتب في الوطنية مثلاً جديد بالنسبة إلى كثير من قرائنا العرب ، مألوف بالنسبة إلى المثقفين منهم وإلى جماعات ضخمة من العالم الحديث في الغرب .

فالوطنية بدع من البدع دفعت اليه الامم في طور من أطوار حياتها الحديثة فأغراها بكثير من الشر ودفعها إلى كثير من الخير أيضاً . وفكرة الانسانية أعم وأشمل وأصدق وأقرب من الحق إلى فكرة الوطنية ، والمسيحية والاسلام يتجهان إلى الناس كافة ويرونهم اخوة مهما تختلف أوطانهم ومهما تختلف بيئاتهم ومنازلهم ، وهما يدعوان

الناس جميعاً إلى الخير والحب والمودة والتعاون على البر والتقوى والمعروف لا يفرقان بين وطن ووطن ولا بين شعب وشعب ولا بين طبقة وطبقة ، وانما المنافع والمطامع هي التي انشأت الوطنية وهي التي انشأت الطبقات وهي التي أثارت ما يثار بين الاوطان والطبقات من الحروب وألوان الخصومات . كل هذا مألوف يكثر من الخوض فيه الفلاسفة والمثقفون وفقهاء الدين منذ العصور القديمة ، ولكنه جديد بالقياس إلى الاجيال التي نشأت على فكرة الوطنية ولم تتعمق ثقافة ولا فلسفة ولا فقهاً ، لا فرق في ذلك بين اجيال الشرقيين والغربيين . وانكار الحرب كذلك مألوف منذ أقدم العصور يكلف الفلاسفة والمصلحون بالخوض فيه ، ويخوض فيه الساسة فيسرفون ، يخلص اولئك ويتكلف هؤلاء ، واولئك يعجزون عن ان يبغضوا الحرب إلى الناس ، وهؤلاء ينجحون في اقناع الناس بان الحرب شر لا بدّ منه .

وكل هذا ان دل على شيء فانما يدل على ان الكاتب يثير أمام قارئه ضروباً كثيرة من المشكلات الفردية والاجتماعية التي تدعو إلى التأمل والتدبر وتعمق التفكير ، وتخرج القارئ وقتاً ما من هذه الحياة الفاترة المطردة المملة التي نحياها في هذا العصر الحديث ، وتشعره بان له عقلاً حياً يستطيع أن يفكر وان يتدبر وان يقول بعد التفكير والتدبر واطالة الروية نعم أو لا . وليس هذا بالشيء القليل .

وأنا بعد هذا كله أخشى ان اكون ظالماً للكاتب مسرفاً عليه حين زعمت ان كتابه ليس قصة وليس فيه شيء من القصص ، وان هذه الصورة القصصة إنما هي وسيلة عمد اليها ليسوق الينا آراءه هذه المختلفة المثيرة في كثير من الاحيان . فقد يكون رأيه هذا صحيحاً بالقياس إلى أكثر الكتاب ، ولكن في الكتاب قصة متقنة رائعة حقاً يمكن ان تستقل بنفسها وان تقف على قدميها ان صح ان تقف القصة على أقدامها ، وما أرى الا ان الكاتب قد دفع اليها عن غير تكلف منه لها فوفق إلى الاتقان حقاً ، وهي قصة المجدلية وصاحبها الفتى الروماني . فهذه الفتاة التي عرفت من شأنها ما عرفت آنفاً والتي آمنت بالمسيح بعد ان تورطت في الاثم العظيم وانتهى أمرها إلى أعمق الايمان واقواه قد عرفت فيمن عرفت أثناء مقارفتها للاثم جندياً رومانياً احبها واحبته ، فلما أقبلت على دينها الجديد تبعتها نفس الفتى فما زال يبحث عنها حتى اهتدى اليها في بيئتها الجديدة المؤمنة ثم سعى اليها فأحسنت لقاءه ، وما أسرع ما هدته إلى الدين الذي اهتدت اليه ، وما أسرع ما استحال حبهما ذاك الذي كان يشوبه الاثم إلى اخاء صادق رفيع في الدين .

وهذا الفتى تعرض له بعد ذلك خطوب يصورها الكاتب تصويراً رائعاً حقاً ، فايمانه بالدين الجديد يبغض اليه الحرب ويلغي من نفسه فكرة العداء للناس ويعطف قلبه على اعداء

روما ، فيحسن اليهم ويبرهم أثناء الحرب وينشأ عن هذا الاحسان والبر انهزام روما ، ويرفع أمره إلى القائد فيحاكمه في نفس اليوم الذي حوكم فيه المسيح ، ويدافع الجندي عن نفسه دفاعاً رائعاً فيه شجاعة لا عهد للناس بها وفيه ارتفاع إلى منزلة من الصفاء والنقاء والطهر لم يألفها الرومان . ويقضي الموت على هذا الفتى ولكنه موت منكر بشع يضطرب له عقل القاضي القائد بعد ان يراه كما اضطربت نفس الحاكم الروماني للقضاء على المسيح .

وكذلك يتدرج الانسان من الاثم البشع إلى الايمان الصادق ثم إلى أرفع منازل الشهداء والصديقين في ثبات وثقة وايثار لا تألفها إلا قلوب المؤمنين حقاً ، وان كنت أسأل نفسي الا يمكن أن يكون الكاتب قد انحرف قليلاً عما نعرف من نظم الرومان الذين لم يكونوا يقضون بمثل هذا الموت المخزي على المذنبين من أبناء روما وانما كانوا يضربون أعناقهم ويحتفظون بالموت المنكر لغير الرومانيين من العدو والرعايا والرقيق . وقد أطلت ولكني لم الخص الكتاب لأني لم أرد تلخيصه ولم اشخصه كما كنت اريد لأنه أوسع وأدق وأكثر تشعباً من أن يشخص في حديث مثل هذا الحديث . وإذا لم يكن بد من ان أعطي عن هذا الكتاب فكرة جامعة إلى حد ما فقد أستطيع ان أقول غير مسرف انه كتاب يصور طموحاً رائعاً كأروع ما يكون الطموح إلى المثل الأعلى في حياة الافراد والجماعات ، إلى هذا

المثل الأعلى الذي يعتدل فيه المزاج بين القوة الحيوية التي تدفع إلى النشاط والعمل والقوة ، العاقلة التي تهدي إلى المعرفة والعلم ، وقوة الضمير التي تدفع إلى الخير وتردع عن الشر ، والمثل الأعلى كما تعلمون شيء نطمح اليه ولكننا لا نبلغه لأنه بطبعه لا ينال . فالذين لا يكتفون بالسعي اليه ويأبون الا أن يبلغوه انما يطمعون في غير مطمع وقد يضطرهم ذلك إلى الشك . وأخشى ان يكون هذا الشك هو الذي دفع اليه الكاتب بطموحه هذا الغالي إلى المثل الأعلى ، وما أجدر الذين يريدون كل شيء بألا يبلغوا شيئاً .

كم أحب أن يقرأ شبابنا هذا الكتاب ليشعروا ان الحياة ليست يسراً كلها وليست لعباً كلها وبأن فيها كثيراً من الجد الذي ينبغي لهم ان يفكروا فيه وان يتعمقوه .

الصّراع

أريد أن أمس في هذا الحديث من بعد كتاباً رائعاً إلى أقصى غايات الروعة للكاتب الفرنسي النابه جان جيونو ؛

وهو لا يعرف بهذا العنوان ، وإنما عنوانه الدقيـق « الفارس فوق السقوف » Les Hussards sur les toits

وهو عنوان غريب كما ترى ولكنه يصور حقيقة من الحقائق الرائعة التي عرضها المؤلف في كتابه . فبطل القصة فارس ايطالي لم يبلغ الثلاثين بعد ،وقد بلغ مرتبة الكولونيل في جيش من جيوش الثورة التي جاهدت في استخلاص شمال ايطاليا من احتلال النمسا في النصف الاول مـن القرن الماضي .

وهو قد فارق وطنه فاراً إلى فرنسا اشفاقاً من العقاب

على خطـأ تورط فيه وتعرض للسجن والمحاكمة فـآثر الفرار المؤقت محتفظـاً بنفسه لاستئناف الجهاد في سبيل تحرير وطنه ...

ولكنه يبلغ فرنسا في ذلك العام المنكر الذي اجتاحها فيه وباء الكوليرا الخطير الذي وقع سنة ١٨٣٨ واذاق الفرنسيين في الجنوب أهوالاً مروعة حقاً .

والكاتب يصور لنا ما كان من صراع هذا الفتى للموت الذي تعرّض له مرات لا تحصى اثناء اقامته في جنوب فرنسا ، وهذه المحاولات التي لا تحصى للفرار من هذا الوباء ، فهو قد فرّ من وطنه ليتجنب المحاكمة والسجن فأصاب في منفاه الاختياري ما هو أشد خطراً وأروع روعاً من السجن ومن العقاب الذي كان يتعرض له لو أقام في وطنه . في ذلك الوقت لم يكن العلم قد استكشف ما يعرف الآن من ضروب العلاج لهذا الوباء ، ولم تكن النظم الصحية الفردية والاجتماعية قد بلغت ما بلغته مـن الدقة والتقدم في هذه الايام . فـكان الوباء اذن منكـراً مروعاً ساحقاً ماحقاً بأدق معاني هذه الكلمات وأوسعها وأبعدها مدى ، وكان كل ما استطاعته الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت هو عزل المصابين والاحتياط لمحاصرة المدن والقرى الموبوءة حتى لا يطرأ عليها الاصحـــاء ولمحاصرة المدن والقرى التي لم يبلغها الوباء حتى لا يلم بها الموبوءون فيحملوا اليها الوباء . وفي ذلك الوقت لم تكن

وسائل المواصلات قد نظمت على هذا النحو المعروف من اليسر ، وانما كان الناس يتنقلون من مكان إلى مكان على ظهور الدواب أو في تلك العربات التي كانت تجرها الدواب ، ولم يكن الطب الوقائي قد تجاوز أيسر ما كان الناس يعرفونه من تلك المحاولات الساذجة لوقاية الاجسام مما كان يمكن أن تتعرض له من آفات .

فكان الوباء إذا ألمّ باقليم من الاقاليم حصد أهله حصداً وأذاقهم الواناً من الوبال والنكال والهول . وليس من اليسير ان افصل لك هذه القصة الرائعة ولا ان الخصها تلخيصاً متقارباً . وانا لا أملي هذا الحديث لاحاول فيه شيئاً من ذلك ، فهو غير يسير لأن التفصيلات في هذا الكتاب أكثر من أن تحصى وأعسر من أن تحاول محاول تلخيصها فضلاً عن استقصائها . بل الغريب من أمر هذا الكتاب ، هو ان مؤلفه قد نسي نفسه ونسي قارئه ، ولم يذكر الا فنه الخالص الذي غرق فيه إلى أذنيه ، وأمعن في العناية به وفي تجويده واتقانه ، حتى ان أول أثر من آثار قراءته المباشرة إنما هو هذا الملل الذي يأخذ القارئ قبل أن يبلغ الخمسين من صفحاته ويوشك ان يصرفه عن المضيّ في القراءة إذا لم يأخذ نفسه بالصبر والمطاولة ، فاذا حمل القارئ نفسه على ما تكره واخذها ، بالمضيّ في القراءة على كثرة ما يصدّه عنها ويزهده فيها لم يلبث ان ينسى نفسه وينسى صاحب الكتاب ، وان يفنى في الفن كما في

فيه الكاتب نفسه ، وإذا هو ملح في القراءة ماضٍ فيها لا يلوي على شيء . لا يبلغ حدثاً مروعاً من الاحداث التي تعرض فيه حتى يشعر بالشوق الشديد إلى استقصائه وإلى الانتقال إلى غيره من الاحداث الاخرى التي تليه . وما يزال كذلك متنقلاً من حدث مروع إلى حدث آخر أشد منه ترويعاً حتى يألف الروع والهول ولا يعدل بهما شيئاً . وأغرب ما في هذا الكتاب انه يخدع القارئ عن نفسه حتى يوشك ان يحبب اليه هذه الاهوال التي لا تحتمل ولا تطاق وإذا هو يبلغ آخر الكتاب فيشعر بشيء من الأسف غير قليل لأنه قد فرغ من القراءة ، وفارق هذه الاهوال الشداد . وهو محتاج بعد ذلك إلى وقت طويل ، إلى قراءات مختلفة شديدة التنوع لينسى هذا الكتاب ولا يضطر إلى لزوم التفكير فيه والوقوف الطويل عند هذا الحديث أو ذاك من أحداثه الثقال .

والكتاب بعد هذا كله آية في تصوير خصلتين متناقضتين من خصال الحياة الانسانية الاجتماعية . هما خصلة التنافر والتدابر من جهة أخرى .

فالناس متنافرون متدابرون في هذا الكتاب ما داموا أصحاء لم يبلغهم الوباء ، كل منهم حريص أشد الحرص وأقواه على ان يفر بنفسه من الكارثة قبل أن تصيبه ، فهو أثر إلى أبعد غايات الاثرة لا يحب ان يرى غيره ولا ان يدنو منه غيره ، ولا يحب ان يشاركه احد من الناس

في أي مرفق من مرافق الحياة ، فهو فردي تنتهي بـه الفردية إلى غايتها ، وهو مستوحش آبد كهذه الوحش الآبدة في أعماق الصحارى ، وفي شعاب الجبل وعلى قممها الشاهقة . فهو يعمد إلى سلاحه ليرد به عن نفسه كل انسان يريد ان يقربه . وهذه الظاهرة الفردية تشيع في الأصحاء ، وتستقر في نفوسهم وتسيطر على عقولهم وجوارحهم حتى تصبح ظاهرة اجتماعية مزعجة حقاً . فاذا ألمّ الوباء بمدينة أو قرية ظهرت الخصلة الاخرى ، خصلة التضامن والتعاون والتآلف والمشاركة في احتمال المكروه ومحاولةدفعه إن أتيح للناس ان يدفعوه ، ومحاولة الصبر عليه وتجرع كأسه إلى ثمالتها إذا لم يكن من ذلك بد. ويمعن الكاتب في تصوير هاتين الخصلتين المتناقضتين حتى يظهر لك الانسان شيطاناً مارداً أحياناً حين تملكه الاثرة ، وملكاً مطهراً أحياناً أخرى حين يسيطر عليـه الانسان . فيعطيك بذلك صورة كأوضح ما تكون الصور من هذا الانسان الغريب ، الذي يقسو حتى تبلغ به القسوة أقصى ما يستطيع ان تبلغ ويرفق حتى يبلغ بـه الرفق مرتبة القديسين الابرار .

وفي هذا الكتاب ظواهر كثيرة كلها يحتاج ان نقف عنده فنطيل الوقوف . منها ظاهرة المغامرة التي تستأثر ببعض الناس فتوجّههم إلى الخير الخالص ، حتى تنتهي بهم إلى البطولة ، والمغامرة التي تستأثر ببعضهم الآخر ،فتدفعهم إلى الشر الخالص ، حتى يصبحوا مردة لا يقدرون شيئاً ولا

يحفلون بشيء ، ولا يقفون عند خلق أو دين ولا يرجون لشيء أو لأحد وقاراً .

فهذا مغامر خير يريد أن ينجد الملهوف ، وينقذ المكروب ، ويسعف المحروب ، ويعين المحتاجين إلى المعونة ويواسي الذين لا يملك لهم معونة ولا انقاذاً ، فيمضي في ذلك منغمساً في الوباء إلى اذنيه لا يخاف الموت ولا يحفل به ولا يحسب له حساباً ، وانما يسعف وينقذ ويواسي ويعين حتى يدركه القضاء المحتوم فيسقط صريعاً شهيداً بين صرعى الوباء وشهدائه .

وهذا مغامر آخر لا يفكر في الناس ولا في حاجتهم إلى المعونة والبر والاحسان ، وانما يفكر في نفسه وفي طموحه إلى الثروة والغنى والكسب من كل طريق ، فهو لص فاتك وهو مارد لا يحفل بالحق ولا بالعدل ولا بالقانون ولا يحسب للسلطان حساباً قد برئ قلبه من كل رحمة وبرئت نفسه من عواطف الخير كلها ، فهو ينعم بشقاء الاشقياء ويسعد ببؤس البائسين ويثري من فقر الفقراء ويوشك ان يحيا من موت الذين يتخطفهم الموت ، وربما اجتمعت الظاهرتان في شخص واحد ولكن في شيء من الاعتدال والانسجام كما اجتمعتا في هذا الفتى الايطالي الذي نراه مرة مواسياً منقذاً ممعناً في هذا كله غير حافل بالوباء ولا حاسب لنتائجه أي حساب ، وانما ينغمس فيه مع تلك الراهبة الشيخة إلى قمة رأسه ، فهو يعين المرضى الذين

يسقطون في الطريق يغسل عنهم آثار القيء والاسهال وهو يغسل الموتى ويعين على نقلهم إلى حيث تحرق جثثهم ، وهو ينسى نفسه في هذا كله نسياً تاماً. وتراه مرة أخرى مشفقاً من الوباء إلى أقصى آماد الاشفاق حتى انه ليلزم سقوف الدور يكره ان يخالط أهل المدينة الموبوئين او أن تكون بينه وبينهم صلة قريبة أو بعيدة ، ويحتال أغرب الاحتيال في التماس أيسر ما يقيم الاود من الطعام والشراب يتبلغ بها في هذه العزلة المخيفة . ونراه مرة وقد أعياه التماس القوت وسدت عليه طرق الحيلة فأخذ يناجي نفسه بالسرقة لا ليكسب غنى أو ثراء ولكن ليقيم اوده ، وإذا هو ينحدر متلصصاً مترفقاً إلى احدى الدور في أعماق الليل لعله ان يصيب فيها قطعة من خبز أو شربة من ماء وهو ينحدر وينحدر يظن ان احداً لا يشعر به فاذا بلغ آخر السلم الذي انحدر فيه رأى نوراً يظهر فجأة وفتاة لم تتقدم بها السن رائعة الجمال بارعة الحسن تسأله من هو ؟ وماذا يريد ؟

فيضطر إلى أن يجيبها بالحق فتتلطف في شيء من الغلظة والاحتياط والتحفظ ان صح هذا التعبير .

وتؤويه إلى احدى الحجرات وتقدم له بعض الطعام والشراب وقد عرف انها وحدها في هذه الدار الكبيرة فينكر أمرها ويسألها اليست خائفة منه ؟ فتظهر له سلاحها الذي تستطيع ان ترد به عن نفسها الغوائل ، حتى إذا طعم

وشرب عاد إلى سقفه الذي أوى اليه وترك هـذه الفتاة آمنة موفورة وفي نفسه ما فيها من الاعجاب بها والاكبار لها وشيء آخر أكثر من الاعجاب والاكبار .

ونراه مرة ثالثة وقد احتال حتّى سرق فرساً واعتلى صهوته ومضى به مصعّداً في الجبل متخذاً طريقـه كما يستطيع ليتقي الوباء من جهة وليبلغ الحدود ويعود سالماً إلى وطنه ليستأنف جهاده في تحرير ايطاليا ان استطـاع الافلات من هذا الوباء .

وهو يمضي في طريقه متنكباً كل قرية أو مدينة أو بيئة يكثر فيها الناس لا يكاد يمضي اياماً حتّى يلقى فارسه آخر يمضي في نفس الطريق ، وما هي إلا ان يبصرا بالجند يحاصرون قرية أو مدينة ويردون عنها الطارئين عليها فيفران ثم يتفارقان ، وإذا هو يرى في هذا الفارس تلك الفتاة التي آوته وأطعمته وسقته منذ ليال ، غير خائفة منه ولا معنية بغير اسعافه ، وهي قد فرت من دارها تريد أن تعود إلى قصرها ذلك البعيد في عطف من أعطاف الجبل لم يبلغه الوباء . وقد أصبحا رفيقي سفر يتعاونان على احتمال ما يعرض لهما من الاخطار . ومنذ ذلك الوقت تنشأ في القصة الرائعة قصة أخرى أشد روعة وهي قصـة هذه المرافقة التي تخلص من جميع الشوائب ، والتي ترتفع فيها المودة إلى أعلى درجة من الطهر والعفة والنقاء والايثار ، وما أكثر ما يلقى الرفيقان من المصاعب وما أكثر مـا

يعترضهما من الخطوب وما أكثر ما يلم بهما من حلو التجارب ومرّها ومن جد الحياة الصارم وهزلها المر فهما يتعرضان للجند ويتعرضان للصوص ويؤخذان أسيرين إلى حيث يلقيان في معزل من هذه المعازل التي يلقى فيهما الاصحاء حتى يتخطفهم الموت . وهما يفران من هذا المعزل بعد خطوب ، ويخلصان آخر الأمر حتى يوشكا أن يبلغا مأمنهما في ذلك القصر الذي تيممه تلك الفتاة . ولكنهما لا يكادان يشرفان من بعد على مأمنهما ذاك حتى يلم الوباء بالفتاة فيأخذها القيء وتسقط على الارض مبهورة ، وما أسرع ما ينحيها الفتى إلى أعماق الغابة من الغابات . وهنالك يقوم على تمريضها كما يستطيع نافياً عنها الاذى ، ملتمساً لها الدفء ، ساقياً لها ما يستطيع ان يسقيها من دواء حتى يأخذه الاعياء آخر الليل ، فيغفي اغفاءة ثم يحس شيئاً فيفيق وإذا الفتاة تلقي عليه معطفها تريد أن تقيه به من البرد . وقد برئت الفتاة وارتفعت بينهما الكلفة آخر الأمر ، فهي توجه اليه الحديث بلغة المخاطب الفرد كما تتحدث الفتاة إلى أخيها أو إلى زوجها . قد ألغى الوباء ما كان قد بقي بينهما من كلفة ولكن حبهما ظل نقياً طاهراً كما يكون الحب بين الاخوين .

وهو يُبلغ الفتاة مأمنها ويقيم في قصرها يوماً أو يومين ريثما يشتري جواداً أصيلاً ، ثم يستأنف السفر إلى وطنه

ليعود إلى الجهاد ، وما يمنعه من ذلك وهو لا يكاد يطلع من وراء هذا الجبل حتّى يرى أعلام ايطاليا .

وما أكثر ما أهملتُ من الظواهر الفنية في هذا الكتاب ولكن ظاهرة واحدة لا أحب أن أهملها لأن الكاتب قد صوّرها أروع تصوير وأبرعه ، وهي هذه التي تصور لنا الطير ولا سيما جوارحها وقد أنست إلى الموت واعتادت العكوف على هذه الجثث الكثيرة المتناثرة كما يصور لنا شعراؤنا القدماء عكوف الطير على جثث القتلى في ميادين الحرب بعد انتهاء المواقع . وربما استوحشت بعض الطير المستأنسة فعادت سباعاً تعيش على لحم هذه الجثث الانسانية، وهي قد ألفت ذلك حتّى انها ستدنو من الأحياء تظن ان الموت منهم قريب ، وان جثثهم ستصبح كلها مرتعاً بعد قليل حتّى خاف الانسان من الطير وحتّى استخفت الطير بالانسان ، فلم تشفق منه ولم تستوحش من قربه وانما اتخذته لنفسها مطمعاً .

وبعد فهل صور الكاتب هذا الصراع بين هذا الفتى وبين الوباء فحسب ، أم هل تجاوزه من حيث يدري أو من حيث لا يدري إلى تصوير صراع آخر أقوى وأبقى من صراع الانسان لوباء من الاوبئة ، وهو تصوير الصراع الذي يكون بين كل انسان وبين الموت سواء كان وباء أم لم يكن ؟

فهل حياة الانسان مقيماً أو ظاعناً ، مطمئناً أو قلقاً ،

موسراً أو معسراً ، سعيداً أو شقياً ، الا صراع بينه وبين الموت الذي يكمن له في كل حركة من حركاته ومن حركات الأحياء والاشياء من حوله وفي كل ثنى من أثناء طريقه وفي كل ما يعرض له من الخطوب ما دق منها وما جلّ . وأكبر الظن ان الكاتب لم يُرد إلى هذا النحو من الفلسفة العليا ولكن كتابه يوحي به ايحاء . وهذا عندي أوضح دليل على ان الكتاب رائع حقاً وعلى انه من أبرع الصور الفنية التي انتجها الأدب الفرنسي المعاصر في هذه الأيام .

من أدبنا الحديث

بين أجيالنا الأدبية المعاصرة شيء من الجفوة طال عليه الزمان وكثر فيه القول حيناً وكاد ينتهي إلى شيء من القطيعة بين الشباب والشيوخ من الادباء .

يشكو الشباب من أن شيوخ الادباء لا يحفلون بهم ولا يلتفتون اليهم ولا عهدون لهم طرق النجح ولا يعرفونهم إلى القراء كأنهم يؤثرون أنفسهم بما أتيح لهم من ارتفاع المنزلة وبعد الصوت . ويشكو الشيوخ من الشباب انهم يكبرون أنفسهم ويسرفون في الاعتداد بها ولا يكادون يقدرون ما لقي الشيوخ من عناء وما احتلوا من مشقة وما ذللوا من عقـاب .

وهذا الخلاف بين الاجيال طبيعي لا غرابه فيه ولكنه يوشك في مصر أن يتجاوز الحد الذي ينبغي له . فهناك

تضامن بين الاجيال يجب أن يرعى وحقوق للابناء على الآباء يجب أن تؤدى ، والآباء بطبعهم قد قطعوا أكثر الشوط فيجب أن يعينوا أبناءهم على أن يخلفوهم فيحسنوا خلافتهم ويحققوا من الأمر ما لم يجدوا إلى تحقيقه سبيلاً .

وهناك حقوق للآباء على الابناء يجب أن تؤدى في شيء من البر والرفق والتلطف ، وألا يحول الغرور والطموح دون تأديتها ، والاباء معلمون والشباب متعلمون ولا ينبغي ان تنقطع الصلة بين اولئك وهؤلاء .

وأريد أن أخصص طائفة من هذه الأحاديث لأدب الشباب الذين لم ينصفهم النقد ولم يعلمهم أيضاً ، وقد شبع الشيوخ نقداً وتعلماً وعلمتهم التجارب أكثر مما علمهم النقد ، فليس كثيراً ان ينفعوا أبناءهم ببعض ما انتفعوا به من التجارب والخطوب التي تعرضوا لها على اختلاف الليل والنهار ، وتتابع الاحداث والخطوب .

وبين يدي طائفة من الكتب كثيرة ليس من الممكن أن أتحدث عنها في فصل واحد ولا بد من ان اختار أحدها لأتحدث عنه اليوم .

فليكن الحديث اذن عن هذه القصة الضخمة التي كتبها الأستاذ يوسف السباعي وسماها «اني راحلة» . وهي قصة ممتعة حقاً أخذت في قراءتها فلم أدعها حتى أتممتها . ولم أفعل ذلك متكلفاً له أو صابراً نفسي عليه ، وإنما القصة هي التي اضطرتني اليه اضطراراً وحملتني على أن أفرغ لها

وأترك ما بين يدي من عمل لم يكن تركه يسيراً .

والاستاذ يوسف السباعي يحدثنا في مقدمة كتابه بانه لم يألف كتابة القصة الطويلة حتى دعاه إلى ذلك المازني رحمه الله فأقبل عليه ذات صيف ولم ينصرف عنه حتى أتم قصته هذه التي تتجاوز صفحاتها المئات الأربع وانمها في عشرين يوماً . ومعنى ذلك ان فنه واتاه وان خياله أمده وان لغته لم ترهقه من أمره عسراً . وإذا كان هو قد كتب قصته في عشرين يوماً فاني قرأتها في أربعة أيام لم أجد أثناء قراءتها سأماً أو شيئاً يشبه السأم وانما وجدت رغبة واقبالاً وحرصاً على ان أفرغ منها بل على ان أنتهي إلى غايتها .

والقصة يسيرة من جهة وعسيرة من جهة أخرى . يسيرة لأنها تحدثنا عن أمر الحب بين فتيين وما أكثر ما يتحدث الناس عن الحب ، وعن الحب بين فتى وفتاة . ولكنه أثناء حديثه عن هذا الحب وقف في غير استطراد عند أشياء كثيرة صورها فأحسن تصويرها ، وعند أشياء أخرى حللها فأجاد تحليلها . فتاة كانت تنظر إلى ابن خالتها في كثير من التجهم والاعراض أثناء الصبا ، وكان يلقاها بمثل ذلك حتى شب كلاهما والتقيا ذات مساء فوقع كل منهما في نفس صاحبه . وأكبر الظن ان هذا التجهم والاعراض لم يكن في حقيقة الأمر إلا مظهراً لحب دفين كشف عن نفسه حين أتاحت له الظروف ان يكشف عن نفسه حين أصبحت الفتاة ناهداً يمكن ان تحقق معنى الحب ، وحين أصبح الفتى

ضابطاً وسيم الطلعة يمكن ان يصبو وان تصبو اليه القلوب .

وقد دار هذا الحب بهذين الشابين الواناً مختلفة من الدوران ، انكر نفسه أول الأمر مع انه لها عارف وبها مؤمن ، ثم جعل يخلص قليلاً قليلاً من هذا الانكار ويكف عن هذه المداورة حتى صرح عن نفسه ذات مساء ولم يترك للعاشقين سبيلاً إلى جحوده أو الشك فيه .

أزال من طريقه اذن تلك المصاعب الخاصة التي كانت في نفس هذين العاشقين والتي ترجع أكثر ما ترجع إلى بعض هذه العقد النفسية التي تعرض للصبية والشباب . ولم يكد يخلص من هذه المصاعب حتى ثارت في سبيله مصاعب أخرى جاءت من اسرة الفتاة . فأبوها رجل من كبار الباشوات له مطامع لا تنتهي ، وهو على ذلك من طراز الاباء الذين لا يعرفون لبناتهم حقاً في الحرية أو الاختيار وانما يأخذونهن بالشدة والعنف والطاعة في غير جمجمة ولا اعتراض . وهو من أجل ذلك يرد خطبة الفتى ويقدم ابنته ضحية لمطامعه ، فيزوجها كارهة من فتى سخيف لا خطر له الا أنه من ابناء رجل عظيم من رؤساء الوزارة السابقين والذين يمكن ان تعود اليهم رياسة الوزارة ، والفتاة يائسة ولكنها صابرة والفتى يائس ولكن فيه شيئاً من اباء ، وقد زفت الفتاة إلى زوجها البغيض ولم ينتظر عشيقها هذا الزفاف فتزوج من فتاة أخرى لا يحبها ولا يهواها . ولا يكاد الزمن يتقدم حتى تستكشف هذه الفتاة الخيانة من زوجها ومن رفاقه المترفين فتفر من

بيتها بعد خطوب وينتهي بها التطواف إلى تلك الساقية القديمة التي ظهر فيها حبها لذلك الفتى وظهر فيها حب ذلك الفتى لها في صراحة لا تحتمل جدالاً وفي عنف لا يقبل مقاومة . وتريد الاقدار التي يدبرها الكاتب كما يحب هو ان تلقى الفتاة عند هذه الساقية عاشقها القديم، وما هي الا ان يفرّا إلى الاسكندرية هاربين بحبهما مرضيين لحاجتهما من هذا الحب في عش بعيد على ساحل البحر . ولكنهما لا يعودان من هذا الفرار ، وانما يستأثر بهما الموت .

ولم الخص القصة ، فليس من اليسير ان تلخص قصة بهذا الطول في مثل هذا الحديث وانما اشرت إلى سياقها اشارة هي إلى اللمح أقرب منها إلى أي شيء آخر . وقد ذكرت ان القصة أخاذة مشوقة تبدأ قراءتها فلا تستطيع عنها انصرافاً حتى تتمها وهي مع ذلك قد كتبت في لغة عربية فصيحة رائقة على هنات تلقاها هنا وهناك .

وما أحب أن أخفي على صاحب القصة اني لم أرض عن كثير مما اضطره اليه فنه اضطراراً ، ولن اذكر له ذاك في اطالة وإنما أشير اليه كما أشرت إلى سائر القصة .

هناك أشياء تنكرها كتمزيق الخيط وتمزيق الشعر وتذكير المؤنث وتثنية ما حقه ان يكون جمعاً . وهناك أشياء لا يسيغها الذوق وما أكثر ما يتورط الشباب من كتابنا فيما لا يسيغه الذوق .

فهذان العاشقان يتحدثان في موطن من مواطن الحب العنيف الذي يريد ان يخفي نفسه فلا يستطيع ، وإذا هما يتهيان في بعض

حديثهما هذا ، الذي كان يجب ان يخلص من المادة، عن المسطردة والعدس والكوشري والدقة واسخف ما يمكن أن يتحدث عنه أصحاب الشره والنهم في موطن من مواطن الجوع والازدراد والالتهام .

وهناك أشياء لا يسيغها الفن نفسه وانما هي متكلفة مصطنعة قد شدت من شعرها كما يقول الفرنسيون ، فهذه الزوج البائسة اليائسة التي فقدت أملها واستكشفت خيانة زوجها وكرهت حياة المترفين وحياة الناس وكادت تقضي على نفسها بالموت ، وانتهت آخر الأمر إلى ساقيتها تلك القديمة تذكر حبها الضائع وأملها الخائب ، وانها لفي ذلك وإذا عاشقها القديم يقبل عليها كأنما كانا على ميعاد . وهو لا يقبل عليها زوجاً بائساً يائساً مثلها وانما يقبل عليها حراً طليقاً قد ماتت زوجه لأن القصة أرادت أن تموت .

وهناك عيب في القصة يوشك ان يفسدها لولا انه يقع في آخرها ، حين تنتهي من قراءتها ، فالفتاة هي التي تكتب القصة وهي التي تنبئنا منذ السطر الأول بأنها ستموت بحيث ننتظر موتها كلما دنونا من آخر الكتاب ، فإذا بلغنا موتها رأيناه منكراً غريباً نابياً لا يسيغه الفن المتقن .

المطوّلة .. رُوقَلبي

هذه هي القصة التي أهداها إليّ الأستاذ يوسف السباعي منذ أسابيع والتي أنفقت في قراءتها وقتاً ليس أقل منهـا طولاً . فهي لا تقرأ في يومين ولا في أيام قليلة وإنمـا تقرأ في الايام الكثيرة وفي الليالي الكثيرة أيضاً لأنهـا أطول من شهر الصوم الذي انقضى أخيراً ، ومن عرقوب تلك الفتاة الذي شبهه الشاعر القديم بشهر الصوم في بيته المشهور :

نبئت ان فتـاة كنت اخطبهـا
عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

ولا اشبهها بليالي الشتاء . ففي ليالي الشتاء طول ممل ، وليس في قصة الاستاذ السباعي على اغراقها في الطول ما

بمل أو يغري بالملل . ولكنها تمضي في طريقها هادئة حيناً وعنيفة حيناً آخر . فلا يكاد هدوؤها يغريك بالملل حتى تعنف فجأة وترد عنك الملل رداً وتشغلك باحداثها وأوصافها وتغريك بالقراءة والامعان فيها حتى تبلغ من العلم بهذه الاحداث والاوصاف ما تريد . ثم تردك مرة أخرى إلى الهدوء .

وهي لا تكاد تمضي مستقيمة مطردة حتى تلتوي بك إلى اليمين مرة وإلى الشمال مرة أخرى . فتريحك من هذه الاستقامة التي كادت تشق عليك ثم تردك اليها بعد أن كاد الالتواء يرهقك من أمرك عسراً .

والفرنسيون يسمون مثل هذه القصة قصةً نهراً يجعلون النهر لها صفة ولا يضيفونها اليه لانهم يشبهونها بالنهر في طوله وفي كثرة ما يلتوي به مجراه وفي كثرة ما يعترض مجراه كذلك من العقبات والصخور التي تخرجه عن هدوئه واطراده واستقامته وتضطره إلى شيء من العنف والثورة والالتواء ليشق لنفسه طريقه إلى مصبه القريب أو البعيد . ولست أخفي اني انما سميتها المطولة رجوعاً بالذاكرة إلى ذلك الكتاب الذي كنا نعرفه أيام الطلب في الازهر والذي كان شيوخنا يحدثوننا عنه ولا يقرأونه لاغراقه في الطول ، وهو كتاب من كتب البلاغة .

ويكفي ان نعلم ان صفحات القصة تتجاوز الالف ثم تتجاوز المائتين بعد الالف وانها تُقَدَّم اليك مرة واحدة

لا مرات يتبع بعضها بعضاً . فاذا رأيت امامك هـذين المجلدين الضخمين أخذك شيء من الروع ... ثم لم تلبث ان تحس شيئاً من فتور الهمة والاشفاق من أن تبدأهـا ثم تصرفك الصوارف عن اتمامهـا . واشهد اني رضيت عن نفسي حين رأيتني أفرغ من قراءة الصفحـة الحادية عشرة بعـد المائتين والالف . وكنت أقـدر انني لن أبلغها .

واشهد كذلك ان الاستاذ السباعي نفسه قد أخذه شيء من الدهش حين انبأته بأني قرأت قصته هذه إلى آخرها. كما ان بعض الصديق أصابهم مثل هذا الدهش واعترفوا بأنهم حين رأوا القصة لم يحاولوا الاخذ في قراءتها لأنهم يئسوا من اتمام هذه القراءة .

وأنا بعد ذلك لا آسى على ما أنفقت في قراءتها من الايام والليالي ، بعد أن سعدت بهذه القراءة كل السعادة واغتبطت بها أعظم الاغتباط .

فالقصة جديرة ان تقرأ حقاً وان تقرأ في اناة ومهل لا في سرعة وعجل ، وعسى أن تكون من خير ما أهدى الاستاذ السباعي إلى قرائه ان لم تكن خير ما اهدى اليهم ، لولا هنات سيكون الالمام بها بعد حين .

فانت واجد في هذه القصة حين تقرأها الواناً كثيرة مختلفة من تصوير الحياة المصرية في ربع القرن الاخير . تجد فيها السياسة وتجد فيها الاسراف في البؤس والاسراف

في الثراء والاسراف في هذا التفاوت لا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين أبناء المدينة الواحدة بل بين أبناء الحي الواحد أو الجزء الضئيل من هـذا الحي . فهذا القصر الضخم الفخم الذي تسرف الايام على اهله بما تتيح لهم من النعيم ، وهذا البيت الصغير الحقير الذي تسرف الأيام على أهله بما تصبّ عليهم من الفقر والشقاء والحرمان وبما تذكي في قلوبهم على رغم ذلك من الأمل والطموح ، هذا القصر الضخم وهذا المنزل الضئيل متجاوران ليس بينهما إلا خطوات يمكن احصاؤها . وأنت واجد في القصة إلى جانب التصوير للحياة السياسية والاجتماعية تصويراً آخر أعمق منه عمقاً واروع منه روعة وأشد منه امعاناً في الجدة والطرافة والغرابة جميعاً . واريد به الحب الذي يلغي الفروق ويمحو الآماد ولا يحفل بالسياسة ولا يحفل بالحياة الاجتماعية ، وانما يمضي في طريقه كما تمضي القصة ، يهدأ حيناً ويعنف حيناً آخر ويستقيم مرة ويلتوي مرة أخرى حتى ينتهي إلى غاية بعد خطوب أيّ خطوب ، وبعد عبث بالقلوب وتعذيب للنفوس وارهاق للاعصاب وامتحان لقدرة الانسان على الصبر والمطاولة وعلى الجهاد والكفاح وعلى النفوذ من المشكلات والتغلب على الخطوب حين يركب بعضها بعضاً وحين تجعل حياة الناس جحيماً لا يطاق . وانت واجد بعد هذا كله فنوناً من تحليل النفس الانسانية وأهوائها وعواطفها وآلامها وآمالها ودخائلها الملتوية المعقدة

وأسرارها التي تكاد تخفي حتى الضمير نفسه والتي تدفع الناس إلى أن يعملوا ويأملوا دون أن يعرفوا لم يأملون ويعملون . ثم أنت متنقل أثناء هذه القراءة بين بيئات مختلفة متفاوتة أشد التفاوت ، فانت في هذه الضيعة بين القصر الشامخ الضخم والبيت المتواضع الفقير ، ثم أنت في بيئة أخرى تخالفها أشد المخالفة ، بيئة المدرسة الحربية على ما لأساتذتها وطلابها وضباطها من تقاليد وعادات.وأنت في القاهرة ثم أنت في الاسكندرية ثم أنت على ساحل البحر مما يلي الصحراء ، ثم أنت في أعماق الصحراء قد بعدت أشد البعد عن النهر والبحر جميعاً وعشت في خيام لا يرى أهلها إلا رمال الصحراء وشمس السماء ونجومها ، فقدّر أنت ما يكون لاختلاف هذه البيئات وتفاوت الحياة فيها والمعاشرة لأهلها من الاثر في نفسك حين ينقلك الكاتب بينها في اناة ورفق مرة وفي سرع وعنف مرة أخرى . وليس هذا كل ما تجد في هذه القصة بل أنت واجد فيها ألواناً من العلم قلما تعرض عليك في كتاب . فحياة الجند في ثكناتهم منذ يصبحون إلى أن يظلهم الليل ومنذ يمسون إلى أن يسفر عنهم الصبح ، والصلة بينهم وبين الضباط ، والصلة بين بعض الضباط وبعض على اختلاف مراتبهم ومنازلهم في نظامهم ذاك العسكري .

كل هذا تجده مفصلاً في القصة تفصيلاً يرضي حاجتك إلى المعرفة والاستطلاع .

ولولا ان كاتب القصة قد بلا حياة الطالب في المدرسة الحربية وحياة الضابط منذ يتخرج في هذه المدرسة إلى أن يبلغ المرتبة التي بلغها من مراتب الجيش لما أتيح له أن يعرض عليك هذه الفنون من المعرفة في هذه الدقة التي أشهد انها تروق وتشوق :

وأشياء كثيرة أخرى تجدها في قراءة هذه القصة . ولست أريد أن أمضي في الحديث عنها لأني لا أريد أن أطيل كما أطال الأستاذ السباعي . ولو حاولت لما رضي قراء هذه الفصول . فهم إلى وقتهم أشد حاجة وهم عليه أعظم حرصاً من اضاعته في قراءة الاحاديث المطولة : وخير لهم ان ينفقوه في قراءة القصة نفسها فسيجدون فيها من المتعة ما هو أقوى وأقوم مما يجدونه حين يقرأون هذا الحديث .

والقصة على طولها واختلافها بين الهدوء والعنف وبين الاستقامة والالتواء يسيرة التلخيص ، أو قل ان ما يمتع منها ويروق يسير التلخيص . فنحن في قصر شاهق انيق من قصور الأمراء السابقين ، وصاحب القصر يمشي في بستانه متفقداً شجره وزهره وزينته . والبستاني عبد الواحد يسعى بين يديه يجيبه حين يسأل ويطيعه حين يأمر ويتملقه في الاستجابة والطاعة جميعاً . ولهذا البستاني غلامان لم يتجاوزا صباهما بعد ، صحبا أباهما إلى البستان في ذلك اليوم واستخفيا حين ظهر الأمير ، وان الأمير لماض في تفقد

بستانه ، يرضى حيناً ويسخط أحياناً ويرفق مرة ويعنف مرة أخرى ، وإذا صيحة مخيفة تخرجه عما هو فيه ، فاذا تبين مصدرها عرف ان ابنته الصبية « انجي » قد خالفت عن أمر أبيها وركبت عربة من عربات النقل الخفيفة على قضبان هيئت لها في البستان ، وانحدرت العربة بهـا مسرعة لا تلوي على شيء فعرضتها لخطر لا شك فيه حين تبلغ غاية القضبان ، والمربية تصيح مرتاعة والامير ينظر وليس أقل منها ارتياعاً ، ولكن العربة تقف فجأة لأن جسماً ممتداً على هذه القضبان قد اعترضها فانقـذ الاميرة الصبية من الموت . فاذا حاول الامير ان يعرف هذا الجسم الذي انقذ ابنته راعه انه ليس إلا علياً ابن البستاني وأكبر صبيته سناً .

ومنذ ذلك الوقت شغفت الصبية بالصبي لأنه أنقذ حياتها وشغف الصبي بهذه الاميرة الناشئة لأنه أنقذ حياتها أيضاً . والاميرة مدينة لهذا الصبي ترى ان له عليها حقوقاً يجب ان تؤدى اليه ، والصبي مستخز من مكانه ذاك ومن ظهور الامير عليه في بستان القصر الذي لا ينبغي ان يلم به إلا السادة والخدم الذين يعملون فيه ، وهو مستخز كذلك من ثيابه الرثة وبنطلونه المرقع الذي يكره ان يرى مكان الرقعة منه . ومهما يكن من شيء فقد اتصل قلبا الصبيين وكان لهذا الاتصال ما بعده .

والصبي ينمو ذكي القلب حاد الذهن رقيـق الشعور

دقيق الحس منطوياً على نفسه متقدماً في الدراسة حتى يتاح له النجاح في كل ما يؤدي من امتحاناته . والقصة كلها تدور حول هذين الصبيين اللذين التقيا في ذلك الموقف . فلم ينس أحد منهما صاحبه وانما استقر في قلب كل واحد منهما حب لصاحبه جعل ينمو ويشتد ويزداد قوة على مر الايام حتى انتهى إلى ما لم يكن بد من ان ينتهي اليه . فابن البستاني يحب الأميرة هائباً لها يائساً منها، والأميرة تحب ابن البستاني رفيقة به عطوفاً عليه يائسة منه . وليس بد للحب من أن يلغي هذا الفرق الهائل بين المحبين . فلا بد من أن تنزل الأميرة إلى ابن البستاني أو يرقى ابن البستاني إلى الأميرة . وكلا العاشقين يؤدي إلى الحب دينه كأحسن ما يؤدى الدين ، فابن البستاني قد أصبح طالباً في المدرسة الحربية بعد خطوب كثيرة ملتوية معقدة ، والأميرة تنزل عن كبريائها ، والمصادفة تهيئ لهما اللقاء بين حين وحين، وقد أصبح ابن البستاني ضابطاً في الجيش وأصبح جديراً إن رأته حبيبته الا تقتحمه عينها . وهي سعيدة بتدرج الفتى في هذا الرقي ، ترى في ذلك تقريباً لما بينهما من أمد بعيد . والمتاعب تكثر والمشكلات تتعقد بين العاشقين يدنوان ليبعدا ويبعدان ليدنوا ، وليس بد من الثورة لتريح العاشقين من شقائهما المتصل ولتلغي ما كان بينهما من فروق ولتتيح لهما ان يخلصا كل منهما لصاحبه ، ولكن بعد أهوال أي أهوال .

وقصة الثورة وتاريخ الاحداث التي مهدت لها والظروف التي اقتضتها وما نشأ عنها من تغير في حياة السادة والمسودين وفي النظم السياسية والاجتماعية ، كل هذا هو الذي أطال القصة وأمعن بها في هذا الطول . ولا بدّ من الاعتراف بأن هذه القصة تنقسم في حقيقة الأمر إلى اقسام ثلاثة : احدها قصة الثورة وما كان قبلها وما كان بعدها من الخطوب . وهذا القسم على طوله لا يعطي القارئ شيئاً جديداً ولا يقفه موقفاً طريفاً ، وإنما هو التاريخ السياسي لمصر منذ ولي فاروق إلى أن أقصته الثورة عن مصر . وهو التاريخ السياسي كما قرأه الناس في الصحف قبل الثورة وكما قرأوه بعد الثورة . هو التاريخ السياسي الرسمي الذي يعرفه الناس الآن ، ليس فيه جديد وعسى ان ينقصه كثير جداً من التحقيق والتعمق . والقسم الثاني قيم حقاً . ولكنه ينفع العقل أكثر مما يمس القلب ، وهو القسم الذي تصور فيه حياة الضابط المصري في بيئته العسكرية بين زملائه وبين الجند مع تفصيل مطول ولكنه نافع ممتع لأنه يُظهر مثلك ومثلي من الذين لا يعرفون شؤون الجيش ولا حياة الضابط على حقائق من الخير لهم أن يعرفوها .

أما القسم الثالث فهو أقوم هذه الاقسام كلها واعظمها حظاً من الامتاع للقلب والعقل والذوق جميعاً . وهو تصوير هذا الحب بين هذين الصبيين وكيف نما وكيف

تطور وكيف عبث به البعد والقرب جميعاً . وكيف اثر؟ فيه اختلاف الطبقة وتفاوت المنزلة وكيف اتيح له آخر الامر ان ينتصر ويفوز .

في هذا القسم استطاع الأستاذ السباعي ان يكون كاتباً ماهراً حقاً ، فهو قد عرف كيف يحلل نفوس طائفة من الناس يتفاوتون في الطبقة والمنزلة ، وفي الذكاء والغباء ، وفي العلم والجهل ، وفي التواضع والكبرياء ، وفي الثقة بالنفس والشك فيها ، وفي الايمان بالله والشك فيه أيضاً . وفيه أتقن الأستاذ السباعي أيضاً تصوير الطموح الذي يستأثر بنفوس الطبقات الفقيرة ويدفعها إلى الجد والكد ويعرضها للاخفاق مرة وللنجاح مرة أخرى ويخرجها على كل حال من طورها الضئيل المتواضع إلى طور الطبقة الوسطى التي لا حد لمطامعها .

وفيه كذلك صوّر الأستاذ السباعي أدق تصوير وأصدقه عبث الشباب وافتتانهم بما يتعرضون له من المغريات ومضيّ هذا العبث إلى غايته مرة وتحوله مرة أخرى إلى الحب القويّ العنيف الذي يذهل صاحبه عن كل شيء .

ولو شئت لمضيت في تصوير ما تمتاز به قصة الحب والمحبين وما يحيط بها ويكتنفها من المشكلات والخطوب ، ولكن هذا القسم الثالث وحده جدير ان يكلفك قراءة القصة على طولها وعلى إسرافها في إنبائك بما تعرفه من أنباء السياسة وخطوبها . وأنا أعترف بأني كنت أتعرض للملل في قراءة هذا التاريخ السياسي الطويل لأني لا أجد فيه

جديداً فلا ينقذني من الملل الا مهارة الكاتب في الرجوع بنا إلى قصة الحب قبل أن يصرفنا الملل عن القراءة .

وليس لي بعد ذلك إلا ملاحظتان اثنتان كنت أتمنى ألا اضطر اليهما . فأما أولاهما فتتصل باللغة وهي لا تخلو من طرافة ، فقد خيل الي حين أخذت في قراءة القصة ان الكاتب قد عاد إلى الحق ورجع إلى الصواب وآمن باللغة العربية الفصحى واعرابها . ولكني لم أكد أمضي في قراءة القصة مثني صفحة حتى راعني مافيهامن استخفاف بالفصحى وازدراء للاعراب واعراض عن أيسر أولياته وتورط في فنون من الهجن لا تخطر لكاتب ولا لقارئ على بال ، وكأن القصة طالت على الكاتب نفسه فعني باللغة في أولها ثم أدركه السأم فأرسل قلمه بغير حساب ، وكأنه قد اطمأن إلى ان مثلي من الذين يتحرجون في اللغة لن يقرأوا هذه القصة إلى آخرها . فأطلق نفسه على سجيتها وكتب غير حافل بخطأ أو صواب . وربما لم يحفل هو بمثل هذه الملاحظة لأنه لا يهتم للاعراب ويريد أن يشاركه الناس في الاعراض عنه والازدراء له . ولكني اؤكد له ناصحاً ان هذا الاهمال يشين قصته حقاً ويسيء اليها في غير استحقاق منها لهذه الاساءة .

أما الملاحظة الثانية فتتصل بآخر القصة الذي هو جدير بفيلم من أفلام السينما كما نعرف الأفلام السينمائية في مصر . فهذه الاحداث الكثيرة العنيفة التي يتبع بعضها بعضاً

في سرعة خاطفة ، وهذا الدم الذي يسفك ، وهذا العاشق الذي يجرح في ظهره ، والعاشقة التي تجرح في قدمها ، والرصاص الذي ينطلق بحساب أو بغير حساب ، كل هذا هبط بالقصة من منزلة كانت رفيعة إلى منزلة لا أحبها لكاتب مجيد كالأستاذ السباعي .

فمتى يتاح لكتابنا ان يراقبوا أقلامهم وان يمتلكوا أنفسهم والا يستجيبوا لهذه الدعوة الخطيرة التي تدعوهم اليها السينما والتمثيل الرخيص ؟

هذه قصة بدأت كأحسن ما تبدأ القصص وانتهت كأسوأ ما تنتهي واضطربت بين بدايتها ونهايتها في ألوان من الاجادة الرائعة والتهافت المؤلم .

ولو راقب الكاتب نفسه أولاً وقلمه ثانياً لاهدى إلى قرائه قصة من خير ما يهدى إلى القراء في هذه الأيام .

من أدبنا الحديث

أريد اليوم أن أتحدث عن كتابين من كتب شبابنا القصاص ، هما «يوم الثلاثاء» و «أرض الخطايا» للأستاذ أمين يوسف غراب .

وأحب قبل كل شيء أن اسجل اغتباطي بأني استكشف في آثار الشباب أدباً خليقاً بالعناية والرعاية حقاً ، لست أدري أأهمله غيري من الشيوخ كما اهملته أنا أم انفردت أنا بهذا الاهمال المعيب . فقد صرفت عن هذا الأدب الخصب الرائع إلى الاعمال العامة أحياناً ، وإلى الأدب القديم أحياناً أخرى ، وإلى الأدب الأوروبي والامريكي طوراً ثالثاً ، ثم إلى أدب الاتراب والنظراء مرةً أخرى ، وأهملت ما كان الحق يقضي بأن أمنحه من الوقت والجهد ما هو أهل له .

وأكاد أعترف لهؤلاء الشباب بأن من حقهم ان يغضبوا

وان يعتبوا بل ان يلوموا ويثقلوا في اللوم ، فهم يكدون ويجدون وينتجون فيحسنون الانتاج ثم لا يجدون صدى لجهدهم وكدهم ، وانتاجهم إلا ما يكون من هذا الصدى الخفي الذي يتردد في نفوس القراء حين يقرأون فيرضون أو يسخطون ثم لا يعربون عما يجدون من الرضى والسخط لأنهم ليسوا نقاداً ولا كتّاباً وانما هم قراء يأخذون ما يقدم اليهم ، فاذا فرغوا منه انصرفوا إلى غيره وانصرفوا إلى أعمالهم ونسوا ما قرأوا كما ينسون ما يأكلون ويشربون.

وأحب بعد ذلك أن أهدي إلى الأستاذ أمين يوسف غراب أصدق الشكر وأخلصه وأجمله لأني قرأت كتابيه فلم ترهقني قراءتهما من امري عسراً ولم اتكلف فيهما ما أتكلفه في قراءة غيرهما من الكتب التي يكثر فيها التخفف من اجادة اللفظ واتقان التعبير وتخير الأسلوب والمحافظة على منزلة متوسطة بين الغريب الذي لا يساغ والمبتذل الذي لا يطاق .

فالاستاذ أمين يوسف غراب كاتب يعرف لغته حق المعرفة ، ويحسن التصرف فيها غير متكلف ولا متصنع ، لا يخرج عن ذلك إلا حين يضطره الفن إلى هذا الخروج حين يروي نكتة عامية أو يدير الحوار بين رجلين أو امرأتين أو رجل وامرأة من أهل الريف . فاما حين يعرب عن ذات نفسه فهو يؤدي ما يريد في لغة نقية واسلوب صفو ، ولفظ يتخيره فيحسن تخيره . وهو يرتفع في كثير

من الاحيان إلى ألوان من التشبيه الرقيق الدقيق الذي يبعد في غرابته حتى يفاجأ القارئ فجاءة حلوة ويقع من نفسه أحسن موقع ويترك فيه أحسن الآثار ، والكاتب على ذلك لم يتخرج في الجامعة ولا في الازهر ، ولم يختلف إلى المدارس ولم يجلس إلى الاساتذة والمؤدبين ، وانما علم نفسه فأحسن تعليمها ، وأخذها بفنون من العنف حتى انقادت له فأحسنت الانقياد وقرأ ما أرادها على أن تقرأه ، فعرفت كيف تقرأ وكيف تفهم ، وكيف تسيغ ما تقرأ وما تفهم وكيف تتمثله ثم ترده بعد ذلك أدباً طريفاً فيه كثير من روعة وفيه كثير من جمال لأنها أضافت اليه من خلاصة طبعها ما أسبغ عليه سذاجة حلوة واجرى فيه روحاً مصرياً عذبة .

وهو قد قرأ أدب المعاصرين من بني وطنه ، ثم قرأ أدب القدماء ، فأكثر قراءته ، ثم هو لم يتعلم لغة أجنبية ولكنه رغم ذلك قد تأثر بما قرأ وبما نقل عن اللغات الأجنبية لم يكد يترك منه شيئاً . واتيح له من هذه القراءة المختلفة المتنوعة فن من الأدب لا شك في اصالته وفي طابعه المصري الخالص ولا شك مع ذلك في انه متصل بالحياة العامة التي يحياها الناس على اختلاف أجناسهم ولغاتهم في هذا العصر الحديث .

ولست أزعم ان الاستاذ أمين يوسف غراب قد وصل إلى أرفع منزلة من الادب ، فبينه وبين هذه المنزلة امد لا

يزال بعيداً ، وأي الناس يصل إلى هذه المنزلة حتى حـ
يتاح له ما لم تتح لهذا الكاتب الأديب من وسائل الاجادة والاتقان ، وانما ازعم انه دليل أي دليل على ان في النفس المصرية من الخصب ، وجودة الطبع ، وصفاء الذوق ، واعتدال المزاج ، ما يتيح لها ان تشارك في الأدب الرفيع فتحسن المشاركة .

والاستاذ أمين يوسف غراب قاص مقصر إلى الآن، لم يحاول ان يطيل القصص فيما اعلم ، وأكبر الظن ان الوقت لم يتح له كما لم يتح له فراغ البال، وانه انما يكتب هذا القصص القصير مستجلباً لفنه من ناحية ولضرورات الانتاج السريع المنتظم من ناحية أخرى .

وأحسب أنه لو فرغ لفنه وقدر له ان يجنب ما تفرضه الحياة اليومية من العسر لأتيح له انتاج أكثر امتاعاً واغزر مادة واقدر على طول البقاء . وهو يشتق احاديثه هـذه القصار من حياتنا المصرية اليومية فيحسن اشتقاقها ويرفعها من طور الواقع المبتذل إلى حيث يجعلها أدباً فيـه عبرة وعظة ، وفيه اثارة لعواطف الرضى والسخط والسرور والحزن والامل واليأس ، وفيه ميل شديد إلى التشاؤم ، فهو يجيد أكثر ما يجيد تصوير الآمال الخائبة والظنـون الكاذبة والاوهام التي تدفع أصحابها إلى التورط في الخطأ الذي لا سبيل إلى اصلاحه واقتراف الاثم الذي لا أمل في استدراكه ، فهذا الفتى يضطرب بين البؤس البائس

والامل المختلط الترق حتى يقترف جريمة القتل والسرقة ، ثم لا يلبث ان يستكشف انه لم يسرق الا وهماً لأن النقد الذي سرقه وقتل في سبيله نقد أجنبي لا يغني عنه شيئاً إلا أنه يسلمه إلى السلطان ليقتص منه . وهو مع ذلك قد اضطر إلى الاثم اضطراراً ، وقاوم الاثم ما استطاع ان يقاومه . وهذا الرجل الذي يقرأ كتباً فيرى فيها حباً آثماً قد تورطت فيه امرأته فيخرجه الغضب عن طوره وتسيطر الحفيظة على امره كله ويستيقن ان امرأته تلك التي تلد في المستشفى انما تلد نتيجة الاثم والفجور . فلا يكاد يردها ويرد معها الصبي إلى داره حتى تنتهي الغيرة إلى خنق هذا الصبي البريء . ثم لا يلبث ان يتبين إنه لم يقتل الا ابنه لأن تلك الكتب الآثمة لم تكن موجهة إلى امرأته وإنما كانت موجهة إلى الخادم التي طردت من الدار حين استكشفت سيدتها هذا الاثم .

وهذا الرجل الساذج من أهل الريف كان يرعى الغنم على عمدة القرية فزوجه العمدة من ابنة خادم تعمل في داره . وهو محب لزوجه محسود على انه قد تزوجها ولكنه يسمع تعريضاً بأن امرأته أثيرة عند العمدة فيقتلها ثم يستكشف بعد دقائق بأنها لم تكن أثيرة العمدة إلا لأنها كانت ابنته من خادمه .

والكاتب لا ينتهي بقصصه دائماً إلى الاثم المقطع المبهظ الذي تسيل فيه الدماء وتزهق فيه النفوس ، ولكنه

ينتهي في كثير من الاحيان إلى خيبة من الآمال ليست أقل شنعاً وبشاعة من ذلك الأثم . وأسلوبه في تصوير خيبة الامل هذه يشبه كثيراً مـا تألفه عند الـكاتب الفرنسي موباسان ، فأكبر الظن أنه قرأ مـا ترجم إلى العربية من هذا الكتاب وقرأ كاتبنا العظيم محمود تيمور فـأحسن الانتفاع بما قرأ .

وهو من أبرع الناس في تصوير البؤس والشقاء والحرمان سواء أكان مصدر هذه الخصال هو سوء النظام الاجتماعي أم هو الانحراف عن جادة الفضيلة وطريق الخلق القويم . على ان من الاسراف ان يقال ان كاتبنا يجيد دائماً ، ويوفق دائماً إلى ما يحب ،فما أكثر ما يخطئه التوفيق فينتهي إلى غير غاية ، وما أكثر ما يضطر أحياناً إلى التزيد والاغراق في الوصف ، ولا سيما حين يصف الترف والمترفين ، وما أكثر ما يتورط في عيب آخر يشاركه فيه كثيراً من أترابه الكتّاب الشباب هو الاسراف في وصف جسم المرأة وجماله وفتنته المغرية . واحسبه واحسب أمثاله من الكتّاب يتملقون بهذا الاغراق استجابة الناس للغرائز وايثارهم لكل ما من شأنه ان يثير فيهم هذه الاستجابة ، وينسون ان الأدباء إنما يكتبون لتأديب الشعب وتهذيبه لا لتملقه واغرائه .

وكاتبنا من أقل الكتّاب كلفاً بالابتذال في اللفظ ولكني مع ذلك أحب له الا يغلو في وصف الطعام على هذا النحو المتهالك الفج الذي يجب أن يشير اليه الادب دون أن

يمعن فيه .

أما بعد فاني اهنئ كاتبنا بأدبه هذا الخصب الرائق ، وما اشك في انه إذا أمعن في القراءة واحسن اختيار ما يقرأ وراقب نفسه حين يكتب واشتد في مراقبتها سينتهي بأدبه إلى غاية بعيدة من الاجادة والاحسان والارتفاع .

من أدبنا الحديث

أريد اليوم أن أحدثك عن كتاب رائع بأدق معاني هذه الكلمة وأصدقها للاستاذ نجيب محفوظ ، وهو كتاب « زقاق المدق » .

وقد يثقل هذا العنوان على لسان الناطق وأذن السامع ، ولكنك لا تكاد تسمعه وتنطق به حتى تتبين أنك مقبل على كتاب يصور جواً شعبياً قاهرياً خالصاً . فهذا العنوان يوشك أن يحدد موضوع القصة وبيئتها ، وقد ذكرت القصة ومن قبل ذلك ذكرت الكتاب لأن لهذا السفر قيمتين خطيرتين حقاً ، احداهما انه قصة متقنة رائقة لا تكاد تأخذ في قراءتها حتى تستأثر بك استئثاراً كاملاً وتشغلك عن كل شيء غيرها ، ثم تمضي فيها حتى إذا فرغت منها لم تستطع الاعراض عنها كما تعرض عن

كثير من الكتب والقصص بعد أن تفرغ من القراءة ، وإنما أنت ذاكر للقصة مفكر في كثير من أحداثها وأشخاصها حريص على أن تستزيد من مصاحبة الكاتب والنظر فيما أظهر من كتب أو قصص أخرى ، قد أحببت الكاتب واستعذبت روحه وشق عليك أن تفارقه أو أن تشغل عنه بغيره من الكتاب .

أما القيمة الثانية الخطيرة لهذا السفر الضخم فهي انه بحث اجتماعي متقن كأحسن ما يبحث أصحاب الاجتماع عن بعض البيئات يصورونها تصويراً دقيقاً ويستقصون أمورها من جميع نواحيها . وما أكثر ما خطر لي وانا اقرأ هذا الكتاب انه لم يوجه إلى الكثرة من القراء ليجدوا فيه ما يطلبون من المتعة الفنية الخالصة التي تشوق وتروق ، وإنما وجه أيضاً إلى الباحثين الاجتماعيين الذين يبحثون ليعلموا وإلى الباحثين الاجتماعيين الذين يبحثون ليصلحوا . ولا أكاد أعرف كتاباً أجدر بأن يقرأه وزراء الشئون الاجتماعية ورجال البحث والاستقصاء في هذه الوزارة من هذا الكتاب . فهو قصص وعلم في وقت واحد ، وهو من أجل ذلك مرض للقلب والعقل والذوق جميعاً .

وهو يصور لك حارة صغيرة في هذا الحي القاهري الخالص بين الغورية والازهر ، ثم يصورها تصويراً يحصي دقائقها ولا يغادر من أمرها كبيراً ولا صغيراً الا أحصاه كأحسن ما يكون الاحصاء ، وكأصدق ما يكون

الاحصاء أيضاً .

في هذه الحارة الصغيرة قهوة شعبية يطرأ عليها الطارئون من الاحياء القريبة والبعيدة أيضاً ، ولكن يختلف اليها في كل يوم أشخاص بعينهم لا يتخلفون عنها مهما تكن الظروف . وفيها وكالة شعبية أيضاً في مظهرها وحركاتها التي يضطرب بها الناس فيها . ولكنها على ذلك تؤدي ثراء عظيماً ضخماً وترزق عمالاً وموظفين كثيرين ، وصاحبها رجل من الشعب ، قد امتاز بالثروة والغنى ، وظهرت عليه آثار هذا الامتياز فهو أنيق الزي وسيم الطلعة يخالط أهل الحي مخالطة متصلة ويمتاز منهم على ذلك ، امتيازاً ظاهراً ، تغدو به على الزقاق وتروح به من الزقاق عربة أنيقة تجرها الخيل . ولها جرس يسمعه أهل الزقاق فيعلمون بغدوه ورواحه . ولكنه لا يكاد يبلغ الزقاق حتى يصبح واحداً من أهله . يأنس اليهم ويأنسون اليه ، ويمتاز منهم بعد ذلك بهدوئه وأناته وشيء من الترفع ليس استعلاء ، ولكنه يوشك ان يبلغ الاستعلاء ، وأهل الزقاق يكبرونه ولكنهم يرونه واحداً منهم ، يرونه سيداً أو شيئاً يشبه السيد . بينهم وبين الذين يسودهم هذه الالفة الانيقة التي تقربه منهم كل القرب وتبعده منهم بعداً شديداً .

وفي الزقاق حانوت حلاق ، وبائع للبسبوسة ، وفرن خباز تتسلط فيه الزوجة على زوجها تسلطاً كاملاً .

وفي الزقاق بعد ذلك بيتان يستأجر حجراتهما وغرفاتهما

هؤلاء الذين يعيشون فيه ، ويقيم فيهما بعد ذلك صاحباهما .

فأما أحدهما فرجل تعلم في الازهر حتى كاد يتخرج فيه ، ولكن الله لم يفتح عليه بالعالمية ، وقد طابت نفسه عن هذا الاخفاق ، واقبل على شيء من التصوف ذكت به نفسه ، وطهر به قلبه وصفى به طبعه وذوقه فأحبه أهل الزقاق وأكبروه ، واتخذوه لانفسهم ناصحاً ومرشداً يستشيرونه حين تشق عليهم مشكلات الحياة ويفزعون اليه حين تلم بهم النائبات . والاخرى امرأة بلغت الخمسين أو قاربتها ترملت منذ عهد بعيد وشقت عليها الوحدة حتى ضاقت بها ، فهي تتوق الى الزواج في استحياء، ثم هي حريصة بخيلة كانزة للمال ، متهالكة عليه ، ترهق سكان بيتها من أمرهم عسراً . ولا بد من ان نذكر كائناً آخر غريباً يعيش في الزقاق قريباً منه ويرقون له أحياناً . قد صور القذارة أبشع تصوير وأشنعه ، قذارة الجسم ، وقذارة الزي ،وقذارة النفس ، وقذارة السيرة . وهو شحاذ ، أو قل أستاذ الشحاذين يعلمهم المهنة ، ويهيئهم لها ويتكلف لهم العاهات والآفات التي يحتاجون اليها ليستدروا اشفاق الناس وعطفهم ، وهو يسكن حجرة قذرة ملحقة بالمخبز ، خالية أو كالخالية من كل شيء ينفق فيها النهار كله ، وشطراً من الليل . ثم يخرج في جوف الليل كأنه الشيطان فيطوف على تلاميذه ليأخذ منهم الاتاوة التي فرضها عليهم .

ويختلف على القهوة في الزقاق اذا أقبل المساء من كل يوم ، رجل غريب الاطوار ، كان موظفاً في الاوقاف ، وانتهى به أمره الى تصوف ذاهل أو ذهول متصوف . فهو يسمع ما يجري من الاحاديث حوله ، ولكنه لا يقول شيئاً ، وهو هائم في ذهوله بأهل البيت — وبستّ الستّات — منهم خاصة . قد غمره حبها وانقطع لها انقطاعاً لا يكاد يتبينه ، وهو يجلس في القهوة بشخصه ولكن نفسه غائبة عنها وربما عادت اليها بين حين وحين فنطقت بجملة أولها عاقل وآخرها مجنون . واهل الزقاق يرونه ولياً من أولياء الله الصالحين ، يتبركون به ولا يستطيعون أن يستغنوا عنه بحال من الاحوال .

هذا هو الزقاق ، وهؤلاء هم أهله ، ولكل واحد منهم قصته التي تصور حياته ومزاجه واخلاقه ومواطن الخير والشر فيه . وهذه القصص الكثيرة يتصل بعضها ببعض ، ويدخل بعضها في بعض ، فهي متشابكة تشابكاً غريباً والكاتب مع ذلك يعرضها كلها عليك في نظام أي نظام ، في نظام واضح متسق سهل لا غموض فيه ولا لبس ولا التواء .

في نظام يذكرك بمذهب الكاتب الامريكي « دوس باسوس » والكاتب الفرنسي « جان بول سارتر » وهو مذهب يجري القصة كما تجري الحياة . فالناس يعيشون معاً في زمان واحد وأماكن متقاربة ، والاحداث تعرض لهم في وقت

واحد ، فمن الطبيعي ان تعرض هذه الاحداث اطرافاً كما تحدث . يقص الكاتب عليك طرفاً من أحداث هذا الرجل ، ثم ينتقل بك الى طرف من احداث رجل آخر ، ثم الى طرف من احداث امرأة ، وما يزال يتنقل بك بين احداث الاشخاص على اختلافهم حتى اذا استقصى طائفة من احداثهم عاد بك من حيث ابتدأ ، فقص عليك طرفاً من احداث الرجل الاول ، وتنقل بك بين الاطراف والاشخاص ، وما يزال يفعل هذا عوداً على بدء ، وبدءاً على عود حتى ينتهي بك الى آخر الكتاب ، وقد اجتمعت لك الاحداث التي اراد الكاتب ان يصور بها حياة هؤلاء الاشخاص جميعاً .

فصاحب القهوة قد كان من الفتوات في شبابه ، ثم انتهى به الامر الى قهوته تلك ؛ وهو رجل ممتحن في بنيه كلهم ، يعرض لهم الفساد فيخرجهم عما يحب الناس في حياتهم المألوفة . وهو ممتحن في أخلاقه وسيرته بشيء من الشذوذ المنكر ، الذي يعرضه للفضيحة بين حين وحين وينغص عليه حياته في منزله دائماً .

وهو على ذلك يحب أهل الزقاق ويحبونه وتجري الحياة بينه وبينهم على ما عرف الناس من حسن العشرة ولين الجانب . والحلاق فتى ساذج لا يكاد يكسب الا ما يقيم أوده ولكنه يرى هذه الفتاة التي تقيم مع أمها أو مع من تقوم مقام أمها ، يراها فيطير طائره ، ويشغف قلبه ،

ويذهب لبه ، حتى لا يعيش الا بها ولها . وهذه الفتاة نفسها غريبة الاطوار حقاً لا تعرف لنفسها ولا يعرف الناس لها أباً . وقد ماتت أمها وكفلتها امرأة خاطبة ، وهي فتاة شرسة شموس شديدة الطموح ، لا ترضى عن شيء ولا تقنع بشيء . ولا تحفل بشيء ولا بانسان ، وانما تريد الغنى والزينة والترف ، مع انها تعيش في الدرك الاسفل من البؤس .

وهي تخرج كل يوم فتمشي في الطريق حتى تلقى صاحبات لها يعملن في بعض المشاغل فتعود معهن ثم ترجع الى دارها . وقد جعل الفتى يرصدها حتى أتيح له أن يتحدث اليها وان يخطبها بعد جهد أي جهد فتقبله غير راضية به ولا مطمئنة اليه .

وقد ترك الفتى مهنته وترك زقاقه على مضض ومضى يلتمس السعة بالعمل في الجيش البريطاني ليعود موسراً ويتيح لامرأته حياة ناعمة . وقد غاب فأطال الغيبة ، ثم عاد في اجازة ليرى خطيبته ولكنه لا يكاد يبلغ الزقاق حتى يعلم ان الفتاة خرجت ذات يوم فلم تعد ، وهو يائس بائس يوشك اليأس ان يقتله ويذهب الحزن به كل مذهب ، وهو يبحث عن الفتاة ما استطاع ، ولكنه يراها ذات مساء في عربة وقد اتخذت من الزينة ما بهره ، ويعلم بعد ذلك من أمرها — ما لم يكن يعلم ، وما علمناه نحن ، لان الكاتب قصه علينا في أسلوبه الرائق فكنا شهوداً

وكان الفتى غائباً يعمل في الجيش البريطاني .

فقد لقيت الفتاة من أغواها بعد عناء طويل وخطوب شداد ، فأصبحت فتاة سوء تبيع اللذة للجنود البريطانيين وتكسب لنفسها ولمغويها مالاً كثيراً . ويدركها الفتى آخر الامر وهي ضيقة بذلك الذي أغواها لانها لا تحبه وهو يتخذها مكسباً . وقد كان الفتى عليها ساخطاً قد أزمع ازدراءها ان لقيها . ولكنه لا يكاد يراها ويسمع صوتها حتى تسرق منه عقله وقلبه . واذا هو يريد ان ينتقم من مغويها قبل كل شيء ، ويصبح اداة في يدها للانتقام من هذا الرجل ، وقد ضربا للانتقام موعداً . وانه ليمر ذات مساء ببعض الحانات ، واذا هو يراها بين جماعة من الجنود تشرب وتلعب ، فيجن جنونه ، ويهجم على الفتاة ، ويرميها بزجاجة من زجاجات الخمر ، ويتكاثر عليه الجنود فما يزالون به ضرباً ولكماً حتى ينقل الى المستشفى آخر الأمر ، ليفارق فيه الحياة والحب والانتقام جميعاً .

ولم ألخص لك القصة ، لأن تلخيصها عسير جداً ، لا سبيل اليه في فصل من هذه الفصول ، وانما لخصت لك منها أطرافاً قليلة جداً . وما أشك في ان ما تركته من أطراف القصة ، عظيم الخطر بالقياس الى ما لخصته منها . عظيم من الناحية الاجتماعية أولاً ، لانه يشخص الزقاق ويشيع فيه روحاً خاصاً ، ويعرض عليك هذا الروح الحلو المر الذي يسر قليلاً ، ويسوء كثيراً ويدعو

أشد الدعاء واقواه الى الاصلاح العاجل السريـــع الذي يعصم هذا الشعب القوي الفـــتي الخصـــب من الفساد والانحلال . وعظيم الخطر من الناحيـــة النفسية لأن الكاتب يحلل لك حيـــاة الرجال والنساء والفتيان والفتيـــات تحليلاً دقيقاً رائعاً ويعرض عليك خباياها عرضاً ، قلّما يحسنـــه البارعون في علم النفس .

وعظيم الخطر من الناحية الفنية لأن الكاتب يصوّر لك هذه الحياة الساذجة المعقدة السعيدة البائسة تصويراً يروعك بدقته وصدقه حتى كأنك تعيش بين هؤلاء الناس ، فتضحـــك حين يضحكون ، وتحزن حين يحزنون .

والكتاب طويل ولكنك تفرغ من قراءته فتراه قصيراً . والكتاب مفصل ، ولكنك تمضي في تفصيله فتراه مجملاً . وما أعرف كتاباً يذود عن قارئه الملل كهذا الكتاب .

وهو مكتوب في لغة فصيحة سهلة قد برئت من التكلف وامتازت بالاسماح ، تتخللها بين حين وحين عبارات شعبية تقرأها فلا تضيق بها ، ولا تحس تنافراً بينها وبين مـــا حولها من هذه اللغة السمحة المستقيمة على هنات قليلة فيها لا تستحق ان تذكر . فهو مثلاً يثني « ذات » فيقول « ذاتا نبقتين من اللؤلؤ » والخير ان يقول ذواتـــا . وهو يقول « قد استخار الله فاخاره » والجيد ان يقول : فخار له » .

ولكن هذه هنات يسيرة ، وهي بعد ذلك قليلة فـــي

هذا الكتاب الطويل :

ما أجدر هذا الكتاب ان يقرأ ، فهو كتاب ممتـــاز حقاً ، قد صدر عن كاتب ممتاز ، ما في ذلك شك .

ولقد فرغت منه بعد أن أنفقت في قراءته أياماً فلـــم يسعني الا أن آخذ في كتـاب آخر من كتبه هو « بدايـة ونهاية »

أنا الشعب

قصة للاستاذ محمد فريد أبو حديد :

أو قل انهما قصتان تمضيان في طريقين مختلفين وتنتهيان الى غايتين مختلفتين ايضاً ولكن بينهما تشابهاً قويـــــاً ؛ احداهما تنبىء بسعادة اثنين والاخرى تنبىء بسعادة شعب بأسره :

احدى هاتين القصتين انسانية بالمعنى الدقيق الصادق لهذه الكلمة ، والاخرى سياسية لا تخلو من المغامرات والمقامرات ومما تستتبعه السياسة عادة من الاضطراب واختلاط الأمور:

والاستاذ فريد ابو حديد قاص بارع ما في ذلك شك ، يعرف براعته من قرأ قصصه « زنوبيا » و « أزهار الشوك » و « الوعاء المرمري » ، واستحضر الساعات العذاب التي أنفقها وهو

يقرأ هذه الكتب الرائعة التي تستهوي القلوب وتستأثر بالالباب . فهذه القصة الاخيرة لا تقدمه الينا لاننا نعرفه منذ زمن بعيد ، وهي لا تنبئنا من أمره بشيء جديد ولا تحدثنا عن ناحية طريفة من نواحي فنه الذي يمتاز بالصدق والدقة والاتقان .

فهو في هذه القصة كما عرفناه في غيرها متقن للتصوير محسن لاستقصاء خصال الاشخاص الذين يصورهم والبحث عن أسرارها ، والنفوذ من مشكلاتها المعقدة أشد التعقيد . وهو كعهدنا به باحث عن خبايا النفوس ، نفاذ الى دخائلها لا يحب العجلة ولا يطمئن الى السرعة ، وانما يطيل الوقوف عند ما يريد درسه من شؤون الأفراد والجماعات حتى يشفي نفسه ويشفي قارئه من كل حاجة الى الاستطلاع . ولفظه كما عرفناه دائماً جزل رصين تشيع فيه عذوبة محببة الى النفس لولا هنات تلقاك هنا وهناك ليست بذات بال ، ولولا لوازم لا يكاد يبرأ منها شأنه في ذلك شأن كثير من الكتاب تلح عليهم ألوان من التعبير فلا يستطيعون منها فكاكاً .

وقد قلت ان هذه القصة توشك ان تكون قصتين تجري احداث احداها في مدينة بعينها من مدن الاقاليم هي دمنهور ولا تكاد تخرج من هذه المدينة الا حين يسافر بطل القصة الى القاهرة فيصحبه حبه الذي لا يريد عنه انصرافاً ولا يريد هو منه خلاصاً لأنه لا يعيش الا به

ولا يعيش الا له كما يقول .

وهذه القصة الاقليمية هي القصة الانسانية حقاً لأنها تصور حياة طائفة من الناس في سرها وفي جهرها ، وفي استقامتها والتوائها ، وفي خيرها وشرها ، وفي حبها وبغضها وتذبذبها بين الحب والبغض كما تصور كيد الناس للناس ، ومكر الناس بالناس ، ووفاءالناس للناس ، وكم تصور صفو الحب حين يكون بين الأم وابنها وبين الاخت واخيها ، وصدق الحب ، وحياءه واستخفاءه وانكاره لنفسه وان أبدت عنه الظروف حين يكون بين عاشقين يملك كل منهما لنفسه كأحسن ما يملك الانسان نفسه ويضبط شعوره كأحسن ما يكون ضبط الشعور .

وقد اختلفت بهما طرق الحياة فاتيح لاحدهما الثراء والسعة والنعيم وكتب على أحدهما الآخر العسر والضيق وفرض عليه الجد في كسب القوت . فأحدهما محب يستحيي ان يظهر ذات نفسه لأنه مترف موفور . والآخر محب يأنف ان يظهر ذات نفسه لأنه معسر أبيّ . وهنا التفاوت بين المحبين ، وهذا الحياء وهذه الكبرياء ، كل هذه الخصال هي التي تتيح للحب ان ينمو ويذكو ويملأ قلوب العاشقين رضى وسخطاً وحزناً وسروراً ، ويثير فيهما لوعة أي لوعة في أكثر الاحيان وسعادة أي سعادة في احيان أخرى ، ويتيح لاحداث القصة ان تتصل وتجري في نسق مستقيم لا عوج فيه .

فبطل القصة فتى من دمنهور قد فقد أباه وهو تلميذ في المدرسة الثانوية فاضطربت عليه الامور أشد الاضطراب حتى زهدته في الدرس وصرفته عنه آخر الامر واضطرته ظروف الحياة الى ان يلتمس العمل ليكسب لنفسه ولأمه القوت . وهو يحاول فلا تغني عنه المحاولة شيئاً ، ثم تشير عليه أمه ان يلجأ الى رجل من أغنياء المدينة واصحاب التجارة الواسعة فيها كانت بينه وبين أبيه مودة وما زالت هذه المودة باقية بين أسرته وأسرة الفتى ، ولا يكاد الفتى يلقى هذا الصديق القديم لابيه حتى يحسن لقاءه ويكلفه العمل في محلجه ، ثم يصطفيه ويختصه بكثير من الرعاية والحب . ولهذا الرجل ابنة في أول الشباب عرفها الفتى منذ كانا طفلين ونما بينهما حب نقي ولكنه حب شديد الحياء لا يكشف عن نفسه لصاحبيه إلا في اناة شديدة ومهل بطيء . فاذا كشف عن نفسه لهما استحيا كل واحد منهما ان يحدث به صاحبه ، واستحيا كل واحد منهما ان يعرب عنه لأحد من الناس . وأمور القصة تضطرب بين العسر واليسر وبين الشدة واللين ، ويكثر فيها الكيد والمكر والعبث ، وتختلف فيها الخطوب والثقال. وما أريد ان الخصها لك لا لأن في تلخيصها شيئاً من العسر بل لاني حريص على ان تقرأها وتستكشف ما فيها من روائع التصوير وبراعة في تحليل النفوس والاعمال التي تصدر عنها .

وقد كاد للفتى بعض زملائه فأقصاه هذا التاجر عن عمله ولكنه حفظ له كثيراً من المودة والعطف ، والفتى مضطرب في شؤون الحياة يحاول التجارة اليسيرة فيواتيه الحظ لأن رفيقاً من رفاقه البائسين في المدينة قد أعانه فأحسن معونته ، والكاتب يصور لنا هذا الرفيق أبرع تصوير وأصدقه وأعظمه استهواء لنفس القارىء .

وفي أثناء هذا الكد والجد تنشأ القصة الثانية . فقد اتصل الفتى بالسياسة من طريق الانتخابات والترويج لأحد المتنافسين فيها والتعرض لما كان يملأ الانتخابات من كيد يكيده بعض الخصوم لبعض ، ومن عبث يعبثه السلطان بالذين يروجون لمن يخاصم السلطان .

واتصال الفتى بالسياسة من هذه الطريق يظهره على ذات نفسه ويكشف له عن حقيقة أمره . فيستكشف أولاً انه كاتب يحاول القصص فيجيده ويبرع فيه ، ويستكشف ثانياً انه خطيب يحسن اثارة الجماعات والهابها . ويستكشف بعد ذلك ان له مثلاً عليا في السياسة ، وانه مؤثر لها أشد الايثار مخلص لها أعظم الاخلاص مؤمن بها ايماناً لا يسعى اليه الشك ولا تنال منه الخطوب ، صادق اللهجة اذا أعرب عن رأيه قادر على ان ينقله الى سامعيه والى قارئيه لا يجد في ذلك مشقة ولا عسراً وانما هو طبيعة له قد ركبت فيه وجعلته رجل جهاد ونضال لا يعرف ضعفاً ولا خوفاً ولا يهاب الهول مهما عظم ومهما يكن مصدره .

وليس الفتى في حقيقة الامر هو الذي استكشف هذه الناحية من نواحي نفسه وانما استكشفها صديق حميم له لم يلبث أن وصل أسبابه بأسباب صحيفة من صحف القاهرة ثم لم تلبث الصحيفة ان دعته الى المشاركة في تحريرها فانتقل الى القاهرة ومعه حبه ذاك ومن ورائه أمه واخته تعيشان في دمنهور من سعيه الصبر الرضي والسعيد الشقي في القاهرة .

ولا ألخص لك هذه القصة الثانية أيضاً وان كان تلخيصها يسيراً لا لاني أريد ان تستكشفها بنفسك بل لانك تعرفها حق المعرفة . واي القراء في مصر لا يعرف حياة الصحفيين وما يعرض لهم من الخطوب حين يصدقون أنفسهم وقراءهم ويخلصون لآرائهم ومذاهبهم ، ويجادلون السلطان عن هذه الآراء والمذاهب ، ويعارضون الحكومة في عنف لا يعرف اللين وصرامة لا تعرف السماح .

كل القراء عرف ما كان الصحفيون الصادقون يتعرضون له قبل الثورة من الحاح النيابة في التحقيق ، ومن السجن الاحتياطي الذي يتصل ويسرف في الطول ، ومن الاغراء والاضطهاد حين لا يجدي الاغراء ، وما كانت الصحف تتعرض له من المصادرة وما يتبعها من الخسارة المالية ؛ وقد صور الكاتب هذا كله ولكنه فيما أرى لم ينبئنا بشيء لم نكن نعرفه وانما أعاد الينا شيئاً ألفناه فطال إلفنا له وضقنا به أشد الضيق . وقد أحسن الكاتب تصوير

حياته في السجن حتى بلغ اثارة الالم في نفوسنا ، ولكنه على ذلك قد سبق الى تصوير السجن وحياة الكتاب فيه والى تصوير السجن المصري نفسه وحياة الكتاب المصريين فيه ، سبقه الى ذلك من ذاق الحياة في السجن دون ان يحتاج الى خيال أو الى افتنان ، لان الحياة في السجن المصري ولا سيما حين تفرض على كاتب لانه أعرب مخلصاً عن ذات نفسه أقوى وأشد نكراً من ان تحتاج الى تجاوز الحقيقة الى الخيال .

ولست أدري أصوّرتُ الكتاب حق تصويره حين قلت انه يعرض علينا قصتين ، فقد يخيل اليّ ان فيه قصة ثالثة ليست عظيمة الخطر ولا كثيرة التفصيل ولكنها قصة على كل حال ، فيها فتاة وفيها شيء يوشك ان يكون فتونـاً وفيها بعد ذلك مفاجأة حين يقدم ذلك الرفيق البائس القديم الذي أصبح بفضل الكيد من أهل اليسار ، حين يقدم ذلك الرفيق الى القاهرة ليزور صديقه القديم في سجنه فيلقى تلك الفتاة ويحبها ويدخل بحبها في مغامرة أخرى ليست بذات بال وان احتاج الكاتب الى ان يبلغ بنا غايتها .

وبطل القصة بل بطل القصتين يشقى بقصتيه معاً ، يشقى بحبه الذي لا يعرف له غاية ولا يرى السبيل الى ارضائه وان مدت له الاسباب الى هذا الارضاء لانه يكبر نفسه عن ان يطمح الى فتاة مترفة ليس له من ترفها نصيب ،

يخشى ان يتهم بالطمع في مال الفتاة ان سمت نفسه اليها وان كان حبها يحرق قلبها تحريقاً ، والفتاة تحبه ويصدها الحياء عن ان تستجيب لهذا الحب لأنها لا تستطيع ان تبدأ بالخطوة الاولى ولو قد ارادت لما أتيح لها ذلك . فقد خطبها الى أبيها فتى من أبناء الباشوات ،وقبل أبوها الخطبة وأذعنت هي لأمر أبويها واستيأس العاشقان من ارضاء حبيهما ذاك البائس الذي كتب عليه الحرمان . صاحبنا شقي بهذا الحب كما شقي العذريون بحبهم من قبل ، وهو شقي بقصته الثانية فجهاده في السياسة يدفعه من تحقيق الى تحقيق وينقله من سجن الى سجن ويعرضه بكثير من الخطوب في نفسه وفي الزملاء . ولكن لكل قصة غاية يجب ان تنتهي اليها، ولكل مشكلة حلاً يجب ان تصير اليه من طريق أو من أخرى .

وقد وفق الكاتب كل التوفيق الى حل القصة الاولى ، قصة الحب في غير مشقة ولا تكلف بل في براعة أيّ براعة وفي صدق أي صدق ، وفي افادة لقرائه كأحسن ما تكون الإفادة للقراء لانه درس بيئة حبه ذاك أحسن درس واعمقه واعطانا من الذين يضطربون في هذه البيئة صوراً تملؤها الحياة ويفيض منها النشاط وتظهر لنا حقائقهم قوية أخاذة فيها الرائع وفيها المروّع . فهذا الغلام البائس الذي ألح عليه البؤس حتى ادركه الهزال وبلغ منه الجهد وانتهى به الى شحوب مخيف عرف به بين الناس ،وكانوا يسمونه

جلدة الاصفر ، والذي يعيش من السؤال وتكفف الناس والذي اختلط في نفسه الخير والشر والسخط والرضى والحزن والسرور حتى أصبح صورة مزعجة للبؤس المضطرب الذي لا يعرف ما يأتي وما يدع والذي لا يؤمن بنفسه ولا يؤمن بغيره وانما هو أشبه شيء بالقمامة التي تعبث بها الرياح فتوجهها حيث تشاء . وهذا الفتى قانع بالقليل حين يتاح له القليل . فاذا أدركته صحة أو مسه جناح نعمة أسرع الى لذته فاندفع اليها واسرف فيها ، ويجب ان تكون لذته حقيرة مثله بائسة مثله فهو لا يتتبع الا أحقر الحانات ولا يشرب الا أرخص الخمر وافتكها بالنفوس والاجسام .

وهو لا يحفل بنفسه ولا بجسمه كما انه لا يحفل بالاخلاق ولا بالاوضاع الاجتماعية لانه يحس ان الجماعة قد نبذته نبذاً فهو ليس منها وهي ليست منه في قليل ولا فـــي كثير . فليختلس حياته ، وليختلس ما يتاح له فيها من متاع ، وليسلك الى اختلاس الحياة ومتاعها كل سبيل ولا عليه ان تكون سبله معوجة أو مستقيمة وان تثير سيرته رضى الناس أو سخطهم ، وهو على ذلك كله ليس خلواً من كل خير . فيه هذا الخير المادي الذي يتيح له شيئاً من النجح في التجارة حين تمد له أسبابها فينفع نفسه وينفع صديقه بطل القصة . يربح هو قليلاً من المال ينفقه في لذاته ومتعه الساقطة ويربح صديقه مالاً لا بأس به يرغبه

في التجارة ويغريه بها لولا انه مريض بالكتابة والسياسة جميعاً . فيصرفه مرضه هذا عما كان جديراً ان يغنيه ويدنيه من ارضاء حبه ذاك ، وذلك الفتى الآخر الذي يعمل مع بطل القصة في المحلج والذي يظهر عليه الرفق والتاطف وسماحة النفس وسجاحة الخلق ، ومن وراء هذا كله اثرة منكرة وكيد خبيث ومكر بعيد الغور فهو وادع حين تلقاه وحين تقول له وتسمع منه ، وهو شيطان مريد حين تنأى عنه يكيد لك الكيد ويمكر بك المكر البغيض ويسعى بك عند الرؤساء ويفسد عليك الامر كله بين الناس . وهذا الصديق الحميم الذي يعمل معلماً في احدى المدارس والذي تصفو نفسه الى أقصى غايات الصفاء ويخلص وده للصديق حتى يبلغ الايثار ، ويصدق نصحه للصديق أيضاً حتى يصبح له مرشداً وهادياً الى ما ينفعه ويرضيه ونائياً به عما يسوءه ويؤذيه . وهذه الامة البرة الحنون التي تعيش لابنها ولا تؤثر به شيئاً وترضى عن كل ما يعمله وتشفق عليه من أيسر الاشياء حتى من النصح الذي لا يلائم هواه . وهذه الاخت الناشئة ذات النفس السمحة والروح العذب والدعابة الحلوة والتي تحسن الاخلاص لاخيها وامها وكل من تحب تجد في ذلك كل الجد وان لم تظهره الا في صورة الفكاهة والمزاح .

كل هؤلاء الاشخاص صورهم الكاتب أبدع تصوير وابرعه واصدقه حتى أصبح كل واحد منهم درساً في

الحياة يعلم الناس اين يكون الخير والشر ، واين يكون الكرم واللؤم ، واين يكون النصح والخداع .

وذلك التاجر الماهر في التجارة أعظم المهارة وابعدها مدى ، الماكر في المعاملة أنفذ المكر وابلغه . ذلك الذي لا ينظر الى المال الا نظرة الجد الصارم الذي لا مزاح معه ولا يبلغ منه الصدق والصراحة شيئاً ، وابنته الحسناء الوادعة ذات الخفر الذي لا نكاد نعرفه الا عند أولئك الحسان اللاتي كان العذريون يهيمون بهن ويتحدثون عنهن في ذلك الشعر الخالد الذي لا ينسى ،والتي تحسن حفظ الود وتعرف كيف تصونه في أعماق نفسها ولا تكاد تبدي عنه الا حين تضطر الى ذلك اضطراراً .

هؤلاء كلهم هم الاشخاص الذين يضطربون في تلك البيئة الاقليمية التي صورها لنا الكاتب فأحسن تصويرها .وعرض هؤلاء الاشخاص كما قرأته الآن يكفي لينبئك كيف انتهت قصة الحب الى غايتها . تاجر ماهر ماكر في شئون المال وفي جمعه ولكنه ساذج فيما وراء ذلك ، ومن حوله أصحاب الكيد والمكر واصحاب المطامع والمنافع ، وهو بعد ذلك سريع الاستجابة حين تدعوه اللذة فأي غرابة في أن يطمع أحد الباشوات في ماله الكثير ، فيسعى في الاصهار اليه ، وأيّ غرابة في ان يجيبه التاجر الى ما يريد ثم أيّ غرابة في ان يكيد له الكائدون ليظهروا بعض ما خفي من أمره حين كان يستجيب لهواه ، وفي ان يثقل

عليه خوف الفضيحة فيقضي عليه الموت المفاجيء الذي يعجله عن أيسر التفكير والتدبير ؟

والامور تمضي بعد ذلك في يسر الى غايتها . فقد يصبح الباشا مدبراً لامور الاسرة بعد ان فقدت عائلها ، مؤثراً نفسه وابنه بخير ما ترك الفقيد ، معرضاً هذه الأسرة الى ضياع الثروة كلها أو أكثرها . ولا بد من ان يصبح بكل القصة منقذاً لهذه الاسرة البائسة ، وهو ينقذها مستجيباً لحبه الخالص من كل غرض ، المبرأ من كل طمع ، ويلقى آخر الأمر جزاء هذا الصدق والنصح والاخلاص فيضمر الأمر بينه وبين حبيبته الى خير ما يحبان .

على هذا النحو من الدقة والصدق ومن البراعة واليسر تمضي هذه القصة الانسانية الرائعة ، وعلى هذا النحو تنتهي الى غايتها لا يظهر فيها تكلف ولا يبدو فيها جهد على كثرة ما أنفق المؤلف فيها من الجهد . حب صادق يجيبه حب صادق مثله وتقوم من دونه العقاب التي يعقدها الكيد ولكن النصح والاخلاص والجد النقي من كل شائبة كل ذلك يذلل هذه العقبات ، بل يمحوها ويتيح للحب ان ينتصر وللمثل العليا ان تفوز .

ولا كذلك القصة الثانية فالكاتب يعرف كيف يبدؤها ، فليس غريباً ان يستكشف فتى في نفسه القدرة على الكتابة أو ان يستكشف غيره له ذلك فيمضي فيما يسّر له ، وليس غريباً ان تستخفه السياسة فيستجيب لها مخلصاً صادقاً كما

كان مخلصاً صادقاً في الحب . وليس غريباً آخر الأمر ان يلقى من أهوال السياسة وخطوبها ما يلقى أمثاله من المخلصين الصادقين في تلك الأيام الشداد ، وانما الغريب حقاً هو انتهاء القصة إلى غايتها على هذا النحو الذي انتهت اليه ؛ فهي تبلغ غايتها فجاءة وعن غير ارادة من الكاتب أو استعداد لاتمام قصته ؛ وهو يعترف بذلك اعترافاً فيه كثير من السذاجة . فالثورة هي التي أتمت هذه القصة السياسية وكانت خليقة ان تمضي إلى غير مدى دون أن تنبئنا بشيء جديد أو تظهرنا على شيء غير مألوف ؛

والثورة قد فجأت الكاتب كما فجأت كثيراً غيره من الناس حتى ظن انها كرامة من كرامات الحسين رحمه الله لأن داره كانت قريبة من مسجد الحسين وكان كثيراً ما يصلي في هذا المسجد وكان لا يمر بـه إلا قرأ الفاتحة ؛ وواضح جداً ان الكاتب لم يؤمن في ذات نفسه بهذه الكرامة ولكن الثورة فاجأته وطالت به القصة فلم يحاول الثورة تعليلاً وهذا هو التقصير الذي نأخذه به ونعاتبه فيه .

فالاستاذ فريد أبو حديد ليس من عامة الناس ولا هو من أوساطهم وانما هو من أولي العقل والثقافة والفطنة والرأي ، وهو من غير شك كان يقدر كما كان يقدر أمثاله ان حياة مصر في آخر العهد الماضي لم تكن طبيعية وان اتصالها كما كانت لم يكن ميسوراً ولا معقولاً ولا ممكناً ، وكل الذين اتيح لهم مثل ما أتيح للكاتب الأديب من

الذكاء والفطنة والثقافة كانوا يقدرون ان تلك الحياة لا تستطيع أن تتصل ولا أن تجري على ذلك النحو الذي كانت تجري عليه ، وكانوا ينتظرون حدثاً خطيراً ذا بال يغير حياتهم ويردها إلى طريق ادنى إلى الاستقامة وأقرب إلى القصد وان لم يكونوا يعرفون كيف يأتي هذا الحدث .

لم تكن الثورة مفاجئة اذن لاولي الفطنة والذكاء والنظر البعيد وإنما كانت متوقعة مترقبة ، وكان كثير من الناس يتعجلونها ويتحرقون شوقاً اليها . وكنت أحب للكاتب الأديب ان يعنى في قصته السياسية هذه بالاحداث الخفية التي كانت تجري في أعماق الشعب وتهيئه للثورة إن أتيحت له أسبابها وتهيئه لتقبل الثورة والابتهاج بها ان شب نارها القادرون عليها .

كنت أحب أن يصور لنا بؤس الجماعات وضيقها بهذا البؤس وطموحها إلى الخروج منه كما صور لنا بؤس حماده الأصغر وما ورطه فيه هذا البؤس من النكر والفساد .

وكنت أحب أن يصور لنا سعة الهوة وعمقها بين الحاكمين والمحكومين حتى كان كل فريق من هذين الفريقين يمضي ممعناً في طريق غير التي كان الفريق الآخر يمضي فيها بحيث لم يكن من الممكن ان يلتقيا .

وكنت احب أن يصور تردد الحكام وضغطهم واضطرابهم بين هذه الأهواء الكثيرة التي كانت تعبث بالنفوس ، واختلاط

الأمر واضطرابه على الموظفين الذين كانوا يدبرون المرافق العامة ضائقين بتدبيرها زاهدين في هذا التدبير ، يطمع فريق منها فيسرف في الطمع حتى تصبح مناصبهم وسيلة لا غاية ، وتيأس كثرتهم فيلح عليها اليأس حتى تنظر الى العمل نظرة الماقت له ، النافر منه الذي يراه وسيلة الى المرتب الذي يأخذه في آخر الشهر . ولو قد عني الاستاذ فريد أبو حديد بتصوير هذه العلل والآفات التي أفسدت حياة المصريين قبل ان تشب الثورة لعرف انه كان يعمل لهذه الثورة ويهيىء لها ويتعجل وقوعها وينتظر هذا الوقوع كما ينتظر الساعون الى غاية من الغايات ان يصلوا الى غايتهم ويتعجلون الوصول اليها فاذا بلغوها لم يفجأهم بلوغها ولم يروا ولم يظنوا انه كرامة من كرامات الحسين أو غيره من الاولياء الصالحين .

ولست أخفي على الكاتب الاديب اني كنت أجد نوعين مختلفين أشد الاختلاف من الشعور حين كنت أقرأ قصته هذه ، أحدهما شعور الغبطة والرضى والشوق الشديد الى المضي في القراءة ، والآخر شعور الفتور والسأم والشوق الى أن أرى الكاتب قد ضاق بمدينة القاهرة واشتاق الى مدينته تلك أو دعاه أي داع للعودة الى دمنهور في قطار الليل أو في قطار النهار لاني كنت أحب أشد الحب ان أعيش معه في دمنهور حيث أشخاصه أولئك الذين تكشف حياتهم لي عن شيء جديد كلما مضيت في القراءة .وكنت

أجد كثيراً من السأم في أن أعيش معه في القاهــــرة لسبب يسير وهو اني عشت معــه في القاهرة أوقــاتــاً طوالاً وبلوت هذه الحياة التي يصورها حتى سئمتها وضقت بها . عرفت تحقيق النيابة وشهود المحاكم ومــا يلقــاه الصحفيون من الشر في ذات أنفسهم وفي نفوس زملائهم : وعرفت النذر الظاهرة والخفية التي تسعى الى الصحفيين الصادقين لتنغص عليهم الايام وتؤرق عليهم الليالي .

عرفت هذه الحياة فلم أكن في حاجة الى ان تعاد عليّ قصتها ولم أعرف حياة أولئك الاشخاص في دمنهــور ، فكنت الى معرفتها مشوقاً وبها مشغوفاً . ومهما يكن من شيء فان انتهاء هذه القصة ينبئنا بشيء نترقبــه ونتعجله ونرجو ان يكون أشفى لنفوسنا وارضى لعقولنا على مـا في هذه القصة من متاع ورضى ، فالاستاذ فريد أبو حديد ينبئنا بأن انتهاء قصته هذه انما هو ابتداء لقصة أخرى .

فمتى يتاح لنا ان نقرأ هذه القصة الاخرى ؟ عسى ان يكون ذلك قريباً .

شهريار

قصة تمثيلية شعرية للاستاذين عزيز اباظة وعبد الله البشير

قرأت في هذه الايام قصتين تمثيليتين موضوعهما واحد وهو شهرزاد ، احداهما للشاعر الفرنسي المعروف جـول سوبرفييل والأخرى للشاعر المصري الكبير عزيز أباظة .وقد كتب الشاعر الفرنسي قصته منذ أعوام تبلغ العشرة أو تكاد تبلغها ومثلت في باريس ولم تظفر من النجح بمـا كان ينتظره لها صاحبها ان لم تكذبني الذاكرة . وعنوان القصة شهرزاد ، كما ان شهرزاد هي المحور الذي تدور عليه .

أما شاعرنا فقد جعل شهريار عنوانـــاً وبطلاً لقصته . ونهاية القصة عند الشاعرين واحدة . فشهريار يخلع نفسه من الملك فيهما جميعاً ولكنه يخلص للحب ولحب شهرزاد خاصة عند الشاعر الفرنسي ، ويخلص للدين والنسك ويهجر الحب

وشهرزاد جميعاً عند الشاعر المصري . وبعد اتفاق القصتين في الموضوع وفي الغاية الى حد بعيد يختلف الشاعران فيما ابتغيا من وسيلة وما سلكا من طريق لعرض قصتيهما على النظارة واجراء ما يكون فيهما من حوار وما يقع فيهما من احداث . فأما الشاعر الفرنسي فالفنّ وحده هو غايته وهو وسيلته فهو لا يرمي الى غرض خلقي ولا سياسي ولا يحاول تأديب الناس ولا تهذيبهم ولا يكاد يفكر في بيئته التي يعيش فيها ناقداً لها ، ومثنياً عليها ، وانما هو شاعر عرف قصة شهرزاد واراد ان يعرض منها صورة فنية يمتع بها قراءه ونظارته ويرسل فيها خياله الى حيث يريد أو الى حيث يستطيع ، تهديه أعلام الفن وحدها ولا تقيده ظروف خاصة قريبة منه أو بعيدة عنه .

أما الشاعر المصري فالفنّ عنده وسيلة أكثر منه غاية، فهو يفرض على نفسه قيوداً ثقالاً ، فهو مؤدب للناس مقوم لاخلاقهم مهذب لطباعهم يمقت الاثم ويبغض الفسق ويكره الفجور ويحرص على ان يكرّه هذه الخصال كلها الى الذين يقرأون قصته أو يشهدونها . وهو منكر لسياسة قديمة مؤثرة لسياسة جديدة لا يمقت شيئاً كما يمقت الطغيان ولا يؤمن بشيء كما يؤمن بالعدل والقسط وحق الشعوب الكامل في الحريةوالعدل وفي الكرامة والمساواة وفي حقها الكامل في ان تحكم نفسها كما تشاء لا كما يشاء السادة والملوك . وهو من أجل ذلك يصور الطغيان في أبشع صوره وابغض مظاهره ويصور ما

يستتبعه هذا الطغيان من ذلة الوزراء والحاشية واذعانهم للهون وخضوعهم لما يصدر اليهم من أمر لا يراجعونه ولا يجادلون فيه ، وغلوهم في النفاق وايثارهم بعد ذلك لأنفسهم وامعانهم في الجشع واغراقهم في كل ما يمحو المروءة ويزري بالرجولة ويغض من قدر الانسان الذي لم يخلق للذلة والهوان وانما خلق للعزة والكرامة .

وهو يذهب في تصوير هذا كله مذاهب مختلفة ويسلك اليه طرقاً متشعبة ، ولكنه بعد ان فرض على نفسه كل هذه القيود أصبح يعيش بيننا يخوض فيما نخوض فيه ، ويعيد علينا أحاديث نفوسنا حين نخلو اليها واحاديث بعضنا لبعض حين نلتقي واحاديث ما نقرأ من الصحف مصبحين وممسين وأحاديث الكتب السياسية والخلقية التي نقرأها بين حين وحين .

وهو يتناول هذا كله من قريب ومن قريب جداً ، لا يبعد في التعمق ولا يمعن في الاستقصاء ولا يحلق في جو بعيد ، وانما هو في الأرض يحدث الناس ويحدث المصريين خاصة عن حياتهم التي يحيونها والتي كانوا يحيونها في بعض تاريخهم ، يسلك في هذا كله طريق الذين يحبون ان يكون الأدب للحياة ، وما أرى هؤلاء الا يحبون قصته أشد الحب ويرضون عنها أعظم الرضى . فهو لا ينأى عن حياتهم الواقعة قيد أصبع ، وهو حريص اشد الحرص على ان تكون قصته نافعة للناس في تهذيب أخلاقهم وتقويم سيرتهم ، واصلاح ما

يكون بينهم من صلة واخضاع السياسة ونظمها كلها لما يكفل مصالحهم ويرضي طموحهم الى حياة ناعمة في ظل العدل والمساواة والاخاء . وليس هذا كله بالشيء القليل.

وقصة شاعرنا مرآة صادقة لآلام النـــاس وآمالهـم وحياتهم كلها ما ظهر منهـا وما بطن . وأكاد أعتقد ان المحنة التي دارت عليها أحاديث الف ليلة وليلة قد تضاءلت حتى كادت تستخفي . فشهريار قد ذاق مرارة الخيانـــة فقتل زوجه وعشيقها العبد ، وأغري بعد ذلك بالفجـــور الاجمر فله كل ليلة عروس وله في كل نهار دم مسفوك هو دم هذه العروس :

ولكنه لا يكاد يلقى شهرزاد حتى يُصرف عن هــذا الاثم المنكر ، وحتى تصبح شهرزاد طبيباً لا تداويه مـــن هذا الاثم وحده بعد ان صرف عنه، وانما تداويه من حب القتل والرغبة في سفك الدماء ، وتداويه كذلك من الطغيـان والجور وتريد ان تخلقه خلقاً جديداً وتجعله ملكاً يـلائـــم ما للشعوب من مثل عليا في الحكم الصالح النقي المستقيم ؟ وقد كفّ الملك عن قتل النساء ولكنه سريع الى قتـــل الرجال حريص على المال ، يرى ان الشعب وما يملكه ملك خالص له لا ينبغي ان يجادله في ذلك مجادل أو يصده عن ذلك صاد ..

فشهرزاد فيلسوف سياسي خلقي يريد ان يكف الملك عن القتل كله ، ويريد ان يرد الملك الى العدل كله ، ويريد

ان يجعله ملكاً حكيماً لا يقرب الشر ولا يميل اليـه .. وهي تسلك الى أغراضها طريق القصص اذا كان الليل ، وطريق الوعظ والارشاد اذا كان النهار ، وطريق العلاج النفسي على مذهب المحدثين . عرفت ان في نفس الملك عقدة جاءته من هذه الخيانة الاولى فهي تسليه عنها بالقصص وعرفت ان الاسراف في ازهاق النفوس وسفك الدماء دون ان يلومه في ذلك لائم أو يعارضه فيه معارض ، قد ألقى في روعه أنه صاحب السلطان الاعظم والسطوة التي لا حد لها ، وانه جبار الارض والسماء ، يقسم أحياناً بعزته وجلاله . قد نام عنه ضميره ونسي طبيعته الانسانية فأزمعت أن توقظ له هذا الضمير وان تذكره بهذه الطبيعة وان تذكي في قلبه جذوة الندم . وأتيح لها النجح في هذا كله بعد خطوب وأهوال ، وأتيح للشاعر نفسه نجحٌ عظيم في ذلك الفصل الذي يصور فيه ضمير الملك وقد استيقظ وأخذ الندم يدنو منه ليستقر فيه وجعلت صور الماضي وما كان فيه من آثام تمر أمامه وتتحدث اليه فتغريه أحياناً وتخيفه غالباً حتى يثوب الى رشده ، ويعرف نفسه ، ويضع طبيعته الانسانية حيث وضعها الله ، ويخرج من حياته الآثمة الفانية ليستأنف حياة أخرى نقية صافية بريئة من الشر والاثم ومن البغي والطغيان .

وشاعرنا قاسٍ صارم قسوةَ العدل وصرامته فهو قد أنقذ الملك واخرجه من حياته تلك البغيضة الى حيـاة التنسـك

والزهد والشظف والعفاف . ولكنه عنف شهرزاد ففرض عليها الوحدة وفرض عليها الحرمان وفرض عليها الحزن وتركها تداوي نفسها من آلامها ويأسها بنفس الفلسفة أو بشيء يشبه الفلسفة التي داوت بها شهريار . فقد ينبغي ان نذكر ان شهرزاد لم تكن فيلسوفاً مصلحاً فحسب وانما كانت امرأة عاشقة ، وقد أتاح لها الشاعر النجح في فلسفتها واصلاحها وقضى عليها الاخفاق واليأس في حبها . فهي قد شقيت ليسعد الملك وليسعد الشعب ، وهي جديرة أن تجد من حكمتها وفلسفتها ونجحها فيما قصدت اليه عزاء عن هذا الشقاء .. وهنا يكون الخلاف بين الشاعر المصري والشاعر الفرنسي . كلا الشاعرين قد انتهى الى غاية واحدة فخلع الملك من ملكه طوعاً لا كرهاً . ولكن الشاعر الفرنسي أرضى الحبيبين فأخلص الملك لشهرزاد وأخلصت شهرزاد للملك ، أما شاعرنا نحن فقد أخلص الملك لله واخلص شهرزاد لليأس والبكاء ولم يرد ان يريحنا وان يظهرها لنا راضية قد وجدت في سعادة الملك والشعب عزاءً وأملاً ؛ وبين الشاعرين اختلاف آخر ، فالشاعر الفرنسي يكتب قصته نثراً أو قل يكتبها شعراً منثوراً ولا يكاد يعمد للشعر المنظوم الا قليلاً ، وهو من أجل ذلك لا يشق على نفسه ولا يشق على الناس ولا يشغلهم عن قصته بأوزان الشعر وقوافيه . وقد قلت انه يكتب قصته شعراً منثوراً فهو يستجيب لخياله ويمضي معه الى حيث يريد ، ويخرج معه

لا على قيود الشعر وحدها ، بل على قيود الحياة الواقعة أيضاً .

ففي قصر الملك ساحرة تصنع الاعاجيب ، ولا يعجزها حتى ان تنقل قصر الملك واهله من بغداد حيث تقع أحداث القصة الى أقصى الشرق حيث يحكم أخوه ولا يعجزها كذلك ان ترد القصر وما فيه ومن فيه الى موضعه من بغداد بعد ان يستيقظ ضمير الملك وتثوب اليه نفسه وتشمله العافية والشفاء .

تفعل هذا كله في طرفة عين دون ان تجد مشقة أو جهداً لأنها ساحرة ولأن صاحب القصة شاعر يستجيب للفن أكثر مما يستجيب لقيود الحياة الواقعة .

أما شاعرنا فقد سلك قصته كلها شعراً منذ تبدأ الى ان تنتهي ، وكلفه ذلك وكلف قراءه ونظارته ثقلاً ثقيلا .

والاستاذ عزيز أباظه يعرف رأيي في التمثيل الشعري في هذه الايام كما يعرفه غيره من القراء ، وهو يرد على رأيي هذا في مقدمة قصته بعد ان رد عليه فيما مضى رداً مطولاً مفصلاً ولكنه لم يقنعني الآن كما لم يقنعني من قبل ، وما أريد ان أعيد القول في هذا الخلاف بينه وبيني ، وانما أريد ان أقف عند شعره في هذه القصة وقفة قصيرة لا أشق فيها عليه ولا على القراء .

هل استقام الشعر للشاعر في هذه القصة كما يريد هو وكما نريد نحن ؟

أما أنا فأشك في ذلك شكاً بعيداً . فالقصة قد طالت

واختلفت أحداثها ومناظرها وألوان الحوار فيها وطبقات الناس الذين شاركوا في هذا الحوار وتلك الاحداث . ولم يستطع الشعر ان يثبت لهذا كله ثباتاً متصلاً متسقاً ويحتفظ بما ينبغي له من السمو والارتفاع ، وانما اضطر احياناً الى ان يهبط قليلاً . وانظر مثلاً الى حديث الجوقة في مطلع القصة ، ولتلاحظ بين قوسين كما يقال ان الشاعر اداز الحوار بين أفراد الجوقة والاصل ان تصور الجوقة شخصاً واحداً وان يتحدث عنها رئيسها وان تغني مجتمعة بين حين وحين .. وربما أضافت الى الغناء شيئاً من رقص توقيعي كما كان يصنع القدماء . ولنقفل القوسين كما يقال ايضاً ولننظر الى حوار الجوقة . فهذه فتاة منها تبتدىء القصة بهذه الابيات :

وهكذا يطوى سجل الحياة
في ذلك القصر المقيت الرهيب
بين سعار يتمادى لظاه وشقوة تطغى ودمع صبيب
الهول مضروبٌ علينا مطاه والقلق الاسود ملء القلوب

فانظر اليها في البيت الأول تتحدث الينا من قصر الملك نفسه في بهو من أبهائه فهي قريبة منه كأدنى ما يكون القرب لانه يحتويها ، ولكنها تشير اليه اشارتها الى الشيء البعيد فتقول في ذلك القصر لا شيء الا لان الوزن لم يستقم الا على هذا النحو من انحاء الاشارة :

وانظر الى البيت الثاني في السعار الذي يتمادى لظماه ، فالتمادي هنا أقامت وزن البيت لا أكثر ولا أقل . وانظر الى المطي في البيت الثالث والى موقعه من السامعين والقارئين في هذه الايام ، والى ما يشعر به من هذه الإستعارة التي يشبه فيها الذل بناقة لها ظهر وقد تمتطى فيمتد ظهرها ويطول كأقصى ما يكون طوله . وما جاءت هذه الكلمة الا لتقيم القافية التي التزمها الشاعر في الشطور الاولى لهذه الابيات :

الحياه .. لظماه .. مطاه

وانظر الى هذا البيت من حديث الفتاة الثانية :

الذئب ! أين الذئب من شهريار

... لا يثب الوثبة الا بدم

وما أرى اني في حاجة الى أن أنبه الى قلق هذا الدم في موضعه من القافية مع هذه الباء التي جاءت لتتم وزن البيت .

وانظر الى هذا البيت الأول من حديث الثالثة :

الموت حق : والبرايا فوان ...

لكن قتل النفس خطء كبير ..

الموت حق كل الناس يعرف ذلك وكل الناس يقوله ، فهذه العجوز لم تعلمنا شيئاً وكلمة « الفواني » هنا نابية بما في ذلك شك في آذان كثير من النظارة : وقتل النفس خطء كبير جملة قرآنية : ان قتلهم كان خطئاً

كبيراً .

فهذه العجوز تتكلم بما يتكلم به الناس جميعاً ولا تنسى إلا شيئاً واحداً وهو أنها تتحدث عن لسان شاعر لا عما استقر في نفسها كما استقر في نفوس الناس جميعاً... وأستطيع أن أمضي في مثل هذا النقد الى غير مدى ولكنه على ذلك نقد يسير . فقد اضطر الشاعر الى أن يتحدث الى الناس فتحدث اليهم بما يعلمون وبما يرددون أكثر مما تحدث اليهم بما ليس لهم به علم أو عهد . ولكن هناك شيئاً آخر لا يختص به شاعرنا وانما يشاركه فيه غيره من الذين يقصون التمثيل شعراً وهو هذا التنقل السريع الكثير الممض بين أوزان الشعر المختلفةوبين القوافي التي لا تحصى، يلتزم الشاعر وزناً من الاوزان وقافية من القوافي ثم لا يلبث ان يضيق بالوزن والقافية أو ان يضيق به الوزن والقافية ، فيثب الى بحر آخر من بحور الشعر والى قافية أخرى من القوافي . فأنت بين سرعة وبطء ، وبين صعود وهبوط ، وبين حركة وسكون ، لان أوزان الشعر تقتضي هذا كله لكل وزن منها ما يلائمه . فالتنقل بينها في الموقف الواحد في الحوار الواحد فيه انحراف عن الموسيقى ينفر منه السمع وتضيق به النفوس .

ولست أدري ما يمنع الشعراء الممثلين من ان يريحوا أنفسهم من القوافي فيضعوا عنها ثقلاً ثقيلاً قد سبقوا الى التحرر منه منذ زمن طويل . ولم لا يلتزمون في كل فصل

من فصول قصصهم نمطاً بعينه من الشعر حتى لا يزعجوا السامع بهذا الصعود والهبوط ، وبهذا العدو والسكـــون في الوقت الذي يريد ان يفرغ فيه لجمال الشعر وما يريد الشاعر ان يلقي في نفسه من المعاني .

ولم يلائم الشاعر بين الوزن والقافيـــة والموضوع الا حين أنطق المفتي برجز المتون هذا الذي تحدث به فاحش الحديث وأضحك قراءه وسامعيه .

وتفصيل النقد للقصة يطول وما أظن ان الصحف اليومية تتسع له ، ولكني أحب آخر الامر ان أهدي الى الشاعر ولزميله أصدق الشكر لتفضلهما عليّ باهدائهما القصة اليّ .

وأحب بعد هذا كله ان أثني على ما بذل شاعرنـــا الكبير من جهد ضخم خصب ان لم يتح له فيه التوفيـــق كله فقد أتيح له منه شيء كثير .

صح النوم

قصة رمزية للاستاذ يحيى حقي

لو كتبت هذه القصة قبل سنين لكانت حلماً جميلاً رائع الجمال .. ولو كتبت بعد سنين لكانت تاريخاً صادقاً دقيقاً .. ولكنها كتبت في هذه الايام ، فاحتفظت بجمال الحلم وروعة جماله وأخطأها التأويل الصادق الدقيق لهذا الحلم الرائع الخلاب .. وكذلك شأن الكتاب المجودين ، يحلمون دائماً وترتقي أحلامهم في كثير من الاحيان الى حيث تبهر وتروع ، فاذا حاولوا تأويل أحلامهم وقفت الحقائق الواقعة حائلاً بينهم وبين ما يحاولون ، وكذلك شأن الحياة الاجتماعية مع القصاص دائماً يحسن فهمها في أحلام الليل ، فاذا انجلت عنها الظلمات وغمرها نور النهار المطلق فأظهر أجزاءها مفصلة وكشف دقائقها من جميع

أقطارها ، ظهر الامد بين حقائقها الواقعة وبين الصور التي عرضتها الاحلام البعيدة الى أقصى غايات البعد . والقاص البارع شاعر يعرض علينا شعره منثوراً فيروعنا ويسحرنا، وخير له ألا يهبط من سماء الشعر الى أرض الحياة الواقعة لانه يوشك ان فعل أن يجعل شعره الرائع نظماً لا جمال فيه .

والاستاذ يحيى حقي قاص شاعر في قصصه ما في ذلك شك ، قد أقام على ذلك فيما قدم من قصصه أدلة لا يعرض لها الشك ، وهو فيما سبق من قصصه قد بدأ أحلامه في الارض ثم ارتقى بها في الجو قليلاً قليلاً حتى بلغ مواطن الشعراء فوق السحاب ، ولم أنس قصته الرائعة التي نشرت في الناس منذ أعوام طوال : « قنديل أم هاشم » .

ولكنه في قصته هذه الاخيرة بدأ حلمه في مواطن الشعراء فوق السحاب ، ثم جعل يتنزل به شيئاً فشيئاً حتى وصل الى مواطن الناس ، والحمد لله على أنه قد وصل الينا سالماً موفوراً لم يهض جناحاه ولم يدركهما هذا الاعياء الذي يمنعهما من التصعيد مرة أخرى أو مرات أخر في طبقات الجو ، ليحلم هناك أحلامه الشائقة الممتعة .

ولو قد كان الاستاذ يحيى حقي شاعراً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة لكان من الشعراء الرمزيين الذين يرتفعون بفنهم عن هذه الصراحة الصريحة الى هذه الصور المجملة التي تشرق وتبرق بما يحيط بها من الغموض والتي تخيل اليك انها

قريبة منك لقوة حظها من الصدق ... فاذا حاولـــت ان تحققها في نفسك أو تنالها بيدك نأت عنك نأياً بعيداً ، فهي نائية نائية وهي يسيرة عسيرة وهي تخلبك وتصبيك بهـذا القرب البعيد نفسه .. تمنيك حتى تملكك وتطمعك ثـم تؤئسك ، وتعلقك في هذه المنزلة الحبيبة الى النفوس بين الرجاء والقنوط .

وقد طوف كاتبنا الاديب في أقطار الارض وأقـــام في فرنسا حيناً من الدهر . وهو من الذين لا ينفقون حياتهم فيما لا يغني عقولهم وقلوبهم ولا تشغلهم الحقائق الواقعة التي تزدحم حولهم في كل يوم عن ان يفرغوا بين حين وحين لما يغذو العقول والقلوب ويمتع الطباع والاذواق مـــن روائع الادب والفن والموسيقى ، وهو من أجل ذلك يمتاز بين كتابنا بالميل الظاهر الى الرمزية في الادب .. فهو حين يكتب قريب الينا وغريب فينا على نحو ما .

وقصته هذه أصدق مظهر لقربه وغربته جميعاً ..فهي تنقسم الى قسمين مختلفين أشد الاختلاف .

تقرأ القسم الاول منها فيمتعك ما فيه من رمز ومـن دقة في التصوير ومن تعبير يسير حلو عما يريد ان يصـور لك . ولكنك تحس في الوقت نفسه شيئاً من الغربـة في هذه البيئة التي يعرضها عليك . فهذه القرية التي يصفهـا التي يعيش فيها ويحبب اليك ان تعيش فيها معه مصرية اذا نظرت الى دُورها وما يصور لك من مظاهرها من الحقـول

التي تحيط بها والقناة التي تجري منها غير بعيد .وهي مصرية لان أهلها يتكلمون لغة المصريين ، وتجري على ألستهم بين حين وحين جمل مصرية شعبية من هذه التي نألفها عند أوساط الناس في الريف .. ولكنها على ذلك بعيدة عن مصر كل البعد بهذه الحانة التي تقيم فيها ، والتي اتخذها أهل القرية مثابة لهم يستريحون فيها ويستريحون اليها اذا أوشك النهار ان ينقضي بعد ان يفرغوا من أعمالهم .

فلسنا نعرف في قرانا حانة تشبه هذه الحانة التي صورها الكاتب لنا ، ولسنا نعرف من أهل الريف المصري من يخلص لصناعة صاحب الحان ، ولا من يفرغ له من الجماعات منذ يقبل المساء حتى يتقدم الليل ... وبناء الحانة نفسه غير مألوف في قرانا ... هذا البناء الذي تقام الحانة في أسفله ويسكن صاحب الحانة وزوجه في أعلاه ، وتفرغ ربة البيت لتدبير الحانة وترتيبها اذا أسفر الصبح ثم تعود الى بيتها لتفرغ فيه الى واجباتها المنزلية .

كل هذا لا نعرفه في قرية مصرية ، ولكنه مألوف كل الالف في كثير من القرى الفرنسية والايطالية . والمترددون على الحانة أنفسهم من أهل القرية مصريون فيما يبدو من أشكالهم وصورهم ولغاتهم ،ولكن أطوارهم واذواقهم واعمالهم وما يديرون بينهم من حديث كل ذلك أجنبي قد نقل الى مصر نقلا ... نقل من فرنسا أو نقل من ايطاليا أو نقل من أي من هذه البلاد التي أقام فيها

الاستاذ يحيى حقي إقامة طويلة أو قصيرة ... وإذكر اني هممت ذات يوم ان اسعى في ان يعم الراديو قرانا المصرية ليكون أداة من أدوات الثقافة وصلة بينهم وبين ما يقع من الاحداث في القاهرة ... فتحدثت في ذلك الى بعض أهل الريف ، فسمعوا مني ثم ضحكوا لي وقال قائلهم : اين نحن من الفراغ للراديو : وانما نحن عاملون في حقولنا منذ يسفر الصبح الى ان تجنح الشمس الى الغروب ، فإذا رجعنا الى اهلنا اختطفنا عشاءنا اختطافاً ثم أوينا الى فراشنا لنستريح من كد النهار الى نوم الليل .

وهذا الفنان الذي هام بالموسيقى حتى يئس منه أبوه صاحب العربة التي يجرها فرس واحد ، وكل هؤلاء الاشخاص الذين عرضوا علينا من الرجال والنساء ليس بينهم وبين ريفنا المصري إلا اسباب واهية ضئيلة لا تكاد تستمسك . ولكني على ذلك كله ، قرأت هذا القسم من القصة مستمتعاً بقراءته أعظم الاستمتاع وأقواه وأصفاه لأنه قطعة من الادب الممتاز الرائق حقاً ... قد لا يطابق الواقع من الحياة المصرية كل المطابقة ولكنه يشير اليها من بعيد ، ويكسبه هذا شيئاً من الجمال الفني لا سبيل الى مقاومته بشرط ان يكون لقارئه حظ من المشاركة في الثقافة والادب والفن وعلم بشؤون الحياة في غير مصر .

ولست أخفي اني قرأت هذه القصة ثلاث مرات وباعدت بين هذه القراءات المختلفة متعمداً فلم ينقص اعجابي بهذا

القسم الاول منها ونعني ان يكون قد زاد .

وليس هذا القسم وصفاً للقرية واهلها فحسب ولكن فيه فوق ذلك قصصاً موثرة حقاً ، نقرأه فتخفق له قلوبنا وتهتز له نفوسنا ، ونفكر في كثير من القصص الساذج العميق الذي نقرأه لبعض الكتاب الغربيين ... فهذه الفتاة السمراء التي خلقت للحب تدفعها اليه عواطف ثائرة يظهر عليها الهدوء ، ونفس جامحة تظهر عليها الدعة ، واحساس بالبوس يعطفها على الذين يشاركونها فيه .. واذا هي تشفق عليهم ثم تفتن بهم ثم تمنحهم حياتها كلها ... وهذا القصاب الذي رق قلبه وصفت نفسه وكرم طبعه فارتفع عما ألف الناس من الاثرة والجموح في الذود عن هذه الاثرة واطمأنت نفسه الى حب الخير والرفق بالضعيف والبر بأولي القربى حتى تجاوز عن كثير مما لا يحب النـــــاس أن يتجاوزوا عنه .

كل هذا وكثير غير هذا قد صور في هذا القسم من القصة أقوى تصوير وأصدقه وأبلغه تأثيراً في النفوس .

والاستاذ يحيى حقي يعرض علينا هذه القرية بما فيهـا من الفقر والبوس والتعزي عن آلام الحياة بما في الحانة من ألوان الشراب وبما في أهلها من اختلاف الامزجـــة وتباين المذاهب وتناقض الميول ، يعرض علينا هذا كلـــه لترتسم لنا قرية بائسة شديدة الحاجة الى الاصلاح ، وليلمح لنا بأن مصلح هذه القرية ليس بعيداً عنها وانما هو فتى من

أبنائها يقيم في القاهرة منقطعاً للدرس والتحصيل وللتفكير أيضاً في شأن قريته وهو الاستاذ كما يسميه أهل القرية ..

ويعود الأستاذ الى قريته فيبدأ القسم الثاني من القصة ، ويتنزل الكاتب من مكانه ذاك البعيد في الجو الى الارض التي يعيش فيها الناس . وفي هذا القسم يعرض علينا تأويل حلمه الجميل .. فهو كان يتمنى لهؤلاء البائسين من أهل القرية ان يخلصوا من البؤس وان تزول عنهم أسبابـــه ، وان تغيض في قريتهم ينابيع الفساد ، وتنفجر فيها ينابيع الاصلاح . فيأكل الجائع ويكرم المهين ويعز الذليل وتصفو النأس وتطهر القلوب مما غشيها من الدنس والرجس ، وتبرأ الطباع من الكسل والعجز والخنوع ، وتجري في القرية حياة نقية راقية ليس فيها مكان لعاجز ولا لخامد ولا لمنحرف.. وقد غاب الكاتب عن القرية حيناً ثم عاد اليها فرأى المعجزة ورأى تأويل حلمه الجميل . ولكنه على ذلك رأى بين أهل القرية أفراداً من الساخطين والطامعين والمنافقين ، ورأى فيها كذلك فلاسفة قد مستهـــم الاحداث بعصي ساحرة فأصبحوا حكماء يقبلون الحياة كـــما هي ويرضون بحظوظهم منها ، فقد أصبح صاحب الحانة فيلسوفاً يعيش بين القبور ويستمد فلسفته من دفن الموتى وملاحظة ما يصيرون اليه من البلى ، وهو يتحدث عن الحياة والمـوت حديـــث الفلاسفة الذين تعمقوا أسرار الحياة ،واصبح القصاب ناسكاً يجد أمن القلب وهدوء النفس ورضى الضمير في الصلاة

والعفو عن ايذاء الناس له ومكرهم به واطلاق ألسنتهم فيه . ويتحدث عن الصلاة حديث المتصوفين الصادقين . وأصبح سائق العربة سؤلـة قد لزم بـاب المسجـــد يتلقى من الناس بعض ما يتصدقون به عليه راضياً بحياته هذه رضى الرهبان الذين يجدون النعمـة في تكفف الناس . والاستاذ بالطبع هو محدث هذه المعجزة ولكن المعجزات على خطرها ومهما يكن شأنها لا تخلق الناس خلقاً جديداً ولا تمحو مشكلات الحياة محواً تاماً .. واذا كان الاستاذ يحيى حقي قد عرض علينا في القسم الاول من قصته حلماً جميلاً رائعاً وصوره تصويراً دقيقاً بارعاً ، فهو قدعرض علينا في القسم الثاني منها تأويلاً لهذا الحلم وبرنامجاً مـن برامج الاصلاح .

وواضح ان قريته تلك هي مصر ، ولا غرابة اذن في أن تكون فيها الحانة والعاكفون عليها من الناس .

وواضح ان محدث المعجـــزة هو قائـد الثورة وأصحابه وأعوانه .. وواضح آخر الامر أن الكاتب يريد ان يرضينا عما تم في مصر من الاصلاح ، ويعزينا عما لا يزال فيها من آثار الضعف وبقايا الفساد لان باريس لم تبن في يوم واحد كما يقول الفرنسيون. ولكني لا أكتم الكاتب الاديب اني أوثر حلمه الرائع الجميل على برنامجه في فلسفة الاصلاح لاني أجد في حلمه أدباً رفيعاً بارعاً ولا أجد في برنامجه الا كلاماً نقرأه في كل يوم . وتعليل ذلك هين يسير ،فلم

بأن للثورة المصرية بعد أن تكون موضوعاً للقصص الادبي الرفيع لانها ما زالت قائمة لم تبلغ غايتها بعـــد .. فنحن نشهدها ولا نحلم بها ، ونحن اذا تحدثنا عنها آثرنا النصح الصادق والمشورة الخالصة وأخذنا أنفسنا بألوان من القصد قد لا يألفها الخيال .

وأنا مع ذلك حريص أشد الحرص على ان أهنيء الكاتب الاديب بقصته وأتمنى ان يذهب بعض شبابنا مذهبه في أحلامه وفي تصويره البارع لهذه الاحلام ...

وفي القصة بعـــد ذلك هنات لغوية ما ارى الا ان الكاتب قد غفل عنها حين صحح تجارب الطبع ، وما أشك في أنه سيتنبه لها في طبعاته المقبلة أن شاء الله ، وحسبه انه كتب قصته بلغة فصيحة نقية ليس فيها شيء من الابتذال .

من تاريخ الشعر العربي

هذا كتاب في تاريخ الادب العربي ، قرأته كما تعودت ان أقرأ أمثاله من الكتب التي تعرض للأدب العربي وغيره من الآداب الاخرى ، ولكني لم أقرأه بعقلي وحده كما تعودت ان أقرأ كتب التاريخ الادبي ، وانما قرأته بعقلي وقلبي وشعوري ، وبهذه العواطف الكثيرة المختلفة التي تثور في نفس الشيوخ حين يستحضرون اطرافاً من حياتهم في عصر من عصور شبابهم الاول .

عواطف هذا الحنين الى شيء لا سبيل اليه او الى أشياء لا سبيل اليها ، وعواطف هذا الحب لما لا سبيل إلى بلوغه ولا مطمع في تحقيقه ، وعواطف هذا الحزن على هذا الحرمان الذي لا سبيل الى استدراكه ولا الى اتقاء

ما يثيره في النفس من المضض واللوعة والأسى .

ثم عواطف الانس بتلك الآمال العذاب التي طالما تعلقت بها النفس واثقة مطمئنة والتي صدقت ولم تكذب وتحققت ولم تخب ، فملأت القلب غبطة وبهجة وسروراً وأعانت على العمل والجد والكد والنشاط واتاحت لكثير من المنى ان تحقق ثم انفضت ، وانقضت أيامها فأصبحت وكأنها حلم رائع رائق مضى مع تلك الليلة الجميلة التي أثارته وأثارت الرضى به ثم مضت الى غير رجعة ومضى معها حلمها ذلك السعيد .

نعم هذا كتاب يتجه الى العقل لأنه يؤرخ عصراً من عصور الشعر العربي القديم ، ولكنه بالقياس الي والى نفر من رفاقي في ذلك الجيل الذي مضى يتجه الى القلب أيضاً لأنه قطعة من شبابنا ، ولأنه يصور لوناً من ألوان تلك الحياة التي كنا نحياها في أول هذا القرن والتي لا يحياها الشباب الآن بعد ان تغيرت الحياة المصرية وذهبت معالم تلك الحياة القريبة البعيدة واصبحنا لا نستطيع ان نستحضرها الا بالذكرى ، حينما تتيح لنا الحياة الحاضرة واعمالها وأثقالها ان نخلو الى نفوسنا ونفرغ لذكرياتنا . وما أقل ما تتاح لنا الخلوة الى النفوس وما أندر ما يتاح لنا هذا الفراغ الى الذكريات .

نعم وهذا الكتاب لا يتجه الى هذه الناحية وحدها من نواحي قلوبنا وحياتنا في أول الشباب ، وانما يتجه الى

ناحية أخرى هي ناحية الحب الرفيع النقي الكريم الذي لا تشوبه نقيصة ولا تتعلق به آفة من هذه الآفات التي تتعلق بحب الانسان للانسان فتفسده أو تشيع فيه ما يحزن ويسوء . ذلك هو حب الشباب الطامح الطامع المتطلع للاستاذ الذي يرضي الطموح والطمع والتطلع ويخرج النفوس عن أطوارها ويرفعها الى حيث تستطيع نفوس الشباب ان ترقى اليه من منازل الاكبار والاعجاب والثقة والاتصال بالمثل العليا ، لا يصدها عن ذلك صاد ، ولا يردها عنه راد ، ولا يحول بينها وبينه حائل من تلك المعوقات التي تملأ حياة الشباب على اختلافها وتباين أشكالها وألوانها.

هذا كتاب في تاريخ الأدب العربي سمعناه في أول شبابنا في تلك الجامعة المصرية القديمة من أستاذنا الايطالي العظيم كارلو نالينو منذ أربعة واربعين عاماً .

في ذلك الوقت كنت طالباً في الازهر أقيم في ذلك الحي الذي وصفته في كتاب الايام والذي زرته منذ حين لأحدث به عهداً ولأظهر عليه صديقاً لي من أساتذة مدريد ترجم كتاب الايام وشاقه هذا الحي فاراد ان يراه ؛ فلم نكد نلم حين ارتفع الضحى من ذلك اليوم حتى رأيت هذين البيتين يترددان في نفسي :

يا دار مية بالعلياء فالسند

أقوت وطال عليها سالف الامد

وقفت عليهـــا أصيلاً كي أسائلها

عيّت جرابا وما بالربع من أحد

نعم أشهد لقد أقوت ولقد طال عليها سالف الأمـــد ولقد سألتها فلم تجب ولم أجد فيها أحداً يستطيع أن يجيب . وما أذهب في هذا مذهب المجاز وانما هو مذهب الحق الذي يستطيع الناس جميعاً ان يروه اذا ذهبوا الـى هذا الحي ورأوا فيه تلك الاطلال التي عبث بها الزمـــان وأهملها الانسان وخلى بينها وبين البلى والخراب .

كنت أعيش في ذلك الحي أخرج منه مصبحاً الى الازهر فأسمع فيه دروس الادب من الاستاذ العظيم السيد علي المرصفي ، واخرج منه مع المساء الى الجامعة المصرية فأسمع فيها دروس الادب من الاستاذ العظيم كارلو نالينو وكانت دروس الادب تلك التي كنت أسمعها في الازهر حين يرتفع الضحى تردني الى حياة الطلاب القدماء الذين كانوا يختلفون الى العلماء في مساجد البصرة والكوفة وبغداد .

وكانت دروس الادب التي كنت أسمعها في الجامعة حين يقبل المساء تدفعني الى حيـاة الطلاب الذين يختلفون الى الجامعات في روما وباريس وغيرهما من المدن الجامعية الاوروبية الكبرى ، فكنت أعيش مع الماضي البعيد وجه النهار ، واعيش مع الحاضر الاوروبي الحديث آخر النهار ، وتشغلني خطوب الحياة المصرية الراكدة الممضة بين ذينك الوقتين ، وكان الرفاق يجدون من هذه الحياة مثل مـا كنت

أجد . ويسعدون حين يعودون الى الماضي ويسعدون حين يدفعون الى الحياة الغربيـة التي كانوا يتطلعون اليها . ويشقون بين ذلك بالركود والجمود .

ويجب ان يتصور القراء من الشباب المعاصرين حياة أولئك الشيوخ الشباب من طلاب الازهر في أول القرن . حياتهـم المادية وحياتهم العقلية أيضاً . وان يقدروا ما كان يملأ قلـوب بعضهم من الرضى والغبطـة ، وهذا الغرور الحلو البريء الذي كان يمازج نفوسهم تلك الغضة المتواضعة حين كانوا يدفعون من حي الازهر الى حي قصر النيل ، وحين كانوا يتحلقون مصبحين حول أعمدة الازهر متربعين على الحصر البالية ، ثم يجلسون اذا كان المساء الى اساتذتهم في غرفات الجامعة لا يتربعون على الحصر وانما يجلسون على الكراسي الى تلك الموائد الصغار . وحين كانوا يسمعون من شيوخهم وجه النهار أحاديث الفقه والنحو كما كانت تلقى في تلك الأوقات وبأيديهم ملازمهم تلك العتيقة يتبعون فيها ما يقرأ الشيوخ عليهم من الكتب ويسمعون لما يلقي عليهم الشيوخ من التأويل والتعليل والتحليل . فيفهمون قليلاً ويعجزون عن فهم كثير مما كانوا يسمعون . فاذا كان المساء جلسوا الى أساتذتهم أولئك من الاوروبيين فسمعوا منهم أحاديث لا عهد لهم بمثلها تلقى عليهم باللغة العربية الفصحى مع شيء من التواء الالسنة بهذه اللغة ، فتقـع تلك الاحاديث من آذانهم موقع الغرابة ومن قلوبهم موقع الماء مـن ذي

الغلة الصادي .

فاذا خلوا الى أنفسهم بعد ذلك وازنوا بين ما يسمعون وما يرون أول النهار وما يسمعون وما يرون آخر النهار . فأثارت هذه الموازنة في نفوسهم عواطف واهواء وميولاً أقل ما توصف به انها كانت تصور لهم هذه الآماد البعيدة الى أقصى غايات البعد بين قديم سقيم سئموه وضاقوا بـه ، وبين جديد أحبوه وتهالكوا عليه .

ووازنوا كذلك بين شيوخهم أولئك الذين كانوا لا يعربون الا حين يقرأون في الكتب ، فاذا تكلموا غرقوا واغرقوا طلابهم في اللغة العامية الى أذقانهم أو الى آذانهم ، وبين أساتذتهم أولئك الاوروبيين الذين كانوا يعربون حين يقرأون وحين يفسرون وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث . وكانوا يسألون أنفسهـم كيف أتيح لهؤلاء الاوروبيين ما أتيح لهم من العلم بأسرار اللغة العربية ودقائق آدابها وكيف لم يتح هذا النوع من العلم لشيوخهم أولئك الاجلاء .

وكانت هذه الموازنات تثير في قلوبهم فنوناً من التمرد وتدفع نفوسهم الى ضروب من الثورة والجموح . وكان هذا كله يعرضهم لكثير من الشر ، وحسبك انهم كانوا مقسمين بين الازهر القديم والجامعة الجديدة .

وكان هذا يجعل حياتهم قلقاً كلها ، وأي شيء أجدى على النفوس الشابة من هذا القلق الخصب الـــذي هو

الاساس المتين لكل تطور منتج في الحيـــاة العقلية والمادية جميعاً ؟ ومـــا أظن حيـــاة الشباب المطربشين الذين كانوا يختلفون الى الجامعة الا مشبهة من كثير من الوجوه لحياة زملائهم المعممين .

من أجل هذا كله يستطيع القارىء المعاصر ان يقـدر ما كان للجامعة المصرية القديمة من أثر بعيد فيما طرأ من تغير خصب على حياة ذلك الجيل من أجيال الشبـــاب.

أما أنا فقد سجلت غير مرة وأسجل الآن اني مديـن بحياتي العقلية كلها لهذين الاستاذين العظيمين : سيـــد علي المرصفي الذي كنت أسمع دروسه وجه النهار ، وكارلو نالينو الذي كنت أسمع دروسه آخر النهار .

أحدهما علمني كيف أقرأ النص العربي القديـم وكيف أفهمه وكيف أتمثله في نفسي وكيف أحاول محاكاته ، وعلمني أحدهما الاخر كيف استنبط الحقـــائق من ذلك النص وكيف ألائم بينها وكيف أصوغها آخر الامر علماً يقرأه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئاً ذا بال .

وكل ما أتيـح لي بعد هذين الاستاذين العظيمـــين من الدرس والتحصيل في مصر وفي خارج مصر فهـو قد أقيم على هذا الاساس الذي تلقيته منهما في ذلك الطور الاول من أطوار الشباب . بفضلهما لم أحس الغربة حين أمعنت في قراءة كتب الادب القديم ، وحين اختلفت الى الاساتذة الاوروبيين في جامعة باريس ، وحين أمعنت في قراءة كتب

الادب الحديث .

فلا غرابة اذن في ان تكون حياتي كلها بـــراً بهذين الاستاذين اكباراً لهما واعترافاً بفضلهما وشكراً لما أهديا الي من معروف وما أسديا إليّ من جميل . وشهد الله ما قرأت في كتاب ولا حديث ولا حاولت كتابة في الادب الا ذكرت أحدهما أو كليهما وارسلت اليهما من أعماق نفسي تحية الحب والاعجاب والشكر والوفاء .

والذين يقرأون هذا الكتاب الذي أقدمه اليوم الــــى القراء المتأدبين يحسن بهم ان يقرأوا ما كان يدرس لشبابنا في ذلك الوقت من ادب في معاهدنا ومدارسنا على اختلافها ليقدروا الفرق الهائل بين ما كان الاستاذ نالينو يلقي علينا في الجامعة وبين ما كان يلقى علينا في المعاهد والمــدارس واثر هذا الفرق في تطور حياتنا العقلية وفي تطور تصورنا للأدب العربي قراءة وفهماً وانتاجاً .

فلاول مرة درس لنا الادب العربي درساً منظماً والقي في روعنا ان الشعر العربي لا يختلف باختلاف فنونه التقليدية مدحاً ورثاء ووصفاً وهجاء ونسيباً وتشبيباً فحسب . وانما يختلف باختلاف موضوعاته التي قيل فيها وظروفه التي أحاطت به حين قيل والمؤثرات المختلفة التي أثرت في قائليه وفي سامعيه أيضاً . ولاول مرة القي في روعنا ما كـــان للسياسة من آثار دقيقة عميقة في نشأة فنون مختلفة مـــن الشعر العربي في العصر الاسلامي أيام الخلفــاء الراشدين وأيام بني أمية .

ولأول مرة ألقي في روعنا الفرق بين الشعر التقليدي وبين الشعر الذي استحدثته السياسة الاسلامية في العراق ، وبين النسيب التقليدي القديم والغزل الذي استحدثه النظام الاجتماعي الاسلامي في الحجاز ، وبين الغزل المحقق الذي نشأ في حواضر الحجاز . والغزل العذري النقي الذي نشأ في البادية العربية في الحجاز ونجد والعراق .

ولاول مرة عرفنا ان من الممكن ان ندرس الادب العربي على أساس من الموازنة بينه وبين الآداب القديمة الكبرى ، وان الحياة الانسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف ظروفها ومهما يتنوع ما اختلف عليها من الخطوب .

ولاول مرة علمنا كيف نحقق هذه الموازنة بين أدبنا القديم والآداب القديمة الاخرى ملائمين بين ما ينبغي ان نلائم بينه ومخالفين بين ما ينبغي ان نخالف بينه من الظواهر المتباينة التي يذخر بهما التاريخ والتي تؤثر في حياة الناس .

ثم لاول مرة تعلمنا ان الادب مرآة لحياة العصر الذي ينتج فيه لأنه اما ان يكون صدى من أصدائها ، واما ان يكون دافعاً من دوافعها فهو متصل بها على كل حال وهو مصور لها على كل حال ، ولا سبيل الى درسه وفقهه الا اذا درست الحياة التي سبقته فأثرت في انشائه والتي عاصرته فتأثرت به وأثرت فيه ،والتي جاءت في اثر عصره فتلقت نتائجه وتأثرت بها . فللأدب مظهران اذن ، مظهره

الفردي لانه لا يستطيع ان يبرأ من الصلة بينه وبين الاديب الذي انتجه ، ومظهره الاجتماعي لان هذا الاديب نفسه ليس الا فرداً من جماعة ، فحياته لا تتصور ولا تفهم ولا تحقق الا على انه متأثر بالجماعة التي يعيش فيها ، هو في نفسه ظاهرة اجتماعية فلا يمكن ان يكون أدبه الا ظاهرة اجتماعية .

كل هذا سمعناه وفهمناه في تلك الدروس التي كان الاستاذ نالينو يلقيها علينا حين كان هذا القرن في العاشرة من عمره . وكل هذا كان جديداً بالقياس الينا في تلك الايام ، وبالقياس الى الازهريين منا بنوع خاص ، فمن الطبيعي ان يحدث في نفوسنا أعمق الآثار وأبعدها مدى وان يطبع حياتنا العقلية بطابع النقد الحديث .

وليس من شك في ان حقائق التاريخ الادبي العربي قد تغيرت منذ ذلك الوقت في كثير من انحائها وفي كثير من تفصيلها كذلك .

وليس من شك أيضاً في ان العلماء المصريين كان لهم أعظم الاثر فيما حدث من هذا التغير ، فهم قد تعمقوا دراسة الادب أثناء هذه الاربعين سنة الاخيرة فاستكشفوا أشياء لم تكن معروفة في حياة الادب العربي اثناء القرون الاولى للهجرة وهم قد نشروا آثاراً قديمة لم تكن قد خضعت لبحث العلماء فيسروا للباحثين درسها وفقهها واستكشاف ما كانت تخفي من الحقائق ؛ وهم بعد ذلك

قد كسبوا بالدراسات الادبية المصرية منزلة لها قيمتهـــا الخطرة في الدراسات العالمية لادبنا العربي القديم .

كل هذا شيء ليس فيه شك ودلائله تلمس بالايدي في هذه الكتب القديمة التي نشرت وفي هذه الكتب الجديدة التي ألفت وفي الدروس الادبية التي تلقـــى في جامعاتنا ومعاهدنا المختلفة وفي انتاجنا الادبي الخالص الذي شغلت بدرسه وعنيت بفقهه ونقله الى اللغات المختلفة البيئات العلمية في غربي أوروبا وشرقها وفي شمال أمريكا وجنوبها . ولكن هناك شيئاً ليس أقل من هذا ثبوتاً واستقراراً ووضوحـاً وهو ان دروس الاستاذ نالينو في الجامعة المصرية القديمة كانت هي الموجه الاول لنهضتها العلمية في دراسة الادب مباشرة أو بالواسطة . وجهت تلاميذ الاستاذ الذين سمعوا منه فبحثوا وتعمقوا وأحسنوا الفقه ثم وجهت أجيالاً من الشباب سمعوا على هؤلاء الطلاب حـــين أصبحوا أساتذة وقرأوا لهم حين أصبحوا مؤلفين .

وكذلك مضى المذهب الحديث في تاريخ الادب بـين الاجيال المتعاقبة من الدارسين والباحثين . ومـــا أعرف للاستاذ نالينو نظيراً في التوجيه العميق للنهضة المصريـة الا زميله الاستاذ سانتلانا الذي أحدث في مصر نهضة خطيرة في دراسة الفلسفة الاسلامية وفي فهم الصلة بين هذه الفلسفة وبين الفلسفة اليونانية القديمة . وقد أتيح للاستاذ نالينو مـن البر به بعد وفاته ما أرجو ان يتاح لزميله ، والفضل فـي

نشر هذا الكتاب يرجع قبل كل شيء وقبل كل انسان إلى ابنته الكريمة الآنسة ماريا نالينو ، فهي التي حفظت آثار والدها العظيم ، وجدّت في اعدادها للنشر وظفرت بالمعونة على نشر هذه الآثار في ايطاليا ، فأهدت للعلم والعلماء كنوزاً لا سبيل إلى تقويمها ولا إلى استقصاء آثارها الخطيرة فيما أنتج الباحثون من الشرقيين والغربيين وما سينتجون من الدراسات الادبية العربية على اختلاف موضوعاتها .

وأعدت هذه الدروس للنشر كما تركها الأستاذ ، لم تغير فيها شيئاً وإنما وفت لأبيها أصدق الوفاء واجدره بالاكبار والاجلال . ووجدت من دار المعارف للطبع والنشر معونة صادقة على إذاعة هذا الكتاب . فكان للدار وللاستاذة ماريا نالينو فضل أيّ فضل ، لانهما بنشر هذا الكتاب قد برتا بأستاذ جدير بالبر وهيأتا لشباب المصريين والشرقيين ان يعرفوا أصول نهضتنا الأدبية المعاصرة .

فلهما على جهدهما الخالص لخدمة العلم الشكر أجمل ما يكون الشكر والثناء أصدق ما يكون الثناء .

أما أنا فلم امل هذه الصفحات إلا لأسجل بري بأستاذي العظيم وشكري لابنته الكريمة ولدار المعارف على ما أتاحتا لي من ان أرى لوناً من الوان حياتي في طور من أطوار الشباب .

حديث الجياع

ما أكثر ما تحدثنا عن الفن والحياة ، وعن الحياة والفن ، وعن أيهما يكون وسيلة إلى صاحبه دون أن ننتهي من هذه الأحاديث التي لا تنقضي إلى نتيجة مرضية أو غير مرضية ، وإنما هو كلام يملأ أنهار الصحف ثم يمضي مع الريح لا يصل إلى شيء ولا يبقى منه شيء .

نُبدئ فيه ونعيد ، كأن الفن عندنا قد ملأ علينا الأرض كلها ، وأخذنا من جميع أقطارنا حتى كاد يغرقنا ، فنحن نتخفف منه بالحديث عنه ، أو كأن الفن عندنا قد التوى عن طريقه فضلّ وأضلّ ، فنحن نلح في الحديث عنه ، والحديث اليه ، لنرده إلى قصد السبيل ، ونوجهه

إلى وجهته التي لا ينبغي أن يجور عنها .

والناس جميعاً يذكرون ذلك الفيلسوف اليوناني القديم الذي تتحدث الأقاصيص عنه لأنه كان يمشي في ضوء النهار وفي يده مصباح يبحث به عن الرجل . ويوشك كتّابنا الذين يبدأون في أمر الفن ويعيدون أن يكون كل منهم ذلك الفيلسوف ذا المصباح إلا أنهم لا يبحثون عن الرجل وانما يبحثون عن الفن ، أين هو ؟.. وأن يمكن أن يكون ؟.. وان كان بحث ذلك الفيلسوف عن الرجل ما زال خالداً وما زلنا محتاجين إلى ان نعرف الرجل الجديد بهذا الاسم أين هو ؟.. أو اين يمكن أن يكون ؟.. ولكن هذه قصة أخرى .

فلنمض في حديث كتّابنا هؤلاء ، وحديثهم الذي لا ينقضي عن الفن ، أين هو الفن الذي يتحدثون عنه ؟.. وما لهم حين يتحدثون عنه لا يسمّون أصحابه ، ولا يصفونه بصفاته التي تميّزه وتدل على أنه فن للحياة ، قد سخر لها تسخيراً ، فأصلحها وقوّاها ، ورقّاها ، وجعلها جديرة أن تحب ، وان تحتمل على ما فيها من أثقال . أو تدل على انه فن قد سخرت الحياة له فصورته في صورة النضرة الرائعة وجعلته فناً فذاً تهوي اليه الافئدة ، ويتنافس فيه المتنافسون ، وتغبطنا من أجله الأمم والشعوب .

أما أنا فأعتذر إلى هؤلاء الكتّاب من حديث عسى الا

يستسيغوه ولا يطمئنوا اليه ... فقد يخيل الي انه لو قد كان لنا فن لشغلنا به ، ولأمعنا فيه ، ولذهبنا في نقده المذاهب ، ولأراحنا هذا كله من هذا الدوار الذي يوشك ان ينتهي بنا الى الاعياء لكثرة ما ندور حول الفن في غير طائل دون أن نقف عنده أو نقول فيه شيئاً ذا بال . وما أرى الا ان أحاديثنا هذه الطوال تشبه حديث الجياع الذين يحلمون بما يرد عنهم لذع الجوع وحديث الظمأى الذين يحلمون بما يكسر عنهم حر الظمأ ، فهم يرسلون نفوسهم في هذه الاحلام الحلوة الرائقة ، وهم يتحدثون بما تزينه لهم هذه الاحلام ، يلهون بذلك أنفسهم عن الجوع ، وعسى ان تغرهم أحاديثهم فتخيل اليهم انهم قد بلغوا ما يشتهون ، واي شيء أدل على ذلك من ان هؤلاء الكتاب عندما يتحدثون عن الفن الذي يكرهونه انما يذكرون فن القدماء ، ويعيبون انه كان بعضه موجهاً الى الملوك والاقطاعيين يغرهم ويلهيهم ، منصرفاً عن جماعات الشعب الكادحة لا يحفل بها ، ولا يحسب لها حساباً ، وقد يذكرون فن الشيوخ الذين لم يدركوا الحياة الجديدة ، أو لم تدركهم الحياة الجديدة ، فساروا سيرة القدماء ، وانتجوا مثل ما كان القدماء ينتجون ، فاذا تحدثوا عن الفن الذي يحبون ، ذكروا فن جماعات من الاجانب على اختلاف مواطنهم ، يرون انهم صوروا الحياة فأحسنوا تصويرها ، وكان فنهم من أجل ذلك نافعاً لهم وللناس ،

فاذا أرادوا ان يتحدثوا عن الفن المصري الذي يحبونه لم يقولوا شيئاً لأنهم لا يجدون ما يقولون أو لأنهم لا يجدون الفن الذي يستطيعون ان يقولوا فيه ، فقساموا حيث هم يتمنون ويحلمون وينتظرون ان يهبط عليهم هذا الفن المصري الجديد من السماء أو ينجم لهم من الارض ، أو تأتيهم به معجزة من المعجزات وأعجوبة من الاعاجيب ؛ وهم كذلك يتحدثون عما كان ، ويحرصون على الا يعود ، ويتحدثون عما هو كائن في بلاد الغرب ويتمنون ان يروه في بلادهم في يوم من الايام . والتمس ان شئت أثراً فنياً مصرياً يعجب كتابنا هؤلاء ، ثم التمس نقدهم لهذا الاثر وآراءهم فيه وتوجيههم للذين يريدون أن ينتجوا في الفن فلن تظفر بشيء ، ورحم الله ابا العلاء حين ذكر شعر ابن هانئ الاندلسي فذكر الرحى التي تطحن قروناً لانها تجعجع ولا تنتج شيئاً .

اليس خيراً من كل هذه الاحاديث التي قد بلغت طور الاملال ان نلتمس الاسباب التي قصرت بشبابنا عن أن يبلغوا من الفن ما يريدون ، وان نجد في استقصاء هذه الاسباب ، حتى إذا عرفناها واحصيناها أو أحصينا أكثرها ؛ بذلنا ما نملك من الجهد لأصلاح ما يحتاج إلى الاصلاح ، وتغيير ما يحتاج إلى التغيير ؛ وتهيئة الشباب لأن يتلقوا الحياة محسّين لها ، شاعرين بها ، بالغين بحسّهم وشعورهم وفهمهم أعماقها واعماق ما يكون فيها من الاحداث

لتتأثر بها قلوبهم وعقولهم وأذواقهم ، وليحاولوا بعد ذلك تصوير ما يجدون من هذا التصوير على ان يكونوا قد هيئوا لاحسان هذا التصوير ، ومكنوا من ان يبلغوا به نفوس غيرهم من الناس .

فقد نستطيع ان نمضي إلى غير غاية في الحديث عن الفن للحياة والحياة للفن ، وعن صعود الشعب إلى الفن في سمائه أو هبوط الفن إلى الشعب في أرضه ، وعن الفن للفن ، والفن للناس ، فكل هذا كلام قد قيل من قبل ، وقد فرغ الناس منه أو كادوا يفرغون ، وكان الذين يقولونه ، وما زال الذين يخوضون فيه ، لا يكتفون بالكلام ، وانما يضيفون إلى الكلام عملاً فينتجون أو ينتج غيرهم آثاراً فنية تلائم المذاهب القديمة أو المذاهب الجديدة. ويكثر النقد لاولئك وهؤلاء : ويقرأ الناس كلام النقاد ويسعون إلى هذه الآثار الفنية فينظرون ثم يرضون أو يسخطون . وتتصل الحياة الخصبة بين جماعات الشعب وبين أصحاب الفن ، وبين اولئك وهؤلاء وبين الناقدين ولا يصبح حديث الفن أشبه شيء بحديث الحالمين أو بهذيان المحمومين . وليرح الكتّاب أنفسهم ، فهم مهما يفعلوا ومهما يكثروا الحديث ويطيلوا فيه ، لن يستطيعوا تغيير طبيعة الفن .

لن يجعلوه للحياة ، ولن يجعلوا الحياة له ، لأنهم يريدون هذا أو ذاك ، وانما الحياة نفسها هي التي ستفرض على الفن

ان يكون لها ، والفن نفسه هو الذي سيفرض على الحياة ان تكون له عند بعض الناس ، وان تكون به عند أكثر الناس حين تقوى الحياة وترقى ، ويهيئ الشباب للتأثر بها، والتعبير عنها . ستفرض نفسها على فريق منهم فينتجون فناً رفيعاً . وسيفرض هذا الفن الرفيع على فريق آخر منهم فيحاولون المحاكاة ويتفوق منهم من يتاح له التفوق وسيشيع الشعور بروعة الفن فيتأثر به كثير من الناس ، ويتنافسون في السعي اليه والظفر به ، والحرص على اقتناء آثاره وعلى معاشرة هـذه الآثار ولقائها بين حين وحين. وستوجد الثروة الفنية ، وسيضطر النقاد إلى أن ينقدوا ، لأنهم سيجدون ما يقولون .

وقد عرض صديقي الزيات مثلاً من شعر شاعر قديم عاش مع الشعب في عصره ذاك البعيد ، فصور الواناً من حياته ، وما أكثر ما عاش الشعراء القدماء مع الشعب ، فصوروا من حياته ألواناً . والمهم هو ان تكون حياة الشعب من القوة والخصب والنشاط والتنوع بحيث تستطيع ان تفرض نفسها على الشعراء والكتاب والمثالين والمصورين والموسيقيين دون أن نرسم لاصحاب الفن طريقهم إلى الشعب ليهبطوا اليه ، أو نرسم للشعب طريقه إلى أصحاب الفن ليصعد اليهم .

كل هذا لغو من اللغو ، وكلام لا غناء فيه . وإنما الجوهر كل الجوهر ان نصلح حياة الشعب ، ونصلح تثقيف

الشباب وتعليمهم ، ونمكن الشعب من ان يرقى إلى الفن شيئاً ، ومن ان يُكره الفن على ان يهبط اليه شيئاً ،ومن ان يتحقق بينهما هذا اللقاء الخصب الذي ينتج ما يتاح للامم الراقية حقاً من هذه الحياة الفنية التي لا تقف عند الحديث المعاد .

ونحن آخذون في اصلاح حياة الشعب ما في ذلك شك . فأما اننا آخذون في تهيئة الشباب ليكونوا قادرين حقاً على ان يحملوا امانة الفن الرفيع وينهضوا بها وبأعبائها الثقال فهذا هو الشيء الذي أشك فيه الشك كله .

ولكن الحديث في هذا يطول ، وما ينبغي ان أوثر نفسي به ، وانما ينبغي ان يخوض فيه الكتاب لعلهم ان يستقصوا ما في تعليمنا وثقافتنا من خصال تباعد بين الشباب وبين ما نتمنى لهم وللفن من هذه الحياة الخصبة الرائعة التي نحلم بها ولا نسمو اليها .

وما زال الغيث منهمرا

وهو غيث على كل حال لانه يصرف القراء عن حياتهم هذه العقلية الراكدة الى لون من النشاط الذهني لا يتصل بالطعام ولا بالشراب ، ولا بحاجات رمضان ولا بحاجات العيد الذي يظلهم والذي :أرجو أن يكون سعيداً ان شاء الله . ولو لم يكن لتفكيري في ترجمة هذا الشاعر العظيم أثر الا هذا الغيث المنهمر الذي لا يريد ان يكف ولا ان ينقطع من جهة والا تفكير الدولة في ان تعنى بالثقافة عناية خاصة وتنشيء الاداة التي تجعل العناية حقيقة واقعة وترصد المال الذي يتيح لنتائج هذه العناية ان تصل الى الناس في دورهم كما يصل الماء الذي يشربونه والهواء الذي يتنفسونه والنور الذي يستضيئون به حين يظلم الليل .

لو لم يكن لتفكيري في ترجمة هذا الشاعـر العظيم الا هذا الاثر لكنت جديراً ان ارضى به كل الرضى وان اغتبط به كل الاغتباط .

واني لسعيد حين أفكر في ان رئيس الحكومة وزميله وزير التربية والتعليم قد صح عزمهما على ان يجعلا الثقافة العليا كما حاولت ان أجعل التعليم منذ أعوام حقاً شائعاً ميسراً لكل من يسمو اليها كالماء والهواء ، وان كان لفظ الماء والهواء يغيظ بعض الاصدقاء .

والمهم ان الغيث ما زال ينهمر ، واني منذ عدت من سوريا ولبنان لا أكاد أقرأ الصحف في يوم من الايام دون أن أجد في هذه الصحيفة أو تلك حديثاً عن ترجمة شكسبير .

وأنا أعلم ان البلاد العربية الاخرى تتحدث عن هذه الترجمة وان بعض الادباء من أهـل هذه البلاد يودون لو يشاركون فيها ، ويعرضون عليّ جهدهم في شيء من الاسماح الذي أشكره أجمل الشكر .

ولكننا في مصر مختصمون والحمد لله . على ان هذه الخصومة ليست مقصورة عليّ وحدي وعلى الذين يعارضونني في هذه الترجمة ، ولكن أدباء آخرين قد تفضلوا بمشاركتي في الدفاع عن ترجمة شكسبير وأبلوا في ذلك فأحسنوا البلاء . بعضهم يشارك مشاركة صامتة ولكنها خصبة فيقبل على الترجمة ويتجرد لها غير محجم عنها ولا متردد فيها ،

وبعضهم الآخر يشارك مشاركة ناطقة فيرد على المعارضين ويجاذبهم أطراف الجدل .

وكذلك شغل فريق من كتابنا وقرائنا بأمر هذا الشاعر العظيم . وكانت هذه الخصومة تمهيداً حسنا يهيىء القراء لاستقبال آثاره الرائعة ممن تعرض عليهم ان شاء الله بعد شهور .

وكم أتمنى ان يُتاح لي شيء من مال قليل أو كثير لأدفع شبابنا وشيوخنا الذين يحسنون اللغات الاجنبية واللغة العربية الى ترجمة كتاب وشعراء وفلاسفة غير شكسبير .. ولأدفع كتابنا وقراءنا الى الخصومة العنيفة أو اللينة في هؤلاء الكتاب والشعراء والفلاسفة كما يختصمون الآن في شكسبير .

ومن يدري لعل مصر ما زال فيها قوم يعنون بالأدب والثقافة والفلسفة ولا يكرهون ان ينزلوا لترجمتها عن شيء من فضول أموالهم يبتغون تزكية نفوسهم وتطهيرها ، ويبتغون بذلك أيضاً رضى الناس عنهم وثناء الناس عليهم ، ويبتغون بذلك آخر الأمر شيئاً من الاحسان الى هذا الشعب الذي أحسن اليهم فيسر لهم من الحياة الراضية والثراء العريض ما يمكنهم من ان ينشروا الخير من حولهم . وأي خير أنفع للشعب من هذا الذي يذكي العقول ويحيي القلوب ويهذب الاخلاق ويدفع الى النشاط الثقافي الخصب .

وما أكتب هذا الحديث لاطلب الى أغنيائنا ان يتبرعوا

بشيء من فضول أموالهم لتنشيط الحياة العقلية وتقويتها فلست أحب هذا النوع من المطالبة ولا من الالحاح . وانما أكتبه لأشكر الذين خاصموني في ترجمة شكسبير وللذين أيدوني أيضاً خصومتهم وتأييدهم لانهما مظهر من مظاهر النشاط الثقافي الذي كنت أفتقده فلا أجده. وكم أحب ان تتصل هذه الخصومة وان يثار أمثالها .

ثم أكتب بعد ذلك لأرد على بعض الذين يخاصمونني في هذه الترجمة ، فقد تلقيت آراء جديدة لم أرد عليها فيما سبق من الحديث ..

قال قائلون لمَ نترجم كل ما ترك شكسبير من الآثار ؟ ولا نختار منها أجودها وارقاها واعظمها امتاعاً وادناها الى عقولنا وأذواقنا ؟ ونترك ما دون ذلك لننفق الجهد والمال في ترجمة آثار فريق غير شكسبير من أعلام الثقافة والادب والفلسفة ؟ واحب ان أقول لهؤلاء السادة اني أولاً شديد التأثر والاعجاب بقول النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه ما معناه : ان الله يحب من العبد اذا أخذ في عمل ان يحسنه . وما أشك في أن آثار الكتاب والشعراء النابهين شيء يتم في نفسه بعد ان يفرغ أصحابه من الانتاج وبعد ان يستأثر بهم الموت . وترجمة بعض هذه الاثار دون بعضها الآخر نقص لا يليق بالقادرين على التمام . وما أحب ان أستبيح لنفسي ولا لطائفة من أمثالي القضاء بأن بعض آثار هذا الكاتب أو ذاك أجدر بالعناية من

بعضها الآخر ، ولا بأن يقال : بعض هذه الآثار أرقى وأقوم من بعضها الآخر . ففي ذلك شيء من الجراءة لا أستحبه ، وفي ذلك شيء من الاعتداء على الكتاب والشعراء لا أسيغه ، وفي ذلك آخر الأمر اعتداء على أذواق القراء : فالاختيار قطعة من الذوق وهو بعض العقل بالقياس الى الذين يختارون . وما أحب ولا أستبيح ان أجعل ذوقي وعقلي مقياساً لأذواق الناس وعقولهم ولا أن أفرض عليهم ما يؤثره ذوقي وعقلي من الاختيار . وأنا أستطيع ان أختار لنفسي ان شئت ، ولكني أرى من الغرور أن أفرض اختياري على غيري .

وأقول بعد هذا كله اننا قد امتحنا بالاختيار كما امتحنت أمم أخرى به منذ أقدم العصور ، فأبو تمام يختار حماسته والبحتري حماسته ، والذين يختارون من جيد الشعر والنثر كثيرون في اللغة العربية وفي غيرها . وليس بهذا الاختيار بأس وان كنت لا أحبه ، ولكن الاختيار لا يستقيم الا اذا أتيح للقراء ان يتجاوزوه الى قراءة الاصول التي يكون منها الاختيار .

وقد اختار قدماؤنا ولكنهم لم يلغوا الدواوين التي اختاروا منها ولا كتب النثر التي اختاروا منها أيضاً . وما زال الناس في بلاد الغرب يختارون من روائع الادب ولكن اختيارهم يصورهم هم ولا يلغي الاصول التي اختاروا منها ليستطيع كل قارىء ان يرجع اليها وان يختار منها

ان شاء ؟

وقال قائلون فيمَ ترجمة آثار شكسبير كلها من جديد ، وقد ترجم منها شيء كثير ، فلم لا يترجم منها ما لم يسبق نقله الى اللغة العربية ؟

وأحب ان أقول لهؤلاء السادة ان آثار الكتاب والشعراء النابهين تترجم في البلاد الراقية مرات مختلفة كثيرة جداً . فليس علينا ولا على شكسبير بأس ان نترجمه مرتين أو مرات . ولو ذهبت أحصي عدد التراجم التي نقلت شكسبير الى اللغات الاوروبية الكبرى وحدها لأنفقت في ذلك جهداً ضخماً ووقتاً طويلاً . والتراجم تتفاوت فيما بينها دقة وتقصيراً ، وجودة ورداءة ، وفيها ما يرتقي لفظه وأسلوبه واداؤه ، وفيها ما يضطرب لفظه ويفسد أسلوبه ويسمج أداؤه .

ومن الناس من ترجموا شكسبير عن الفرنسية لانهم لم يكونوا يحسنون اللغة الانجليزية . وما أظن أن مثل هذا النوع من الترجمة يمكن الرضى به أو الاطمئنان اليه . وقد آن لنا اذا أخذنا في عمل ان نحسنه ، واذا أخذنا في ترجمة ان ننقل عن اللغة التي كتب فيها الأديب أو العالم أو الفيلسوف .

فأما الترجمة عن لغات أخرى غير لغة المؤلفين فقد لجأ اليها قدماؤنا حين نقلوا الفلسفة اليونانية عن السريانية ، وحين نقلوا بعض الآثار الهندية عن الفارسية ، ولجأنا نحن

اليها في العصر الحديث ، وقد آن لنا فيما أعتقد ان نعدل عن هذا النقص ونبرأ من هذا القصور .

ومن أجل هذا دعوت وما زلت أدعو ملحاً الى تعلم اللغات الاوروبية الكبرى كلها في مدارسنا الثانوية وفي جامعاتنا حتى لا ننقل آثار الكتاب الالمانيين مثلاً أو الروسيين عن الترجمة الفرنسية أو الانجليزية لهؤلاء الكتاب .

وقال قائلون ما للجامعة العربية ولترجمة شكسبير ؟أليس الحق على هذه الجامعة ان تترجم للعرب ما يمس عروبتهم ، وما يمس منافعهم المختلفة السياسية والاقتصادية والثقافية ، بشرط ان تكون هذه الآثار الثقافية متصلة بهم وبأوطانهم ؟

وأنا أعتذر الى هؤلاء السادة ان قلت لهم انهم يفهمون جامعة الدول العربية على غير ما تفهم الجامعة نفسها ... فهي حين أنشأت لجنتها الثقافية وادارتها الثقافية أيضاً ، كانت أوسع منهم أفقاً وأبعد منهم هماً ، وهي لا تقصر في ترجمة ما يتصل بالعروبة وبالوطن العربي مما كتب الغربيون ، ولكنها لا ترى ان تقف نشاطها عند هذا الحد ، وانما تريد ان توسع الثقافة العربية العامة الى أبعد مدى وترفعها الى أرقى منزلة ، وترى في ذلك ترقية للشعوب العربية وتمكيناً لها من الاخذ بأسباب النهضة الصحيحة السريعة المنتجة . ونظمها بعد ذلك لا تتيح لرئيس اللجنة الثقافية كائناً من يكون ان يستبد برأيه في الترجمة والنشر ، ويمضي فيها على هواه . ولكنها تفرض

عليه ان يظفر بموافقة اللجنة الثقافية نفسها ثم بموافقة مجلس الجامعة بعد ذلك ، فرئيس لجنتها الثقافية عضو من أعضائها لا أكثر ولا أقل ... وله من هذه الناحية حق الاقتراح كغيره من الاعضاء ، فاذا أقر اقتراحه من اللجنة والمجلس أصبح مشرفاً على التنفيذ .

فليطمئن هؤلاء السادة ، فاني لم أكلف الجامعة العربية فوق ما تطيق ، ولم أدفعها الى ميدان من ميادين النشاط يجافي نظمها واختصاصها .

أما بعد ، فما بالنا لا نختصم إلا في ترجمة شكسبير ، مع ان للجامعة نشاطاً آخر في ترجمة كتب أخرى غير آثار شكسبير ، ولها نشاط نرجو ان يكون قوياً خصباً في احياء الأدب العربي القديم .

أليس ينبغي ان تثار الخصومات حول هذه الالوان من النشاط ؟ فاني أحب هذا اللون من الغيث الذي لا ينهمر ، فيخرج العقول والقلوب عن يسر الحياة اليومية التي نحياها .

والفلسفة

نعم والفلسفة ، أنترجمها الى العربية كما ترجمها الأولون من العرب فغيروا بترجمتها طبيعة الحياة العربية ، وأقاموا بفضلها هذه الحضارة الاسلاميـة الرائعة التي كان لها أثرها الخطير في إحياء أوروبة في القرون الوسطى ... قبـل ان يتاح لها العلم المباشر بفلسفة الأولين وآدابهـم وفنونهم على اختلافها .

هذا سؤال لا يلقيه المعاصرون كما ينبغي أن يلقى ولا يفكرون فيه كما يجب ان يكون التفكير فيه . وانما يقطعون فيه بالرأي الحازم الجازم ثم يهجمون برأيهم هذا في غير تحفظ ولا تثبت ولا روية ليهدموا آراء غيرهم هدماً ويدكوها دكاً . فالمعاصرون من كتابنا محاربون يتقنـون

أساليب الهجوم ويتفوقون في المصاولة والمجاولة والمطاولة حتى حين لا يصاولهم ولا يجاولهم ولا يطاولهم أحد . ولعلهم انما يهاجمون حيث لا موضع للمهاجمة ويصولون ويجولون حيث لا موضع لصيال أو جيال . وربما كان الخير في ان يأخذوا ما يعرض لهم من الأمور أخذاً رفيقاً هيناً فيه شيء من سعة الخلق وسماحة النفس وسجاحة الطبع ورجاحة الحلم .ذلك أجدر ان يهديهم ويهدي غيرهم الى الحق وأحرى ان يدلهم ويدل غيرهم على الصواب . ولكنهم أخذوا نفسهم بالعنف في غير موضع للعنف ، والجدال في غير حاجة الى الجدال . والقصة كلها تنحل كما يقال الى عناصر ثلاثة تعمل مجتمعة أحياناً وتعمل متفرقة أحياناً أخرى . فأحد هذه العناصر الافتتان بالألفاظ والانخداع بالظواهر . قوم يرون المخترعات الحديثة وما أتيح للغرب عامة ، ولأمريكا خاصة ، من التفوق في تجديد الحياة المادية التي يحياها الناس وابتكار الأدوات الرائعة والمروّعة فيبهرون ويسحرون ، وقد ألقي في روعهم ان هذه المخترعات التي تملأ الحياة دعة وسعة والتي تعرض الحياة للموت والفناء ، انما مردها الى تقدم العلم ورقيّه فيدعون مسرعين الى ترجمة العلم ، لا يتحفظون ولا يتثبتون ولا يسألون أنفسهم كيف تكون ترجمة العلم ولمن تكون ولماذا تكون ومن الذين سينتفعون بهذه الترجمة ؟.. وما عسى ان يكون أثر هذه الترجمة في تمكين العرب

خاصة والشرقيين عامة من المشاركة في الاختراع والابتكار وتجديد الحياة وتعريضها للهول والفناء .

وثاني هذه العناصر ما ألف الناس في هذه البلاد من تعصب كل امرىء لما يحسن ولما يظن انه يحسن . فالمؤرخ لا يعدل بالتاريخ علماً ، والفيلسوف لا يعدل بالفلسفة شيئاً ، والرياضي يرى الرياضة أول العلم وآخره، والاديب يرى الأدب قوام الحياة . وقد بلونا ذلك حين رأينا رجال التعليم يحاولون أن يضعوا مناهج الدرس وبرامجه للمدارس الابتدائية والثانوية ، فتتعصب كل جماعة لما تمارس من ألوان العلم . يريد كل فريق منهم ان يقيم التعليم ومناهجه وبرامجه على اللون الذي يفرغ له ويتخصص فيه .

وينسون جميعاً ان الثقافة مزاج يجب ان يأتلف من عناصر مختلفة ، وان تعتدل فيه هذه العناصر فلا يطغى بعضها على بعض . أما العنصر الثالث فيسير جداً وهو الحرص على المشاركة في كل ظاهرة من ظواهر النشاط للظفر بنصيب قليل أو كثير من نتائج هذا النشاط ، مادية كانت أو معنوية .

وقد قيل للناس ان رئيس الحكومة أرصد خمسين الفاً من الجنيهات للترجمة . فكل قادر على الترجمة ينبغي ان يكون له نصيب من هذه الالوف الخمسين . نصيب قليل أو كثير فشيء خير من لا شيء ، ومال الشعب يجب ان يرد الى أكثر عدد ممكن من الشعب . واحب ان

أريح هؤلاء الطامعين الطامحين بالحق وبغير الحق فأؤكد لهم ان رئيس الوزراء لم يضع تحت تصرفي ألفاً واحداً ولا آلافاً قليلة ولا ألوفاً كثيرة ، ولم يطلق يدي في مال ما لأنفقه كما أحب وأهوى . وانما أظهر استعداده للعناية بشؤون الادب والفن والانتاج الثقافي كله ، وعهد الى زميله وزير التربية والتعليم وضع ما تقتضيه هذه العناية من نظام .

ووزير التربية والتعليم جادٌ فيما طلب الرئيس اليه . فلينتظر الطامعون والطامحون اذن ، فقد يتاح لكل واحد منهم نصيبه من هذه الالوف التي قد تبلغ الخمسين وقد تزيد عليها كثيراً .

ولنعد بعد ذلك الى الذين يجادلون ويناضلون ويحاولون ويصاولون متخدعين بالألفاظ والظواهر أو متعصبين لما يحسنون او ما يظنون أنهم يحسنون من الوان المعرفة فندعوهم الى كلمة سواء تريحهم وتريحنا وتريح الناس جميعاً من هذا الجدال العقيم الذي لا يغني عن أحد شيئاً . فاما الذين يحبون ترجمة العلوم ، فمن حقهم ان يطلبوا ذلك الى العلماء والى الحكومة . وقد أنشيء في مصر منذ حين مجلس البحوث العلمية فليطلبوا اليه من ترجمة العلم ما يريدون وليطلبوا الى الدولة ان تيسر له ذلك ، فتعيد النظر في نظامه وتمنحه من المال ما تمكنه من البحث واعانة الباحثين ، وما تمكنه من الترجمة واعانة المترجمين الى أبعد حد ممكن :

فليس عليهم في مطالبة المجلس والحكومة بهذا كله حرج أو جناح ، فهم يعيشون في وطن ناهض طامح الى المجد حريص على ان يشارك في تنمية الحضارة الانسانية ، ومن حقهم ان يطالبوا بتوجيه هذا الطموح الى حيث يرون الخير .

واما الذين يطلبون ترجمة الفلسفة فمن حقهم ان يطلبوا هذه الترجمة الى المجلس الجديد الذي تريد الحكومة انشاءه ليقوم على رعاية الآداب والفنون والثقافة، وأظنهم لا يكرهون ان ينتظروا نشأة هذا المجلس ، فاذا تمت نشأته وأخذ في عمله طلبوا اليه ما يحبون . وأنا مؤمن أشد الايمان وأقواه بأن ترجمة أصول الفلسفة الانسانية ضرورة من ضرورات الحياة الراقية في كل وطن يطمح الى الرقي ويجد في سبيله، وأنا مؤمن كذلك بأن لا أمل لوطن حي يريد ان يرقى وأن يكون لحياته حظ من خصب ، لا أمل لهذا الوطن في ان يبلغ ما يريد الا اذا عرف أصول الفلسفة الانسانية على اختلاف مذاهبها وأوطانها .

ولكن كنت أحب لهؤلاء ألا يسرفوا على أنفسهم وعلى الناس بهذا الكلام الذي يرسل ارسالاً في غير تحفظ ولا تثبت ولا احتياط . فالاولون من العرب لم يؤثروا الفلسفة على الادب حين ترجموا ماترجموا من آثار الاولين، وانما ترجموا ما عرفوا وما أتيح لهم ان يترجموا.ولو انهم عرفوا الآداب اليونانية واللاتينية كما كان ينبغي ان تعرف لما قصروا في ترجمتها . وما أكثر السخف الذي يقال عن

غير بحث أو تحقيق ، فالعرب لم يترجموا شعر هوميروس ولا شعر بندار ، والعرب لم يترجموا تمثيل الشعراء التمثيليين إعراضاً منهم عن هذه الألوان من الأدب لأنها كانت فيما يزعم الزاعمون وثنية لا تلائم الاسلام . كأن كلما ترجموا من الفلسفة كان يلائم الاسلام ويطابقه ولا يخالفه قليلاً أو كثيراً . ولا أعرف مقالة أشد امعاناً في الحمق والسخف من هذه المقالة .

فقد ترجم العرب من فلسفة الفلاسفة ما يخالف الاسلام أشد الخلاف ، لم يمنعهم ذلك من ترجمته والرد عليه . وقد وجد بينهم في العصور الاولى من خلب لبه بعض الآراء الفلسفية المخالفة للدين ، فألف في ذلك الكتب وكتب فيه المقالات ونظم فيه الشعر ، يجاهر بذلك حين تتاح له المجاهرة ويستخفي بذلك حين لا يكون له بد من الاستخفاء . انما ترك العرب ترجمة الآداب القديمة لأنهم لم يعرفوها حق معرفتها ، وهم لم يعرفوها لأن المسيحية هي التي سبقت الى الاعراض عنها واضطرتها الى ان تستخفي وتختبيء حتى تستكشف في العصور الحديثة . وقد كان المسيحيون كما كان المسلمون يذكرون الشعراء القصصيين والغنائيين والتمثيليين لأن أسماء هؤلاء الشعراء وقعت اليهم . ولكن أولئك وهؤلاء لم يقرأوا آثار هؤلاء الشعراء لأنها لم تكن شائعة ولا مألوفة عند اليونانيين في الشرق ولا عند الذين كانوا يتكلمون اللاتينية في الغرب.

وانا مطمئن الى ان العرب لو عرفوا الشعر التمثيلي

اليوناني جده وهزله لترجموه ولحاولوا ان يصنعوا مثله ، ولحاولوا كذلك ان ينشئوا التمثيل وان يجعلوه فناً عربياً أصيلاً كما ترجموا الفلسفة ثم جعلوها فلسفة عربية أصيلة.

فالعرب اذن لم يتعمدوا الاعراض عن ترجمة الآداب القديمة وانما اضطروا الى هذا الاعراض اضطراراً. وهبهم تعمدوا هذا الاعراض فمن الذي يستطيع ان يلزمنا ان نخطيء كما أخطأوا ونقصر كما قصروا — ان كانوا قد تورطوا في خطأ أو تقصير .

ليطمئن الذين يريدون ترجمة الفلسفة فستترجم الفلسفة الى اللغة العربية ، ما في ذلك شك . وسيترجم قديمها وحديثها مهما تختلف مذاهبها وأوطانها ، لأن طبيعة الحياة المصرية الحديثة تقتضي هذه الترجمة وتفرضها فرضاً . وفيم هذه الخصومة كلها أو فيم كل هذا اللغو الذي لا ينفع ولا يفيد! لقد قلت في حديث مضى ان الناس جميعاً لا يستطيعون ان يقرأوا العلم ولا أن يصبحوا بحكم هذه القراءة علماء. وان العلماء يحسنون اللغات الاجنبية ويقرأون فيها علمهم وهم ليسوا في حاجة الى ان يترجم لهم . واقول مثل هذا بالقياس الى الفلسفة ، فليس كل الناس يستطيع ان يسيغ فلسفة ديكارت وكانت وأوجست كونت وأمثالهم من أعلام الفلسفة في العصور القديمة والحديثة ، وانما يسيغها وينتفع بها الذين يفرغون لها من الاساتذة والطلاب وأصحاب الثقافة العليا . وكل هؤلاء يحسنون لغة أجنبية ، فترجمة

العلم والفلسفة تستطيع ان تنتظر قليلاً حتى تهيأ لها الوسائل المادية والفنية ، وليس في انتظارها ضرر قليل أو كثير . ولا أعرف أحداً يستطيع ان يجادل في ان قراء الأدب والمتفعين به والحريصين عليه أكثر جداً من قراء العلم والفلسفة . وأنا حين أفكر في هذه الاشياء لا أفكر في مصر وحدها وانما أفكر في البلاد العربية كلها ، وأفكر في كل الذين يتخذون اللغة العربية وسيلة الى الثقافة والى الثقافة العليا خاصة . وأنا لا أحاول ترجمة شكسبير وغيره من أعلام الادب والثقافة باسم الحكومة المصرية وانما باسم العالم العربي كله . فليس بأس اذن من ان نبدأ بما ينفع أضخم عدد ممكن من العرب وان ننتظر قليلاً بما ينفع الخاصة حتى يتاح لنا من الاسباب ما يمكننا من ان نترجم للخاصة وللكثرة معاً . ولن يطول هذا الانتظار فالحكومة معنية بهذا الامر جادة فيه كما لم تعن به ولم تجد فيه حكومة أخرى من قبلها .

فالذين يخلصون للعلم والفلسفة يستطيعون ان ينتظروا مطمئنين . والذين يحرصون على ان يكون لهم نصيب من النشاط في ترجمة العلم والفلسفة يستطيعون ان ينتظروا مطمئنين أيضاً . والذين يطمعون في أن يأخذوا بحظوظهم من الالوف الخمسين أو الستين أو من مئات الالوف يستطيعون كذلك ان ينتظروا مطمئنين . فاذا كانوا لا يحبون الانتظار ولا يريدون الا العجلة فليوجهوا الحاحهم وتعجلهم

الى رئيس الوزراء ووزير التربية والتعليم لا الي أنا :
فلست أملك من هذه الالوف الكثيرة أو القليلة شيئاً . ولو
قد ملكت منها شيئاً لملأت عليهم الارض علماً وفلسفة
وأدباً وفناً ولما أكرهتهم على ان يطالبوني بشيء من
الريث والاناة لكثرة ما أفرض عليهم من الجد والجهد
والنشاط .

أما بعد فان الشاعر القديم لم يخطيء حين قال :

قدّر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا زلقاً عن غرة زلجا

وأيّ تقدير للخطو أوجب من تقدير الوسائل المادية
والفنية التي تتيح لنا الترجمة في غير تعرض لزللٍ أو خطلٍ
أو توقف في أثناء الطريق .

مثل

ليل ساج وظلام داج ، وسحاب ثقال كأنها الجبال ، وبرد تجمد له الدماء في العروق ، وتتحجر له الاطراف ، وتنضب له ينابيع الحياة ، وبرد ينهمر من السماء انهماراً تسوخ فيه الأقدام حين يمشي أصحابها ، وتكسى منه الأجسام معاطف من ثلج تستأصل كل ما فيها من حرارة ، وجماعات كثيرة من الناس مع ذلك لا تجد البيوت التي تأويها ولا النار التي تدفئها ولا الطعام الذي يغذيها ، فهي هائمة تتكفف الناس حين يتيح لها اعتدال الجو واسماح الطبيعة ان تهيم ، وهي قائمة واجمة تنتظر الموت حين يحول اضطراب الجو وعنف الطبيعة بينها وبين الحركة والاضطراب في الارض وبسط الأيدي واراقة ماء الوجوه وابتذال

حياء النفوس التماساً لما يقيم الاود من القوت .

كذلك كانت باريس حين اجتاحتها موجة البرد التي اجتاحت أوروبا في الأيام القليلة الماضية ، وفي ليلة من هذه الليالي الهوج حين تجاوز الليل نصفه ، وكاد يبلغ ثلثيه : كانت مئات كثيرة من الناس ، فيهم الرجال والنساء وفيهم الشباب والكهول ، قد وقفوا تحت السماء وقد غاصت أقدامهم من البرد ، وجلل أجسامهم ما يساقط منه بل ما ينهمر منه انهماراً ، والريح الباردة تهب عليهم من كل وجه ، وتأخذهم عواصفها من جميع أقطارهم وقام على أصل جدار متهدم قسيس يخطبهم فينسيهم أنفسهم ويصليهم بخطبته ناراً تحرق قلوبهم ونفوسهم ، يذكرهم باخوانهم اولئك الذين يهبط الموت اليهم من السماء وينجم لهم من الارض ، ويسعى اليهم على أجنحة الريح لأنهم لا يجدون مأوى ولا ناراً ولا كساء ولا غذاء .
والميسورون من حولهم ساهون لاهون ، لا يحفلون بهم ، ولا يلتفتون اليهم ، ولا يلقون اليهم بالاً ولا يعلمون بمكانهم ، إنما هم بين جاد ينعم في دعة بما انتج له جده وبين لاه يستمتع في استخفاف بما أتاح له ثراؤه العريض . ثم يكف الخطيب عن الكلام وتنطلق الأيدي بالتصفيق ان اتيح لها التصفيق .
ثم يتفرقون مسرعين ، منهم من تمضي بهم السيارات مبارية للريح ، ومنهم من يعدون في كل وجه ما استطاعوا العدو ، وقد مضوا جميعاً يلتمسون اخوانهم اولئك على شواطئ السين وعند جسوره وعند أفواه المترو

وفي كل مكان يألفه المضيعون من الناس .

حدث ذلك في ليلة من تلك الليالي الهوج ، ثم حدث بعد ذلك في الليالي الهوج كلها ، ثم لم يلبث أن أصبح نظاماً يحدث في الليل والنهار ، ويحدث حين تثور الطبيعة ، وحين تهدأ ، وحين تعصف الرياح وحين تسكن ، وحين يعنف البرد وحين يخف . كان يحدث أول الأمر لدفع الخطر الداهم الذي أثاره عنف الطبيعة ، ثم أصبح يحدث في كل يوم لما استقر في النفوس من أن للانسان بحكم انه انسان الحق كل الحق في الا يجوع ولا يظمأ ولا يعرى ولا يتعرض للآفات التي تأتيه من فقد المأوى .

وكان أصل هذا كله ذلك القسيس الذي استطاع أن يلهب النفوس ويقر في القلوب جذوة لا تبرد إلا إذا طعم جائع واكتسى عريان وجبر مسكين . ثم لم يستطع هذا القسيس أن يثير نفوس الافراد وحدهم ، بل أثار معها نفوس الجماعات . فأخذت تتبارى في الجود وتستبق في السخاء وتتنافس أيها يكون أعظم براً بالبائسين والمحرومين. ثم أثار الدولة نفسها فجعلت تسرع إلى تقديم المعونة العاجلة وترصد المال لتحتاط لهذا الشر العظيم فيما تستقبل من الأيام .

ويستطيع كل من أقام في باريس أو ألمّ بها أن يرى فندقاً من فنادق الترف في شارع من الشوارع الممتازة قد جمع الثراء العريض والبؤس المهلك بين جدرانه ، فسكانه من

المترفين يغدون ويروحون ويتحدثون في ابهائه أثناء النهار ويسمرون فيها أول الليل ، ويرون مع ذلك أفواجاً من البائسين المحرومين ، يمرون بهم قاصدين إلى تلك الحجرات التي خصصت لاستقبالهم ، وأقام فيها فريق من الناس يوجهونهم إلى حيث يجدون ما يحتاجون اليه من المأوى والطعام والكساء والغذاء .

ذلك ان القسيس قد اختار هذا الفندق منزلاً له . وما أسرع ما أقنع أصحاب الفندق بأن يعينوه على الخير فأجابوه إلى ما أراد ، وإذا الفندق يؤوي مع القسيس شابين تخرجا في مدرسة الهندسة العسكرية وهما يعملان معه كاتبين له قد تطوعا بجهدهما كما تطوع القسيس بجهده ، وتطوع آخرون من الشباب والشيوخ بالساعات من أوقاتهم تقصر وتطول ، وهم يجلسون في تلك الحجرات يعطون السائل ويطعمون الجائع ويسقون المحتاج ويوجهون طالب المأوى إلى حيث يستطيع أن يقيم . وهذه محطات السكك الحديدية تخصص قاعاتها لأيواء الذين لا يعرفون أين يتفقون الليل ، وتذهب مذهبها محطات المترو ، وتذهب مذهبها كثير من المؤسسات المختلفة . والمتطوعون على ذلك يطوفون في باريس ليلاً ونهاراً يجمعون البائسين والمحرومين ويأخذونهم طوعاً أو كرهاً إلى حيث يجدون الدفء بعد الشدة ، والطعام بعد الجوع ، والمسكن بعد العراء .

والغريب من أمر هذا القسيس انه نشأ في اسرة غنية

موفورة الغنى يأتيها ثراؤها العريض من احدى صناعات الترف وهي صناعة الحرير في مدينة ليون .

وقد كان منذ شبابه الأول شديد الألف للعمال الذين يعملون في مصانع اسرته يحبهم ويعطف عليهم ويتتبع حاجاتهم ويعينهم عليها ما وجد إلى ذلك سبيلاً . وقد تعلم كما يتعلم أمثاله ، ولكن البؤس الذي رآه مصبحاً وممسياً ينتج السعادة ، والحرمان الذي رآه في كل يوم ينتج الغنى ، والعناء الذي رآه في كل ساعة ينتج الراحة وخفض العيش كل ذلك زهّده في الدنيا وصرفه إلى الدين ، فأقبل عليه مستجيباً لهذه الدعوة الكريمة التي يوجهها الدين إلى قلوب الأخيار ، وأصبح قسيساً فلم يفرغ لشؤون العبادة ولم يقف نفسه على كنيسة من الكنائس ، وإنما عاش مع الناس وأراد أن يصلح من حياتهم ما يستطيع اصلاحه . حاول ذلك عن طريق السياسة فأصبح نائباً ثم لم يلبث أن رأى طريق السياسة غير منتجة فانحرف عنها ، وانصرف إلى مواجهة الأفراد والجماعات ، يوقظ ضمائرهم وينبههم إلى الواجبات التي يقصرون في ادائها ، وإلى الحقوق التي يهملون في طلبها ، وإلى الحب الذي يجب أن يكون قوام الصلة بين الناس ، وإلى المعروف الذي يجب أن يكون قوام العلل الأجتماعية على اختلافها . وتهيئ له الطبيعة بثورتها الجائعة الأخيرة فرصة أي فرصة ، فيحسن انتهازها ويتاح له من النجاح ما أتيح .

وإذا هو يوقظ الضمير الفرنسي من نوم عميق ، وإذا الفرنسيون يستجيبون له افراداً وجماعات ثم يستجيبون له شعباً وحكومة ، وإذا نوع من النشاط الاجتماعي لمعونة المحتاجين لم تشهده فرنسا منذ عهد بعيد ، وإذا كثير من الفرنسيين تتنبه في نفوسهم عاطفة دينية قوية فيرون هـذا القسيس قديساً من القديسين الذين كانوا يظهرون فيما مضى من الزمان ، ومنهم من يسميه باسم القديس المشهور سان فنسان دي بول .

والقسيس نفسه ماض في طريقه لا يحفل برأي الناس فيه ، وانما يعنيه شيء واحد هو أن تبلغ دعوته القلوب وان يستجيب لها الناس كل في حدود طاقته ، وان يستيقظ في الفرنسيين هذا الشعور الذي لا قوام للأمم بدونه وهو شعور التضامن بين أبناء الشعب الواحد ، حتى يصبحوا وكأنهم أخوة لا يسعد أحدهم إلا إذا سعدوا جميعاً ، ولا يشقى أحدهم إلا أصابهم جميعاً ما أصابه من الشقاء، وكأنهم أعضاء في جسم واحد لا يألم عضو إلا شاع الألم في الجسم كله . وكذلك استطاع هذا الرجل الفرد ان يوقظ شعباً وان يسخر سلطان الدولة ليستجيب لهذه اليقظة العامة ، ثم هو بعد هذا كله ماض في عمله بجمع المال من الاغنياء والفقراء ومن الهيئات الحرة والمصالح الحكومية ومن مجالس البلديات ومجالس الاقاليم ، ويجند الافراد للتعاون على البر والتقوى والسعي بالخير والمعروف بين الناس . آمن

بالاصلاح فسيطر الايمان على عقله وقلبه وضميره ، ثم استفاض الايمان من حوله فألقى في نفوس مواطنيه ضياء ونوراً . قرأ في الانجيل ان الايمان يزيل الجبال من اماكنها فآمن بما قرأ ، وجرب فأسعفته التجربة وأزال من قلوب مواطنيه ما تراكم فيها من الكسل والغفلةومن الاثرة والانهماك في اللذات والاستباق إلى نعيم الحياة ، وحبب اليهم الخير والبر وأثارهم للتنافس في المعروف والاحسان .

كل ذلك وفي حياة الفرنسيين من الاصلاح الاجتماعي ما لم نحاول بعضه نحن إلى الآن . ولكن أخص صفات الاصلاح انه اشبه شيء بالأنهار الجارية لا ينبغي لها ان توقف ولا أن تهمل مجاريها ، وانما ينبغي انتتعهد بالعناية والرعاية حتى تفيض بالخير على الناس جميعاً وعلى الطبيعة الحية كلها .

كم أحب ان يتفكر المواطنون من المصريين في هذا المثل الرائع الذي ظهر في فرنسا فجأة وعلى غير انتظار : ان في وطننا ثورة تريد الاصلاح ودعوة إلى الخير يجب أن تشمل وتعم وان تتجاوز الآذان التي تسمعها والألسنة التي تكررها إلى القلوب والنفوس والضمائر فتستقر فيها مسيطرة عليها موجهة لها .

كم أحب أن تصدر دعوتنا إلى الخير من قلوبنا ومن أعماق ضمائرنا لتبلغ قلوب غيرنا وأعماق ضمائرهم ، فان القلوب تحسن التحدث إلى القلوب ، والضمائر تحسن الايحاء

إلى الضمائر . ثم كم أحب آخر الأمر أن يتفكر رجال الدين ويتدبروا ويذكروا ان دعوة القرآن إلى الخير والبر والاصلاح ليست أقل حرارة والحاحاً من دعوة الانجيل ، وان قلوب المصريين وضمائرهم ليست أقل خصباً واستجابة من قلوب الفرنسيين وضمائرهم ، وان مصر ليست أقل حاجة إلى الاصلاح من فرنسا ، وان المصريين ليسوا أقل قدرة من غيرهم على أن يسمعوا القول فيتبعوا أحسنه وعلى ان يدعوا إلى الخير والاصلاح فيجيبوا إلى الخير والاصلاح .

واجب

نعم واجب طالما ارجئ واتصل التقصير في ادائه بأسباب كثيرة مختلفة ، منها ما يساغ ومنها ما لا يساغ ، حتى كان التفكير في ادائه منذ أكثر من عشرين عاماً ، حين أراد الأزهر الشريف أن تنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية وان يكون نقله إلى نفر من المسلمين الذين يحسنون العلم بدقائقه ، ويفهمون اسراره حق فهمها ، ويتقنون لغته حق اتقانها ، ويملكون اللغة الأجنبية التي ينقلون اليها ملكاً يتيح لهم ان يتصرفوا فيها تصرف القادرين عليها المطوّعين لها ، المجيدين لايداعها أدق المعاني في بلاغة تلائم مكانة القرآن ، ومقامه الرفيع من البيان العربي .

وقد أحس الأزهر الشريف ان نقل القرآن ببيانه الرائع

المعجز إلى لغة أجنبية شيء لا مطمع فيه ولا سبيل اليه ، فآثر التواضع ، ولم يفكر في ترجمة القرآن كما يترجم غيره من الكتب ، وإنما فكر في نقل معانيه إلى اللغات الأجنبية اعترافاً بالقصور عن الترجمة بمعناها الدقيق ، وتجنباً لكثير من الحرج الذي يأتي من الدين والفن جميعاً .

وكان الأزهر موفقاً منصفاً في هذا التواضع ، فالترجمة في نفسها عسيرة أشد العسر ، وهي ممتنعة بالقياس إلى الآيات الادبية الرائعة ، فكيف بالقرآن المعجز الذي لم يستطع العرب أن يأتوا بمثله في لغتهم التي نشأوا عليها وبرعوا فيها وبلغ النابهون منهم أقصى ما يمكن أن يبلغوا من القدرة عليها والتطويع لها والسحر بما أتيح لهم من البيان والتبيين .

وقد استجابت الحكومة في ذلك الوقت لارادة الأزهر وقررت النهوض بالاعباء المادية لهذا النقل . وارصدت لذلك في ميزانيتها المتتابعة مقداراً رمزياً من المال يتيح للأزهر أن يبدأ عمله ، حتى إذا خطا فيه الخطوات الأولى أنفقت الحكومة على العمل عن سعة وفي غير بخل ولا تقتير .

ولكن الأزهر أكثر الحديث في هذا الموضوع ، ثم سكت عنه فجأة ، وظلت الحكومة ترصد هذا المقدار الرمزي في ميزانياتها اعواماً متصلة ، والازهر ساكن لا يعمل شيئاً وساكت لا يقول شيئاً .

واشهد لقد هممت بشيء من نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية غير مرة ولكني صرفت نفسي عن ذلك صرفاً ، لأني لم أرد أن أقحم نفسي على ما أراد الأزهر

أن يختص به من دون غيره من الهيئات . ومن دون غير الأزهريين من الناس .

ولكني اقرأ في جريدة الاهرام حديثاً لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أفهم منه كما يفهم غيري ان الازهر قد أعرض عن هذا الرأي ، واكتفى بأن يؤلف المختصون من رجاله كتباً ورسائل تعرّف الاسلام إلى الناس على ان تترجم هذه الرسائل إلى اللغات الأجنبية .

ولست أشك في أن تأليف هذه الكتب والرسائل خير في نفسه وحق على القادرين عليه من المختصين .وقد كنت أتحدث في أول الصيف في شيء من ذلك إلى صديقين كريمين . واقترح احدهما ان نضع كتاباً نبين فيه حقائق الاسلام كما ينبغي ان تبين ليقرأه أصحاب الثقافات المتوسطة ، ولينقل بعد ذلك إلى بعض اللغات الأجنبية فيظهر عليه بعض القراء من الأجانب الذين لا يعرفون الاسلام إلا كما تصوره لهم بعض الكتب الأجنبية تصويراً فيه الخطأ والصواب وفيه الانصاف أحياناً والجور أحياناً . وقد أمعنا في حديثنا ذاك ، ولم نفترق حتى وضعنا منهاجاً لهذا الكتاب وقسمناه على أنفسنا ، واتفقنا على ان يفكر كل منا في النصيب المقسوم له من هذا المنهاج أثناء الصيف على أن نأخذ في الكتابة بعد انصرام القيظ عنا .

وفي أثناء هذا الصيف وحين كنت في عزلتي تلك

الأوروبية القصيرة قرأت كتاباً فرض على التفكير المتصل فيما كان الأزهر يفكر فيه منذ أعوام طوال ، من نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية تصويراً صحيحاً أو مقارباً .

والكتاب الذي قرأته في تلك العزلة كتاب خطير حقاً ألفه كاتب ايطالي مسيحي معروف هو الأديب العظيم جوفني بابيني ، وضاقت به الكنيسة الكاثوليكية أشد الضيق فأنكرته وحرّمت قراءته على المؤمنين من أتباعها . ولكن الكتاب مع ذلك ترجم إلى اللغات الأوروبية الكبرى ، وقرأته أنا في ترجمته الفرنسية .

وموضوع هذا الكتاب هو الشيطان . والكتاب محير حقاً لا يدري قارئه أهو كتاب ديني أم هو كتاب أدبي ، بل لا يدري قارئه أهو كتاب قصد به إلى الجد الخالص والبحث العلمي الصارم أم هو كتاب خلط به الجد والهزل وامتزج فيه العلم والأدب .

فالمؤلف يصور الشيطان كما وصفته التوراة وكما وصفه الإنجيل ، وكما وصفه شرّاح التوراة والانجيل ، من آباء الكنيسة وأحبارها ويعرض آراء قديمة في الشيطان وفي مصيره ، تغضب الكنيسة أشد الغضب . ولكن الكاتب لا يقف عند هذا الحد . وإنما يصور الشيطان كما وصفته آثار الأمم المختلفة قديمها وحديثها على اختلاف دياناتها ومذاهبها الفلسفية .

ثم يتجاوز هذا كله فيصور الشيطان كما رآه الأدباء وأصحاب الفنون الجميلة على اختلاف بيئاتهم وازمنتهم ، وعلى اختلاف طبائعهم وأمزجتهم وكما رآه هو في بعض أوقاته .

والكتاب ممتع ما في ذلك شك وهو يدل على علم عميق وثقافة واسعة بعيدة المدى وإحاطة بشؤون الاجيال المتباينة المتباعدة من الناس منذ أخذ الناس يكتبون ويصورون إلى هذا العصر الذي نعيش فيه ... ولكنه على ذلك مختلط فيه الجد وفيه الهزل ، وفيه الصحيح وفيه المحال وان ذهب فيه المؤلف مذهب العلماء وتكلف فيه سيرة الذين يجدّون ولا يعبثون .

وقد وقفني من هذا الكتاب تصويره للشيطان كما وصفه القرآن الكريم . وهذا التصوير هو الذي اضطرني إلى أن أفكر فيما أراد الأزهر منذ ربع قرن ، من نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية ... ذلك ان الكاتب الايطالي ليس مستشرقاً ، فهو لا يقرأ القرآن في نصه العربي ، وإنما يقرأ هذه الترجمة التي نهض المستشرقون بأعبائها في اللغات المختلفة وفي العصور المختلفة أيضاً .

ولست أدري أي ترجمة وقعت له لأنه لم يدلنا عليها ولكنها ترجمة خاطئة مخطئة من غير شك . وقد نتج عن قراءته لهذه الترجمة واطمئنانه اليها واعتماده عليها شر عظيم يضيق به الأزهر ، ويضيق به الأستاذ الأكبر أشد الضيق

وينكره المسلمون أعظم الانكار .

فهو قد قرأ فيما يظهر ترجمة لهذه الآيات الكريمة من سورة الحجر حيث أنبأ الله ملائكته بأنه خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، وأمرهم إذا سوّاه ونفخ فيه من روحه أن يقعوا له ساجدين .. « فسجد الملائكة كلهم اجمعون ، إلا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين » .

وقد ترجمت هذه الآية الأخيرة على ان ابليس لم يكن من الذين يسجدون لأن طبيعته وعلوه في نفسه يرفعانه عن السجود . واستنتج من هذا ويا بؤس ما استنتج ان ابليس كان أقرب إلى الاسلام من الله لأن ابليس أبى أن يسجد لبشر والاسلام يحرم السجود لغير الله. فكان ابليس أحرص على رعاية الاسلام من الذي جعل الدين عند الله الاسلام ، تعالى الله عما يقول المترجمون الخاطئون المخطئون علواً كبيراً .

ولكن الشيء المهم الخطير هو ان هذا الكتاب قد قرئ بالايطالية والفرنسية وغيرهما من اللغات الكبرى . وظن كثير من قرائه ان هذا الكلام في القرآن ، وان الله قد أراد الملائكة على أن يسجدوا لآدم عابدين له من دون الله ، وان ابليس قد أبى ان يشرك بالله بشراً ، وان الله عاقبه باللعنة على هذا التوحيد .

فما رأي الأزهر ؟ وما رأي فضيلة الأستاذ الأكبر ؟ ألا يزال الأزهر والأستاذ الاكبر يريان العدول عن نقل

معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية الكبرى ليعرف الاسلام في البلاد الأوروبية والأميركية على وجهه ؟ ألا يوافقني الأزهر والاستاذ الاكبر على ان التقصير في اداء هذا الواجب اثم لا ينبغي أن يتورط فيه المسلمون بعد أن كثر هذا السخف السخيف الذي يتناقله كثير من غير المسلمين منذ ترجم القرآن في أواخر القرون الوسطى إلى أن ترجم أخيراً في هذا العصر الحديث ، تراجم أقل ما توصف به أنها ليست دقيقة ولا صادقة ولا مقاربة في كثير من أجزائها ، وانها تنشر الخطأ في كثير من العقول وتلقي في روع كثير من الناس أموراً ليست من الاسلام ولا من القرآن في شيء . وليس كل الغربيين قادراً على أن يقرأ القرآن في نصه العربي ، وليس كل الغربيين قادراً على أن يفهم القرآن ان قرأه في النص العربي ، وليس أوساط الناس مكلفين ان يتحققوا من صدق التراجم التي تنشر لهم ودقتها ولا قادرين على هذا التحقق . بل هم مدفوعون بطبعهم إلى أن يأخذوا هذه التراجم على انها صحيحة دقيقة كما يأخذون تراجم الكتب الكثيرة التي تنقل اليهم ، وكثير منهم يقرأون العهد القديم والعهد الجديد مترجمين إلى اللغات التي يتكلمونها ، فهم يقرأون تراجم القرآن كما يقرأون تراجم التوراة والانجيل مع هذا الفرق الخطير ، وهو ان تراجم التوراة والانجيل تخضع لمراقبة شديدة عسيرة من السلطات الدينية المسيحية ، ولا تخضع ترجمة القرآن لمراقبة ما إلا مراقبة

الناقلين من العلماء وقلما يغفل العلماء بهذه المراقبة، وقلما يقدرون عليها .

ليصدقني الأزهر وليصدقني الأستاذ الاكبر ان هذا شر عظيم غفل المسلمون عنه دهراً وتغافلوا عنه دهراً وأصبح اهماله اثماً يجب أن تبذل الجهود كل الجهود للتخلص منه والتخفف من ثقله .

وبعد فما أكثر ما ترجم الأوروبيون القرآن إلى لغاتهم كما أحبوا أو كما استطاعوا ، وقد أصبح واجباً على المسلمين ان يترجموا معاني القرآن بأنفسهم إلى هذه اللغات . وما أكثر ما كتب الأوروبيون الرسائل وألفوا الكتب عن الاسلام فاخطأوا وأصابوا وأنصفوا وجاروا عن قصد السبيل ، وقد أصبح واجباً على المسلمين ان يعرفوا الاسلام بأنفسهم إلى غيرهم من الأمم . وإذا كان الأزهر لا يريد ان ينقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية — وانا أجله عن ذلك — فلا أقل من أن يخلي بين المسلمين وبين هذا النقل يجتهدون فيه حسب طاقتهم دون أن يصرفهم عن ذلك أو يحرج عليهم فيه أو يثير في سبيلهم المصاعب والعقبات .

إن العالم الغربي يفكر في الاسلام ويتحدث عنه اكثر جداً مما يظن الأزهر والازهريون ، فلا أقل من أن نتيح له التفكير فيه والتحدث عنه على وجه صحيح وعن علم دقيق بأسراره وحقائقه . ذلك اجدر ان يعفينا من التقصير وان يقرب الصواب إلى غير المسلمين ؛

نقد واجب

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر أصدق الشكر وأجمله على مقاله القيم الذي قرأته اليوم في «الجمهورية» ، عن نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية . ولفضيلته كذلك أصدق الشكر وأجمله على ما تفضل به عليّ من ثناء ، وما وجه إليّ من دعاء. واحب أن يطمئن الأستاذ الجليل إلى اني حريص أشد الحرص على ان أكون عند ما يحب من معونته حسب طاقتي على ما يحاول من تبيين حقائق الاسلام للناس في الشرق والغرب جميعاً .. ولكني أعود بعد ذلك إلى الموضوع الذي كتبت فيه منذ حين والذي أثار الأستاذ الجليل إلى الكتابة فيه اليوم وهو ترجمة معاني القرآن إلى اللغات

الأجنبية .

فقد يظهر ان فضيلة الأستاذ الأكبر يوافقني على ان هذه الترجمة واجبة لا ينبغي التقصير في ادائها ، ويوافقني كذلك على أن الأزهر قد فكر في هذه الترجمة واطال فيها التفكير ، وتحدث عنها ، وأكثر فيها الحديث منذ عشرين عاماً ، ولكنه على ذلك لم يصنع شيئاً بل لم يأخذ في هذه الترجمة ، ولم يتم منها قليلاً أو كثيراً .

وكنت أظن ان الازهر في هذا العهد الجديد ، سيستأنف التفكير الجاد المنتج في هذا الواجب الخطير ، ويأخذ في ادائه دون ارجاء له أو إبطاء فيه مكتفياً بما ضاع من الوقت في التفكير والحديث اثناء هذه السنين الطوال ..

ولستُ أدري أخطئُ أنا في فهم الحديث الذي نشرته الإهرام للأستاذ الاكبر منذ أسابيع بهذا العنوان الذي لم ينكره الأستاذ الاكبر ، ولم ينكره أحد من الازهريين وهو ارجاء ترجمة معاني القرآن للغات الأجنبية .

« مشروع جديد لمشيخة الازهر للتعريف بأحكام الاسلام ومبادئه »

« رجال الدين مسؤولون أمام « الضمير » الانساني عن سلامة العالم » .

وهذا العنوان وحده يصور حديث الأستاذ الاكبر تصويراً دقيقاً ، كما انه يصور المقال الذي نشرته « الجمهورية »

له صباح اليوم ، ففضيلته يرى في صراحة صريحة أن الغاية التي يقصد اليها من ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية إنما هي تعريف حقائق الاسلام للناس في الشرق والغرب ، تعريفاً صحيحاً صادقاً لا لبس فيه ولا غموض ولا التواء ..

والأستاذ الاكبر يرى الإسراع إلى تحقيق هذه الغاية بوضع الكتب والرسائل التي تعرض حقائق الاسلام وأصوله ، وترجمة هذه الكتب والرسائل إلى اللغات الأجنبية المختلفة ، ولا يتحدث عن الأخذ في ترجمة معاني القرآن نفسه اليوم أو غداً أو بعد غد . وأخشى ان يكتفي بوضع هذه الكتب وترجمتها واذاعتها ويستغني بذلك عن الموضوع الذي ألحّ فيه أشد الالحاح وهو ترجمة معاني القرآن نفسه ترجمة دقيقة صادقة يمكن أن يثق الناس بها ويطمئنوا اليها ويعلموا انها هي التي تصور فهم اعلام الاسلام للقرآن الكريم .

فهناك فرق واضح أشد الوضوح بين كتاب يقدم إلى الناس على انه ترجمة لمعاني القرآن قد أقرّها رجال الدين وأطبقوا على اقرارها ، ولم يروا فيها عوجاً ولا انحرافاً عما ينبغي ان يفهم من نصوص الذكر الحكيم ، وبين كتاب يقدم للناس على انه عرض لهذه الحقيقة أو تلك من حقائق الاسلام قد ألّفه هذا الأستاذ أو ذاك من أساتذة الازهر الشريف أو من غيرهم .

وما أكثر الكتب التي ألفها المستشرقون عن الاسلام ، والتي يستقيم بعضها لأنه يصدر عن الاخلاص في حب العلم والصدق في عرضه على الناس وتجنب الهوى والتعصب وحسن العلم بالتراث الاسلامي وينحرف بعضها عن الجادة لتأثر المؤلف بالهوى أو لقصوره عن فهم هذا النص أو ذاك من النصوص الاسلامية على اختلافها .

وقراء العربية يعرفون بعض هذه الكتب لأنها نقلت إلى لغتهم في عصور مختلفة وبأقلام مختلفة أيضاً . والذين يحسنون اللغات الأجنبية يقرأون كثيراً من هذه الكتب في اللغات التي ألفت فيها أو نقلت اليها فيعرفون وينكرون ويرضون ويسخطون .

ولست أرى بأساً كما قلت في الحديث الماضي بأن يشارك الأزهريون في تأليف بعض هذه الكتب والرسائل ، بل أنا أرى في ذلك الخير كل الخير وأتمنى أن يسرع الازهريون اليه وارجو أن تكون لي في بعضه مشاركة ؛ ولكن هذا شيء والموضوع الذي الح فيه وأراه واجباً لا يحتمل ارجاء ولا إبطاء شيء آخر .

فأنا أريد ألا يرجئ الأزهر نقل معاني القرآن نفسه إلى اللغات الاجنبية الحية أكثر مما أرجاه إلى الآن . ذلك أن الناس في العالم الغربي كثيراً ما يحرصون على قراءة الكتب المقدسة نفسها في لغاتهم التي يتكلمونها أو في اللغات الأجنبية التي يحسنونها ، وهم يقرأون التوراة والانجيل

ويقرأون كتباً أخرى تقدّسها شعوب لا تؤمن بالكتب السماوية ، يدفعهم إلى هذا الحرص حبهم للعلم ورغبتهم في المعرفة وطموحهم إلى فقه الشؤون الدينية ، مهما يكن مصدرها . وهم يقرأون تراجم كثيرة للقرآن نشرت منذ أواخر القرون الوسطى وما زال بعضها ينشر في هذه الأيام وكان آخر ما وصل إليّ منها ترجمة فرنسية نشرت بعد الحرب العالمية الثانية للأستاذ الفرنسي رجيس بلاشير أستاذ اللغة العربية بالسوربون .

وأصحاب هذه التراجم المختلفة يحملون تبعاتها بالطبع وهي تبعات ثقال في أكثر الاحيان . والشيء الذي اتطع له هو ان هذه التراجم لا تقع من نفوس المسلمين المتقنين لعلوم الاسلام مواقع الرضى ، لأنها تنحرف عن الجادة من هذه الناحية أو من تلك ، بعضها يخطىء الفهم ويخطىء الاداء وبعضها ينحرف عن السنة الموروثة في ترتيب القرآن ويحدث اضطراباً شديداً في نفوس الذين يقرأونه . ولن يستطيع الأجانب ان يفهموا هذا الموقف الغريب الذي يقفه المسلمون من كتابهم المقدّس الكريم فلا يترجمون معانيه لهم ولا يقدمون اليهم منه صورة يمكن ان يطمئنوا اليها ويثقوا بها ، على حين تقدم اليهم التراجم المختلفة للتوراة والانجيل وكل ما يتصل بالتوراة والانجيل من المباحث والشروح .

والمثل الذي ضربته في الحديث الماضي ليس إلا شيئاً

قليلاً من أشياء كثيرة لا أحب أن اعرض لها الآن ، كما لم يحب الأستاذ الأكبر ان يعرض لها الآن . لا أريد أن أثير خصومة قوية أو ضعيفة بين المسلمين وغير المسلمين ، وإنما اريد ان ينهض المسلمون بهذا الواجب الذي نهض به كثير من غير المسلمين ، يخلص أكثرهم وينحرف قليل منهم عن الاخلاص ويتورط اولئك وهؤلاء في الخطأ الذي لا ينفع احداً والذي يسوء الاسلام ويسوء المسلمين ، عن عمد وغير عمد . والاسلام دين يتجه إلى الناس كافة لا إلى العرب منهم خاصة ، وليس من الطبيعي ولا من الممكن أن نفرض على الناس ان يقرأوا القرآن في نصه العربي إذا أرادوا ان يعرفوه ، لأن هذا تكليف بالمحال كما يقول الازهريون .

فلا أقل من أن نفسر لهم القرآن بنقل معانيه إلى لغاتهم لنتيح لهم ما يريدون من ذلك دون ان يجدوا في ذلك مشقة أو عسراً ودون أن يتعرضوا في ذلك للخطأ أو الجهل والتحريف .

وفضيلة الأستاذ الاكبر يوافقني فيما اظن على ان نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية ليس مستحيلاً ولا ممتنعاً وعسى ألا يكون من العسر بحيث يظن المتحرجون .

فأنا لا أريد أن أنقل إلى اللغات الأجنبية ما في بيان القرآن الكريم من روعة واعجاز وإنما أريد أن أعطي الأجانب من القرآن الكريم صورة صادقة تؤدي اليهم

معانيه وان لم تؤد اليهم روعة النظم وجمال اللفظ وبراعة الاسلوب .

وفي معاني القرآن نفسها من الروعة والبراعة ما يؤثر في القلوب الانسانية أعظم الاثر وأقواه ، وما لا يدرك كله لا يترك جله، كما كان يقال لنا في الازهر أيام الشباب، وكما يقال لطلاب الأزهر الآن فيما أظن . وما أريد أن يظن فضيلة الأستاذ الاكبر اني قصدت ان اسوء الأزهر من قريب أو من بعيد ..فأنا أعرف للأزهر حقه عليّ وأحاول أن اؤدي اليه بعض هذا الحق ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . ومن اداء حق الأزهر عليّ ان اذكّره بالواجب وأدعوه إلى ادائه والح عليه في هذا التذكير والدعاء .

فالله يأمرنا ان ندعو إلى الخير ونأمر بالمعروف ونذكر بالواجب ، والازهر هو الذي علمنا ان الله يأمر بهذا كله ، فنحن حين نطلب اليه اداء هذا الواجب الخطير في غير ارجاء ولا ابطاء ولا تريث ، إنما ندله على اننا استمعنا له فاحسنّا الاستماع ودرسنا فيه فأحسنّا الانتفاع بما تلقينا من الدروس .

أما بعد فاني ارجو ان يتفضل الأستاذ الأكبر فيعنى أشد العناية وأقواها وأصدقها بنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية وبتأليف ما يجب تأليفه من الكتب والرسائل التي تبين حقائق الاسلام للناس . فالاستكثار من الخير مرغوب فيه دائماً مدعو اليه دائماً ، وفي الأزهروالحمد

له قدرة على النهوض بهذين الأمرين جميعاً ، ومن حول الأزهر من المسلمين القادرين على معونته من يستجيبون له إذا دعا ، ويعينونه إذا احتاج إلى العون . ولا يغضب الأستاذ الاكبر من هذه الحملة التي رأى فيها قسوة على معهدنا العظيم ، فهو يذكر من غير شك ان من القسوة ما ينفع ، وهو يذكر كذلك من غير شك ان قد اتى على الأزهر حين من الدهر كان بعض شيوخه يحرجون على غير الأزهريين ان يخوضوا في حديث الدين من قريب أو بعيد ، ويرون ذلك مقصوراً عليهم من دون الناس .

وليس أحب الي ولا أحسن في نفسي موقعاً من ان يكون هذا العهد قد انقضى ومن أن يعود الأزهر الشريف إلى سماحته الأولى فيعمل الخير ويذيعه ويدعو الناس إلى المشاركة فيه .

فتلك مهمة الأزهر التي طالما دعوناه إلى أن يخلص لها نفسه وجهده ووقته ونشاطه كله . وأي شيء أحسن موقعاً في نفوس المسلمين من ان يروا الأزهر قد أقبل على واجبه يؤديه أصدق الأداء .

صوت الخطأ

إذا أسرف مسلم على نفسه واقترف اثماً من الآثام التي يمقتها الله ويحذر منها عباده المؤمنين ويوعدهم بالعقاب الشديد والعذاب الاليم إن تورطوا فيها ، فأمرهذا المسلم لا يخلو من احدى اثنتين :

إما أن يكون قد اقترف خطيئة تؤذي غيره من الناس ، وتضيع بعض حقوقهم ، وإما أن يكون قد اقترف خطيئة لا تؤذي احداً غيره ولا تمس إلا الصلة الدينية الخالصة بينه وبين الله الذي يعلم سره وجهره ويراقب ضميره حين يفكر أو يشعر ، وشخصه حين يحسن في العمل أو يسيء.

فاذا كانت الأولى فولي الأمر وحده هو المكلف ان يحاكم هذا المسلم وان يعاقبه على ايذائه للناس واضاعته

لحقوقهم كلها أو بعضها وان يقتص منه للذين آذاهم أو أصابهم ببعض ما يكرهون .

وولي الأمر هو القائم بالحكم بين الناس وهو مكلف أن يقيم الحدود وان ينصف المظلوم من الظالم وان يكون الضعيف عنده قوياً حتى يظفر بحقه كاملاً وان يكون القوي عنده ضعيفاً حتى يؤدي ما عليه من الحق كاملاً .

وولي الأمر ينهض بهذا العبء بنفسه ان استطاع وبواسطة القضاة الذين ينيبهم عنه في النهوض بهذا العبء حين لا يستطيع . واداء هذا الواجب لا يعفي الخاطئ من حساب آخر أشد وأقسى وأعظم عسراً من حساب ولي الامر أو القاضي ، وهو حساب الله له يوم القيامة وعقابه له على ما قدم بين يديه من السيئات . والله مع ذلك يفتح لهذا الجاني أبواباً واسعة من الأمل في عفوه ومغفرته ورحمته أن تاب وأصلح وكفّ عن مقارفة السيئات .

فعقاب السارق والقاتل والغاصب والمعتدي على حقوق الناس بوجه عام ، عقاب هؤلاء في الدنيا لا يعفيهم من حساب الله لهم في الآخرة . والله عز وجل يعاقبهم بعد هذا الحساب ان شاء ويعفو عنهم إن شاء ، ويبدل سيئاتهم حسنات ان شاء .. بهذا كله ينبئنا الله عز وجل في كتابه العزيز ، وفي آيات كريمة منه كثيراً ما اظن اني غير محتاج إلى اثباتها في هذا الحديث لأنها تتلى على المسلمين حين يصبحون وحين يمسون .. والخطأ في اقتراف هذه الآثام التي تمس

حقوق الناس لا يعفي الخاطئ من التبعات في الدنيا وان خفف عنه ثقل هذه التبعات تخفيفاً عظيماً .

فمن قتل خطأ وجب على الحاكم ان يأخذه بخطئه ويلزمه تعويض اولياء الدم عما أصابهم من جنايته ... وذلك بأداء الدية اليهم ، ولكن لا يجوز للحاكم ان يقتص منه ويقتله بمن قتل خطأ .. فأما فيما بينه وبين الله فان الله يعفو عن الخطأ لقوله عز وجل « ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً » . والله قد أنبأنا بأنه قد يعفو عن الخاطئ المتعمد إن تاب وآمن وعمل صالحاً فقد يبدل سيئاته حسنات .

والله يقول في سورة الفرقان « والذين لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، الا من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما » . وان كانت الثانية ولم يجن الخاطئ المتورط في الأثم والكبيرة على احد غيره من الناس ، وانما جنى على نفسه وحدها فضيع حقاً من حقوق الله التي لا تمس حقوق الناس من قريب أو من بعيد فأمره إلى الله وحده وحسابه على الله وحده ، وليس لأحد من الناس كائناً من يكون ان يحاسبه أو يعاقبه ، وانما يجب على المسلمين وعلى حكامهم وعلمائهم ان يأمروه بالمعروف وينهوه عن المنكر ويدعوه إلى الخير ويحذروه من الشر ،

وقد يستطيع الحاكم ان يُعذّره باللوم أو ببعض العقاب الذي لا يتلف نفسه ولا يضيع حقه .

أما ما بينه وبين الله فلسنا نعلم من أمره إلا ما أنبأنا الله به في القرآن من انه اعدّ للذين يقترفون الكبائر عذاباً أليماً ، ومن انه غفور رحيم يعفو ان شاء عن مقترف الكبيرة إن تاب واصلح ، والله عز وجل يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » . ويقول : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ... »

ويجب ان تفهم الجهالة في الآيتين بمعناها العربي القديم الذي جاء في القرآن الكريم غير مرة وهو التسرع عن غير روية ولا تفكر ولا اناة فهي هنا نقيض الحلم لا نقيض العلم كما قال الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانة
وتخالنا جنّاً إذا ما نجهل

وكقول عمرو بن كلثوم :

الا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فتارك الصلاة وتارك الصوم وتارك الحج حين يجد اليه سبيلاً من الخاطئين الذين أعد الله لهم عذاباً أليماً وأعدّ

لهم الرحمة والمغفرة والعفو ان تابوا من قريب وأصلحوا ..

هذه كلها اوّليات مفهومة من الدين بالضرورة ، كما يقول الأزهريون ، ومفهومة من الدين بنص القرآن الذي لا يقبل تأويلاً ولا تبديلاً ...

فما عسى أن يكون موقف ذلك الأستاذ الأزهري الذي قال مقالته تلك في الصوم فأغضب الشيوخ وأثار هـذه القصة التي يظهر انها لم تنقض بعد ... انه لم ينكر ان الصوم ركن من أركان الاسلام ولم يبح للناس ان يفطروا إن شاءوا بغير قيد ولا شرط . وانما فهم نصاً من نصوص القرآن الكريم فهماً لا يقرّه عليه الشيوخ ، وأعلن رأيـه للناس .. قرأ قول الله عز وجل « وعلى الذين يطيقونـه فدية طعام مسكين » . وفهم من هذه الآية ما فهمه بعض المفسّرين القدماء ومنهم الزمخشري مثلاً ، من ان الذين يجدون المشقة في الصوم يستطيعون ان يفطروا وان يفتدوا من ذلك باطعام مسكين .. وقرأ آيات في القرآن وفهمها على غير ما يقرأ الشيوخ ، قرأ قول الله عز وجل « يريد الله أن يخفف عنكم » ، « وخلق الانسان ضعيفاً » ، وقوله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقوله « وما جعل عليكم في الدين من حرج » ورأى النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيما روى البخاري : « إنما بعثتم ميسّرين لا معسّرين » ، ويقول فيما روى البخاري أيضاً : « ألا ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

قرأ هذا كله وقرأ نصوصاً كثيرة أخرى غيره واعتقد ان الاسلام لا يأخذ الانسان بالمشقة ولا بالعنف وإنما يأخذه باللين والرفق لأن الانسان خلق ضعيفاً . وقد علم الله المسلمين أن يسألوه ألا يحمل عليهم إصراً كما حمل على الذين من قبلهم وألا يكلفهم ما لا طاقة لهم به... ورأى كثيراً من المسلمين يظهرون الصوم إن لقوا الناس أو لقوا بعض الناس ويفطرون حين يخلون إلى أنفسهم وإلى أمثالهم من الذين يقول الله فيهم « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » . فأشار على هؤلاء بأن يفطروا إن وجدوا المشقة في الصوم وبأن يفتدوا من هذا الافطار باطعام مسكين ، واعتقد فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين الله انه بهذه المشورة ينصح للاسلام والمسلمين فينهى الناس عن النفاق ويحثهم على الصدقة . والله ليس في حاجة إلى صيام الصائمين . والمساكين من الناس في حاجة أشد الحاجة إلى أن يطعمهم القادرون على اطعامهم مؤثرين للصدقة أو مفتدين بها من الصوم .

كذلك رأى هذا الاستاذ ، ولست أقول أنه أصاب ، ولست أقول انه أحسن فيما صنع ولكني أقول انه لم يتعمد خروجاً من الدين ولا مخالفة عن امر الله ولا انحرافاً عن نصوص القرآن وما صح من الحديث . فأقصى وأقسى ما يمكن أن يقال في شأنه انه اجتهد فأخطأ .. وليس على من اجتهد حرج في أن يخطئ ، وما أكثر

المجتهدين الذين أخطأوا فلم يقض عليهم أحد بالكفر ، ولم يتهموا بالخروج من الدين ، ولم يحاول أحد أن يحاكمهم أو يعاقبهم أو يطلب إلى القضاء أن يفرق بينهم وبين أزواجهم ، وليس لأحد أن يتهمهم بشيء من ذلك أو يقدمهم إلى القضاء في شيء من ذلك ، أو يحاول التفريق بينهم وبين أزواجهم لشيء من ذلك .. فكل شيء من هذا القبيـــل اعتداء على حق المسلم في أن يجتهد في رأيه وينصح لله والناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ولا ينبغي أن يقال إن ذلك الاستاذ لم يبلغ منزلة الاجتهاد ، فمنزلة الاجتهاد هذه شيء غامض غير محدود ولا واضح الاعلام ، ولم يستطع أحد من شيوخنا في الأزهر أن يحدد لنا منزلة الاجتهاد هذه ولا أن يبين لنا متى يبلغها الناس ومتى يقصرون عن بلوغها . ولكن المسلم الذي يقرأ كتاب الله ويفهمه كما يستطيع الناس أن يفهموه ، ويقرأ حديث النبي صلى الله عليه وسلم ويفهمه كما يستطيع الناس ان يفهموه أيضاً ، ثم يشارك فيما اتفق الناس على أن يسموه علوم الدين فيأخذ بحظ من الفقه وأصوله ومن الكلام ومذاهب الناس فيه ويشهد له بهذا كله الأزهر الشريف الذي يعطيه اجازة مكتوبة معتمدة من الدولة تشهد بأنه عالم من علماء الدين ..

هذا المسلم ليس عليه بأس ان حاول الاجتهاد مخلصاً في اجتهاده ناصحاً فيه للاسلام والمسلمين . وذلك الاستاذ قد ظفر بتلك الاجازة كما ظفر بها حضرة صاحب الفضيلة

الاستاذ الاكبر وزملاؤه من أعضاء هيئة كبار العلماء وزملاؤهم من علماء الازهر الشريف جميعاً ، وإذا كان شيوخنا الاجلاء يأبون على أنفسهم الاجتهاد ويكتفوا بتقليد واحد من الائمة الاربعة خوفاً من الزلل ، واشفاقاً من الخطأ وايثاراً للعافية ، فذلك حقهم لا ينازعهم فيه أحد ، ولكنه لا يبيح لهم أن يأخذوا الناس بأن يكونوا مقلدين مثلهم ، هم أحرار في التقليد وغيرهم حر في الاجتهاد ، والله غالب على أمرهم جميعاً ، سيسأل المقلدين عن تقليدهم وسيسأل المجتهدين عن اجتهادهم ، وسيجزي كلاً منهم بعمله جزاءً لا يشك في عدله الا الجاحدون .

واذن ففيم كل هذه الضجة وفيم كل هذا الجدال .. رجل اجتهد ومن حقه أن يجتهد ، فان يكن أصاب فأجره على الله وان يكن اخطأ فحسابه على الله ، وليس لأحد من الناس ، لا من رجال الحكم ولا من رجال الأزهر ، أن يحاسبه على ذلك أو يعاقبه ، لأنه لم يتعمد على حق من حقوق الناس ، لم يسفك دماً حراماً ولم يأخذ مالا حراماً ، ولم يؤذ أحداً في شيء تعاقب القوانين على ايذاء الناس فيه .

كل ما يمكن ان يقال : هو انه اخطأ في حكم من أحكام الدين ، فمن حق العلماء ان يبينوا له خطأه وان يدلّوه على الصواب ، ويدعوه إلى أن يثوب اليه . فأما أن يحاكموه أو يعاقبوه أو يؤدبوه أو يقدموه إلى القضاء

ليفرق بينه وبين أهله فذلك شيء لا يبيحه لهم الاسلام ، وهم ان فعلوه يعطون أنفسهم حقاً لم يعطه الله لهم ، فهم يتجاوزون حدودهم ويظلمون هذاالاستاذ ويستحلون لانفسهم ما لا يملكون .

ولست أدري إلى ما انتهت اليه هذه القصة الآن ولست أعلم حين املي هذا الحديث أبرئ هذا الأستاذ أم أدين ؟ ولكن الشيء الذي أقطع به هو ان محاكمته من أجل رأيه في الصوم اسراف وانحراف عن أصول الاسلام وسنته السمحة ... ولا بدّ من ان يعود علماء الاسلام في الازهر إلى قصد السبيل بعد أن جار بهم السلطان عنه ، واستحب فريق منهم هذا الجور في وقت من الاوقات .. فليس لعلماء الاسلام حق في ان يحاكموا مسلماً أو يعاقبوه لأنه اجتهد رأيه فأخطأ أو أصاب ... ذلك ان الاسلام لا يعرف الاكليروس . ولا يعرف هذه السلطة الدينية العليا التي يستأثر بها فريق من رجال الدين ، فيحكمون بإيمان هذا الرجل وكفر ذاك . وقد عاش المسلمون قروناً قبل أن يوجد الازهر الشريف ، فلم يعرفوا هيئة تحاكم الناس على الاجتهاد في الرأي ، وهم قد كرهوا من الخليفة المهدي تتبعه للزنادقة واسرافه في هذا التتبع وأخذه بعض الناس بالشبهة وقتله بالظنة ، وهم كرهوا كذلك اسراف المأمون حين أراد ان يحمل الناس على الايمان بخلق القرآن، وحين امتحن بذلك جماعة من أخيار المسلمين ..

والازهر نفسه قد عاش قروناً لم يكن يملك فيها ان يحاكم أو يعاقب على الرأي ، وإنما كان يملك ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى الخير كما أمر الله في كتابه العزيز . ولم يتح هذا الحق للازهر إلا في آخر الزمان وفي هذا القرن الذي نعيش فيه ، حين انشئت هيئة كبار العلماء واعطيت ما أعطيت من الحقوق ، وكان اعطاؤها الحق في محاكمة الناس ومعاقبتهم على الرأي بدعة لم يعرفها الاسلام من قبل . وكان من الحق على الأزهر ان يذكر الحكومة التي أعطت هيئة كبار العلماء تلك الحقوق ان في ذلك بدعة ، وان شر الامور محدثاتها ، وان كل بدعة ضلالة وان كل ضلالة في النار ، كما كان ابن مسعود رحمه الله يتحدث إلى تلاميذه في الكوفة . وقد اختلف ائمة المسلمين في أمور كثيرة ، اختلفوا في الفقه واختلفوا في الكلام واختلفوا في السياسة وشنع بعضهم على بعض وأسرف بعضهم على بعض في التشنيع ، ولكن أحداً منهم لم يقدم إلى المحاكمة ولم يفرض عليه عقاب شديد أو يسير ... ونحن نقرأ من تشنيع بعض العلماء على بعض طرائف لا تحصى ، نقرأ في كتب ابن حزم مثلاً ان الاشعري كان قد أهدر دمه حين رأى هذا الرأي أو ذاك في الكلام ، وان اصحاب ابي حنيفة قد أهدروا نصوص القرآن وتكلفوا على النبي ما لم يقل من الحديث حين رأوا هذا الرأي أو ذاك في الفقه ... ولكن هذا كله لم يعد أن يكون كلاماً يقال ،

فأما ان يحاكم فقيه أو متكلم على رأي له في الفقه أو الكلام ، وان يكون الذين يحاكمونه من الفقهاء أو المتكلمين ، فذلك شيء لا يعرفه المسلمون إلا منذ انشئت في مصر هيئة كبار العلماء ... وأغرب ما في هذه القصة ان صاحب تلك المقالة في الصوم لم يبتكر شيئاً ولم يقل جديداً ، وإنما سبقه علماء من المسلمين إلى مثل هذا الرأي ... وقد أشرت في أول هذا الحديث إلى انه لم يبتكر تفسير آية الصوم التي اعتمد عليها في رأيه ذاك وانما سبق اليه مفسرون قدماء ذكرت منهم الزمخشري .

وقد سبقه إلى رأيه من الفقهاء القدماء الذين لا يكفرهم الأزهريون جماعة أذكر منهم ابن حزم ، ولست اعرف ان الزمخشري حوكم على تفسيره لهذه الآية الكريمة ، ولا ان ابن حزم قد حوكم على اباحة الافطار والفدية لمن وجد المشقة في الصوم ... ولكن آفة الازهريين المعاصرين انهم يقرأون كتباً بعينها قد فرضتها عليهم ظروف الازهر في بعض العصور ولا يكادون يقرأون غيرها من الكتب التي كتبها علماء الاسلام في العصور الأولى وفي البلاد الاسلامية المختلفة ، وهم من أجل ذلك يحصرون العلم والدين في حدود ضيقة جداً هي حدود الكتب التي يقرأونها والعلم أوسع جداً من هذه الكتب ، والدين أوسع جداً وأسمح جداً مما يسراه الأزهريون . ولولا اني احب الأزهر حباً متأصلاً في نفسي وأرفق بالازهريين كما أرفق بالصديق الحميم لقلت أكثر من

هنا ... ولكني على كل حال اتمنى مخلصاً للازهريين ولعامتهم خاصة ان يقرأوا القرآن نفسه وان يقرأوا الحديث في نصه أكثر مما يقرأون كتب الفقه وكتب المفسرين المتأخرين .

ولست اعرف شيئاً يعلم المسلم سماحة الرأي وسماحة الخلق وأخذ الأمور بالرفق واللين والحكم على الاشياء في غير تكلف ولا تعقيد ، كالامعان في قراءة القرآن الكريم والحديث الشريف ، والاقتصاد في الرجوع إلى المفسّرين والشراح بحيث لا يُرجع اليهم إلا عند الضرورة القصوى .

أما بعد فأظن أني قد بلغت بهذا الحديث ماحاولت من اثبات ان من حق ذلك الشيخ الذي قال مقالته تلك في الصوم ان يجتهد وان يخطئ وان ليس لأحد من الناس وان كانوا شيوخ الأزهر ، وعلى رأسهم صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر ان يحاكمه أو يعاقبه على شيء من ذلك ، وان لهم ان يجادلوه بالتي هي أحسن ، وأن يأمروه بالمعروف وينهوه عن المنكر ويدعوه إلى الخير لا يتجاوزون ذلك إلى أكثر منه لأنهم لا يملكون ان يتجاوزوا ذلك .

أما ما كتبه الأزهريون الذين حاولوا ان يردوا على الحديث الذي نشرته « الجمهورية » لي قبل سفري من مصر ، فليس لي رد عليه إلا قول الله عز وجل : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . وقوله : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » .

حتى بعد الحكم

وكذلك صمم الأزهر الشريف على ما صمم عليه فحاكم وعاقب في غير موضع للمحاكمة ولا للعقاب .

لم يحفل بطبيعة العصر الذي يعيش فيه، ولم يحفل بنصح الناصحين له ، واشفاق المشفقين عليه وتذكير الذين ذكروه بأن الله قد رفع الخطأ عن الناس ، وبأنه يحب العفو والمغفرة ويؤثرهما على السطوة والبطش والانتقام .

ولو ان الذين ذكّروا الأزهر بهذا كله تحدثوا اليه فيه من عند أنفسهم ، لهان اعراضه عنهم واستخفافه بتذكيرهم له ، ولكنهم تلوا عليه آيات من القرآن الكريم ورووا له أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من حق هذه الآيات وهذه الأحاديث ان تجد طريقها إلى قلوب

الشيوخ الاجلاء ، وان تذكرهم بأيام الله وتحبب اليهم البر والمعروف والرفق والتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أحب العفو وحببه إلى الناس والذي طالما ذكر الناس بأن الله قد رفع عن امته الخطأ والنسيان وما يستكره الناس عليه .

أعرض الأزهر عن هذا كله ومضى أمامه راكباً رأسه، لا يلوي على شيء ولا يسمع لانسان ، ولا ينتفع بموعظة . وأكبر الظن ان شيوخ الأزهر يعتقدون أنهم مضوا في ذلك غضباً لدين الله ، وأكبر الظن انهم يحمدون ذلك من أنفسهم ، ويرون أنهم قد أدوا ما عليهم من الواجب فقسوا حيث تجب القسوة ، وسطوا حيث تجب السطوة ، وجعلوا من ذلك الاستاذ نكالاً لغيره من الأزهريين الذين قد تحدثهم نفوسهم بأن الله قد خلقهم أحراراً ووهبهم عقولاً ، وأمرهم أن يتفكروا ويتدبروا ، ويعملوا عن تفكر وتدبر لا عن محاكاة وتقليد . يخطئون احياناً فيغفر الله لهم خطأهم ويصيبون أحياناً فيكتب الله لهم صوابهم ويثيبهم عليه أحسن المثوبة .

وقد أصبح ذلك الاستاذ بالفعل نكالاً لزملائه من رجال الازهر ، فلن يحاول بعد اليوم واحد منهم أن يفكر أو أن يكتب أو أن ينشر رأياً في أمر من أمور الدين ، حتى يحسب لمحاكمة الأزهر وعقابه حساباً أي حساب ، سيفكر الأزهريون إذن في سطوة الناس قبل ان يفكروا

في سطوة الله ، وفي عقاب الناس وثوابهم قبل أن يفكروا في ثواب الله وعقابه ، وسيتحرون رضى الشيوخ قبل أن يتحروا رضى أنفسهم وضمائرهم وعقولهم .

وقد يرون الخطأ وينكرونه فيما بينهم وبين أنفسهم وفيما بينهم وبين ربهم ، ولكنهم يذعنون له ويسكتون عليه ويظهرون العمل به والرضى عنه ، مخافة ان يتعرضوا لمثل ما تعرض له ذلك الاستاذ من التشهير به والتشنيع عليه والمحاكمة له وأخذه بالعقاب .

وكذلك يُفرض التقليد على الازهريين فرضاً ويغريهم خوف الفتنة بالتورط في الفتنة . واي فتنة أشد نكراً وأقبح في حياة الناس اثراً من أن يعتقد الانسان انه يرى الحق ثم يكتمه عن الناس ، ومن ان يعتقد الانسان انه يرى الباطل ثم لا يحذر الناس منه ولا يصدّهم عنه ، وإنما يخلي بينهم وبين ما هم فيه غير حافل بعواقب هذا التقصير في ذات الله والتفريط في جنبه ، لا لشيء إلا لأنه يخشى ان يقدم للمحاكمة أو يؤخذ بالعقاب .

قدوة سيئة كنا نتمنى أن يكون الأزهر آخر من يقدمها إلى الناس ، وكنا نتمنى أن يكره الأزهر لنفسه ولرجاله احتمال أوزارها وأوزار من يتأثر بها من غير الأزهريين . ومع ذلك فقد كان ما أراد الأزهر أن يكون وحوكم أستاذ من أساتذة الأزهر ، وعوقب لا لأنه خالف عن قانون من قوانين الازهر ، ولا لأنه خالف عن نص من

نصوص القرآن ، ولكن لأنه حاول أن ينصح الاسلام والمسلمين فأخطأ طريق الصواب فيما رأى شيوخ الأزهر .
ووقع كل هذا في القرن العشرين وفي عهد يعتقد المصريون فيه أنهم قد تخففوا من أثقال الماضي وأوزاره ، وتحرروا من قيود الماضي وأغلاله ، وتهيأوا لاستقبال حياة جديدة تقدر فيها كرامة الناس افراداً وجماعات ، وحق الناس في أن يحتملوا تبعاتهم أحراراً كراماً ، لا يُحملون على غير ما يريدون ولا يؤخذون بغير ما يريدون ولا يفرض عليهم الرأي فرضاً ، ولا يعاقبون على الخطأ الذي لا يعاقب الله عليه .
والشر العظيم بعد هذا كله هو ان الازهر يتلقى الوفاً كثيرة من الطلاب يلتحقون به في آخر الصبا وأول الشباب ، وينفقون فيه صفوة أعمارهم ويتأثرون فيه بهذه التقاليد التي لا تلائم العصر الذي يعيشون فيه ، ولا تلائم البيئة التي يعيشون فيها ، ولا تلائم الصريح الصحيح من دين الله كما انزله في كتابه العزيز وكما فصله في لسان نبيه الكريم وسيرتـه .
وكذلك ينقسم شباب الأمة المصرية إلى فريقين : فريق يقلد بحكم القانون ويحاكم ويعاقب ان خالف عن هذا التقليد ، وفريق آخر يحرره التعليم من كل تقليد في الرأي ويعرفه كرامته ويزين في قلبه حبها والذود عنها واحتمال المكروه في سبيلها ، وتشطر الامة بذلك شطرين :

شطر المحافظين الذين لا يجوز لهم ان يجتهدوا ولا ان يخطئوا .

وشطر الاحرار الذين يجوز لهم بل يفرض عليهم الاجتهاد ويجوز الخطأ والصواب جميعاً .

وليس بد لمصر من أن يأتلف ابناؤها على مذهب واحد في الحياة العقلية ، فاما الحرية الكريمة الخصبة واما المحافظة المهينة العقيم .

احدى اثنتين ، إما ان تسلك الجامعات والمعاهد العلمية سبيل الأزهر فتعاقب على الخطأ وتثيب على التقليد .

واما ان يسلك الازهر سبيل الجامعات وسبيل المسلمين الأولين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فيبيح لرجاله وابنائه ان يكونوا كراماً أحراراً ، لا يحاكمون إلا حين يعتدون على حقوق الناس أو يتجاوزون الحدود التي أمر الله بعقاب من يتجاوزها .

فأما ان ينقسم المصريون هذا الانقسام إلى المستمسكين بالمحافظة في أبغض صورها إلى الله والناس ، والمستمسكين بالحرية التي تليق بكرام الناس والتي يجب على الدولة أن تتيحها لهم وتحفظها عليهم وتحميها من كل عدوان، فهذا هو النكر كل النكر وهو الشر الذي يجب على الدولة ان تتجنبه وان تحمي الشعب من نتائجه وعواقبه . . . . . .

لن يصبح الامر مقصوراً على قصة الصوم تلك التي حوكم فيها وعوقب عليها ذلك الاستاذ ، ولكنه سيتجاوز هذه

القصة إلى الرأي كله في أي أمر من أمور الدين أولاً ، ثم في أمور الدنيا بعد ذلك، والله لا يحب التقليد في أمور الدين ولا في أمور الدنيا ، لأنه لم يمنح الناس عقولهم عبثاً ، ولم يكلفهم التدبر والتفكر إلاّ وهو يعلم انهم بطبيعتهم معرضون للخطأ والصواب حين يتفكرون ويتدبرون .

وقد شكت مصر في العصر الحديث من هذا الانقسام إلى الاحرار والمقلدين ، وجنت من هذا شراً أي شر . وهل كان شقاء الشيخ محمد عبده رحمه الله إلاّ أثراً من آثار هذا الانقسام ؟ تحررَ في بيئة لم تكن تحب الحرية ، فلقي من المكر به والكيد له والتألب عليه شيئاً عظيماً . ومع ذلك لم يستطع الأزهر أن يحاكمه ولا أن يعاقبه وإنما خاصمه وجادله ، وآذاه بعض الازهريين بألسنتهم وأقلامهم ، فلم يضروه ولم يضروا حريته شيئاً ، بل تأثر به كثيرون من شباب الأزهريين ، ففكروا في أمور الدين والدنيا أحراراً كراماً ، ونفعوا وانتفعوا بهذا التفكير الحر الكريم .

أليس غريباً ان تقصر يد الأزهر عن محاكمة الاستاذ الامام رحمه الله ، على كثرة ما ضاق به الازهر وعلى كثرة ما كاد له الشيوخ وعلى كثرة ما سخط عليه السلطان، وان يتاح ليد الازهر ان تطول وتطول حتى تحاكم استاذاً على انه قال في الصوم مقالة لم تعجب الشيوخ بعد أن مضى

على وفاة الأستاذ الإمام نصف قرن ؟

كم أحب ان اعلم أنمضي نحن إلى الامام أم نرجع إلى الوراء ؟ أيكون أول القرن الذي نعيش فيه اسمح سماحة واكثر حرية من منتصفه ؟

وهذا الحكم الذي أصدره الأزهر على الاستاذ ما قيمته وما نتيجته ؟ أيظن شيوخنا الاجلاء انهم حين يمنعون ذلك الاستاذ من التعليم سيكفون شره عن الناس ان كان شريراً ؟

إنهم قبل كل شيء لن يغيروا طريقته في التفكير ولا مذهبه في قراءة النصوص وفهمها واستنباط الاحكام منها والتعرض للخطأ مرة وللصواب مرات . وهم لن يمنعوه من ان يلقى الناس ولا من ان يتحدث اليهم ولا ان يكلمهم في أمور الدين كما يكلمهم في أمور الدنيا . وعسى أن يكون الحكم عليه مغرياً للشباب بلقائه ، والتحدث اليه والاستماع له والاخذ ببعض آرائه ، وعسى أن يكون هذا الحكم مشجعاً له على ما كان الازهر يريد لأن يصده عنه .

ألم يكن الخير كل الخير والمصلحة كل المصلحة في ان يؤخذ هذا الأستاذ بالرفق والنصح ، وان يؤمر بالمعروف امراً يصدر عن الحب في ذات الله والاخلاص لرجل من المسلمين ؟ والشيوخ يقولون انهم دعوه إلى الخير فأبى عليهم وأرادوا أن يجادلوه فرفض الجدال .

أحق هذا ؟ كلا ليس هذا من الحق في شيء . إنهم لم يدعوه إلى الخير وانما دعوه إلى التحقيق ، ولم يأخذوه بالنصح وإنما أخذوه بالطاعة والاذعان ، ولم يأمروه بالمعروف وإنما أمروه بالتقليد . وليس التقليد من المعروف في شيء .

ليُصدّقني رجال الازهر ان قصتهم هذه فتنة نرجو ان يقي الله المسلمين شرها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا أعيد النظر في قوانين الازهر وحُرّم عليه تحريماً ان يعاقب الناس على الخطأ في الرأي .

ولتُصدقني الحكومة ان عليها للدين وللناس واجباً ، وانها تسرف على نفسها وعلى الناس إذا قصرت أو تأخرت في اداء هذا الواجب ، وهي أن تحمي الناس من المحاكمة على آرائهم في العلم والدين ومن عقابهم على الخطأ في العلم والدين أيضاً .

من حق الازهر ومن الحق عليه ان يقول للمخطئ في أمر من أمور الدين اخطأت ، وان ينهى الناس عن مجاراته في الخطأ ، وان يقول للمصيب في أمر من أمور الدين أصبت ، وان يدعو الناس إلى مجاراته في الصواب ، فأما ان يحاكم المخطئ ويعاقبه فلا .

وأنا بعد هذا كله أدعو رجال الازهر أن يدلونا على نص في كتاب الله أو في سنة رسوله تبيح لهم ان يحاكموا الناس ، أو يعاقبوهم على الخطأ الذي وعد الله بالعفو عنه

إذا تاب المخطئون وأصلحوا ، بل إذا تاب الخاطئون وأصلحوا . وما أعظم الفرق في دين الله بين المخطئين والخاطئين ! وبيننا وبين شيوخنا أصلح الله بالهم ، آيات كثيرة في القرآن الكريم ذكرت بعضها فيما قدمته من حديث . واكتفي الآن بهاتين الآيتين الكريمتين :

يقول الله عز وجل في سورة الانعام : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم » .

ويقول الله عز وجل في سورة الاحزاب : « وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً . »

بهذا تحدث الله إلى عباده رؤوفاً بهم عطوفاً عليهم ، وبغير هذا تحدث الشيوخ إلى زملائهم وساروا فيهم . أما أنا فلا أصدق ولن أصدق إلا حديث الله عز وجل ومن أصدق من الله حديثاً ؟

الخطوة الثانية

كانت خطوة رائعة تلك التي خطتها الحكومة حين قررت توحيد القضاء ، فحققت حلماً كان يداعب نفوس الناس منذ زمن بعيد ، ولكن الاوهام كانت تحول بين الحكومات الماضية وبين تحقيقه . وقد قال الناس في توحيد القضاء فأكثروا واشعروا الحكومة بأنها كانت موفقة حين اتخذت هذا القرار ، معبرة عن ارادة الشعب وعن ارادة المثقفين منه بنوع خاص . وما أريد ان أعيد الحديث في هذا الموضوع فقد يحسن ألا يشغلنا ما كان عما ينبغي ان يكون :

وما دام توحيد القضاء قد أصبح حقاً واقعاً فلندع الحكومة الى أن تخطو خطوة ثانية ليست أقل منها خطراً ، وعسى ان تكون أبعد منها أثراً فيما ينبغي للحكومات الرشيدة

أن تفكر فيه وتسعى اليه ، وهو توحيد الأمة وتقريب ما بين أبنائهـــا من الآماد ، لا أقول في حياتهم الاجتماعية والسياسية وحدها بل في حياتهم العقلية . لأن هذه الحياة هي أساس التفكير وهي قوام العمل وهـي التي تتيـح للشعب ان يفكر تفكيراً متجانساً ، وان يعمل عملاً مطرداً لا ينافي بعضه بعضاً ولا يلغي بعضه بعضاً ، وهذه الخطوة الثانية هي توحيد التعليم في طور الصبا والشباب .

وأنا أعلم ان هذه الدعوة ستثير سخط فريق من المحافظين وربما اقضت مضاجع أفراد منهم ، ولكن المحافظين في كل بلد مستيقظ يعرف نفسه ويهيىء مستقبله ويجاري التطور مقضيّ عليهم ان يسخطوا دائماً لأنهم يحبون الوقوف والدنيا من حولهم تحب الحركة ، وربما أحب فريق منهم الرجوع الى الوراء والدنيــا من حولهم تحب المضي الى أمام . فهم مضطرون الى هذه الحياة التي لا تعرف رضى ولا اطمئناناً يؤثرون الكسل ، والحياة تؤثر النشاط ؛ ويحرصون عـلى القديم كله والحياة حريصة على التجديد وعلى ألا تستبقي من القديم الا ما يصلح للبقــاء ولا يناقض التطـور ولا يؤخره . وهذه الخطوة الثانية ليست جديدة وليست قديمة ، فقد فكرنا فيها منذ زمن بعيد وتحدث بها بعضنا الى بعض في مجالسنا الخاصة ، ودعا اليها بعضنا في الصحف ، شأنها في ذلك كشأن الخطوة الاولى التي خطتها الحكومة حين قررت توحيد القضاء . فلن ينكرها أحد من الذين يقدرون التطـور

ويفهمون حياة الشعوب حق فهمها ويريدون الرقي مخلصين له مصممين عليه .

وأقول كذلك ان هذه الخطوة الثانية ليست قديمة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . فقد عاش المسلمون قروناً لا يعرفون هذا التفريق الذي نعرفه بين حياة الدين وحياة الدنيا ، وانما يجمعون بينهما لأن الله قد جمع بينهما ، فأرسل رسوله الى الناس كافة وفرض أحكامه على الناس كافة ، وواجب عليهم جميعاً ان يكونوا مؤمنين صادقين يعرفون من حقوق الله ومن حقوق الناس ما يجب ان يعرفوا ، حتى لا يفرّطوا في جنب الله ولا يقصروا في ذات الناس .وحتى يتحقق العدل الشامل الذي أراد الله ان يكون قواماً لحياة الناس . ولم يعرف المسلمون في عصورهم الاولى هذه الحياة التي نعرفها نحن الآن ، والتي تأخذ الصبي من حياته العاملة لتضطره شطراً طويلاً من عمره الى نشاط خاص لا يشاركه فيه غيره من المواطنين ، يفرغ فيه منذ صباه الاول لعلوم اللغة والدين ، حتى اذا تجاوز الصبا وأضاع زهرة الشباب أصبح رجلاً من رجال الدين لا يحسن غير القول في شؤون الدين ولا يستطيع ان يتصرف في غيرها من الشؤون ، ويكون مع أمثاله الذين فرض عليهم مثل ما فرض عليه من النشاط طبقةً تمتاز من سائر الطبقات ، في تفكيرها وفي سيرتها وفي استقبالها للاحداث وتأثرها بها وحكمها عليها ؛

كل هذا جديد في الاسلام لم يعرفه المسلمون إلا بعد

أن تصرمت قرون من حياتهم واخذت أمورهم تجمد ، ثم تقف ثم يعلوها الصدأ . وتستطيع ان تنظر في تاريخ الأعلام من رجال الدين في القرون الاسلامية الأولى ، فسترى أنهم كانوا ينشأون كما كان ينشأ غيرهم من الصبية ، ويشبون كما كان يشب أترابهم من الفتيان ، ويتصرفون في شؤون الحياة ، كما كان يتصرف فيها غيرهم من الناس . حتى اذا أتيح لأحدهم ان يتقن فناً من فنون العلوم الدينية ، أخلص له عقله وقلبه ولم تمنعه ذلك من ان يعيش عيشة غيره من العلماء ، يكسب قوته كما يكسبه غيره من الناس بالسعي فيما يتيح له هذا القوت من تجارة أو صناعة أو غير ذلك من أنواع النشاط ، فكانوا رجال دين ورجال دنيا لا تشغلهم دنياهم عما أحبوا من العلم ولا يشغلهم علمهم عما يقيم حياتهم من السعي واكتساب القوت . وكانوا يفكرون كما يفكر الناس لا يمتازون بتفكير خاص ، وانما يمتازون بعقولهم وبما تثمر هذه العقول مما ينفع الناس ويمتازون بقلوبهم وبما تؤثر هذه القلوب في سيرتهم العملية فتجعلهم أسوة حسنةوقدوة صالحة لغيرهم في ممارسة الحياة . والنظر في تراجم أعلام الفقهاء والمحدثين والمتكلمين تقنعك بهذا كله في غير مشقة ولا عناء . ولولا ان الفقهاء مارسوا الحياة كما يمارسها الناس جميعاً لما استطاعوا ان يستنبطوا لها أحكامها التي سجلت في الكتب ، والتي يقرأها شيوخنا وتلاميذهم الآن ، قراءة غير

متقن لها ولا محقق للواقع من أمرها ، وانما هو كلام تجري به الالسنة وتدور حوله الاحاديث ، فاذا حققناه لم نجد أو لم نكد نجد وراءه شيئاً . ولولا أن المتكلمين قد مارسوا الحياة كما يمارسها غيرهم من الناس لما عرفوا فلسفة الفلاسفة ولا علم العلماء ، ولما استطاعوا ان يلائموا بين حاجة الدين الى من يصونه ويرد عنه الشبهات وبين هذه الحياة الصاخبة المختلطة التي كانوا يحبونها ، ومن حولهم أصحاب المذاهب الطارئة والآراء الغريبة والمذاهب المختلفة في تفسير الكون وظواهره .

ولا نعرف عالماً من علماء المسلمين في القرون الاولى فُرض عليه ان ينقطع للون بعينه من ألوان الدرس ، حتى ضُرب بينه وبين غيره من الناس بحجاب من هذه الحجب الصفاق التي ضربت بين شيوخنا وبين العصر الذي نعيش فيه .

واذن فقد آن لمصر من جهة ان تلائم بين حياتها الجديدة المتطورة ، وبين ان تنشيء هذه الاجيال التي تفرغ لدراسة الدين من أبنائها ، بحيث لا يقتطع هؤلاء الابناء من الحياة العامة ومن الظروف التي تحيط بهم ، ويكونون فريقاً لا هو بالقديم ولا هو بالجديد ، لا هو بالمحافظ ولا هو بالمجدد ، وانما هو شيء مختلط يفكر كما كان الناس يفكرون منذ قرون ويعيش في حياته المادية كما يعيش المعاصرون له ، يركب السيارة والقطار والطائرة ويصطنع البرق والتلفون

ويتمتع بالمطبعة ، فهو من هذه الناحية رجل من أبناء هذا العصر . فاذا تحدثت اليه في شأن من شؤون الحياة الواقعة لم يفهم عنك ولم تفهم عنه لأن بينك وبينه استاراً كثافاً .

هو يقلد القدماء في تفكيره ويقلد المحدثين في حياته العملية ، وقد فرض على عقله ان يعيش غريباً في وطنه وبين معاصريه ، لا لشيء الا لأنه اقتُطع من بيئة وزُج به في هذه الحياة الخاصة التي يحياها رجال الدين ، فانقطعت الصلة بينه وبين حياة الأمة كلها واصبح قريباً منها غريباً عنها .

والامر لا يقف عند هذا الحد ولكنه يتجاوزه الى شيء خطير جداً بالقياس الى الدين نفسه . ويكفي ان تنظر الى رجال الدين من شيوخنا والى رجال الدين في البلاد المسيحية فسترى الفرق بين العجز والقدرة ، وبين الجمود والنشاط ، وبين القصور والتصرف في كل شؤون الحياة . وفي مصر نفسها من رجال الدين المسيحيين من لم يمنعهم تخصصهم في علوم الدين من ان يتقنوا ألواناً من العلوم المدنية العليا : في مصر رهبان تخرجوا في مدارس الهندسة ، وفيها رهبان تخرجوا في مدارس الصيدلة ، وفيها غيرهم تخصصوا في ضروب أخرى من المعرفة المدنية وهم على ذلك قد أخلصوا أنفسهم للدين وفارقوا أوطانهم للبحث والدرس والتخصص في أشياء لا تتصل بالدين ، ولكن الدين لا يحظر عليهم

ان يتخصصوا فيها . وانا اعرف راهباً تخرج في ارقى مدارس الهندسة بفرنسا وتخصص في علوم الدين واخلص نفسه له ولم يمنعه ذلك من ان يتعلم العربية ويبحث في تاريخ الرياضة عند العرب ويقيم في مصر لهذا الغرض .

وقد عرف المصريون مديراً لمصلحة الآثار كان قسيساً. وفي مصر راهب آخر تخصص في الصيدله وله معمل صغير في الدير الذي يعيش فيه ، وقد حاضر في بعض كلياتنا المدنية ولم يمنعه ذلك من ان يفرغ للدين ويتخصص فيه ويدرس مع هذا كله علم الكلام الاسلامي والفلسفة الاسلامية ويشارك أخصب مشاركة في نشر آثار الرئيس ابن سينا .

وقد كان علماء الاسلام في العصور القديمة ينهجون هذا النهج ويسيرون هذه السيرة لا يمنعهم تخصصهم في علوم الدين من ان يمارسوا الفلسفة وألواناً من الصناعات . فما يمنع شبابنا الأزهريين ان يسلكوا سبيل القدماء من أسلافهم وسبيل المحدثين من رجال الديانات الاخرى . وان ينفعوا بذلك أنفسهم وينفعوا الناس ويشاركوا في الحياة مشاركة العالم بها الخبير بدقائقها ؟ الجواب على ذلك يسير ، وهو ان شبابنا الازهريين لا يتعلمون كما يتعلم الناس وكما ينبغي ان يتعلم الناس . أي انهم في طور الصبا والشباب يقتطعون من بيئتهم اقتطاعاً ويفرغون لفنون من النشاط لا تغني عنهم ولا عن مواطنيهم ولا عن الدين نفسه شيئاً .

ولست أدري ما الذي يمنع شبابنا الازهريين من ان يسلكوا سبيل غيرهم من أترابهم فيتخرجوا في المدارس الابتدائية العامة أولاً ، وفيما شاء الله من المدارس الثانوية والكليات الجامعية بل من المدارس الفنية أيضاً . ثم يتخصصوا بعد ذلك فيما يشاؤون ان يتخصصوا فيه من علوم الدين .

ولمَ يوجد بين علماء الدين المسيحيين قسيس طبيب وقسيس مهندس وقسيس أثريّ ولا يوجد أمثالهم بين رجال الدين المسلمين ؟

هذه مشكلة يجب ان تفكر فيها الدولة وان تواجهها في عزم وتصميم ، كما واجهت مشكلة القضاء وان تحلها في عزم وتصميم أيضاً ، كما حلت مشكلة القضاء . وسبيل ذلك واحدة لا ثانية لها ، وهو ان يوحد التعليم العام بحيث لا يكون هناك فرق بين من يريد انّ يفرغ للدين ، ومن يريد ان يفرغ للدنيا ، وان يكون التخصص بعد انقضاء الطور الاول من اطوار الشباب .

هذا حديث لا أوجهه الى الازهريين لاني أعلم ان الشباب من علماء الأزهر وطلابه مقتنعون به متمنّون له داعون اليه ، وانما أوجّهه الى الحكومة التي خطت خطوتها الاولى فوحدت القضاء ، لعلها ان تخطو خطوتها الثانية فتوحد التعليم .

بل يجب أن تكون الخطوة الثانية

احدى اثنتين ، إما ان يكون السادة الأزهريون قد فهموا عني حق الفهم حين طلبت الى الحكومة ان تخطو الخطوة الثانية وتوحد التعليم الابتدائي والثانوي كما وحدت القضاء ، واذن فهم يقولون غير الحق حين يزعمون اني طالبت بالغاء التعليم الديني . لأني لم أطالب بذلك، ولم أفكر فيه ، ولا يمكن ان أطالب بـه أو أفكر فيه . وليس في المقال الذي يعارضه هؤلاء الشيوخ ما يدل على اني أطالب به او افكر فيه.

واذن فهم قد انحرفوا عما يأمرهم به الدين من الصدق في القول والعمل ، ومن اجتناب التكلف والتزيد والتصنع والتحدث عن الناس بما لم يقولوا وبما لم يدعوا اليه سراً

ولا جهراً .

وإما ان يكون هؤلاء السادة من الشيوخ قد قرأوا فلم يستوعبوا ما قرأوا ولـم يفهموه حق فهمه فخاصموا في الغاء التعليم الديني من لم يخاصمهم فيه ، وأقاموا الدنيا وأقعدوها لوهم توهموه ، واشياء اخترعوها من عند أنفسهم . واذن فهم في حاجة الى ان يقوّم تعليمهـم بحيـث يقـرأون فيستوعبون القراءة ويفهمون فيحسنون الفهم ، ولا سيما حين يكون الكلام الذي يقرأونه واضحاً لا لبس فيـه ولا غموض ولا التواء . وهم يعلمون حق العلم ان الحكومة حين الغت المحاكم الشرعية ووحدت القضاء لم تلغ الشريعة الأسلامية ولم تفكر في الغائها ، وما كان لها ان تفكر في هذا الالغاء . فاذا طالبتُ الحكومة بأن تخطو في سبيل توحيد التعليم خطوة مثل خطوتها في توحيد القضاء ،فليس معنى ذلك انني أطلب اليها الغاء التعليم الديني ، وإنما معناه اني اطالب اليها اصلاح هذا التعليم بتمكين الاجيال الناشئة من ان تتفق وتتقارب في الشعور والثقافة ومقومات الحياة العقلية ، لتفهم الدين حق فهمه حين تتهيأ للتخصص فيه ، ولتنهض بأعبائها الدينية عن فقه صحيح لها وبصر دقيق بها واخلاص صادق في اداء واجباتها للدين أولاً وللمسلمين بعد ذلك . فأين يكون هذا من المطالبة بالغاء التعليم الديـني كما تكلف الشيوخ ؟ والحكومة بالطبع لم تقصد الا الى الاصلاح حين وحدت القضاء . رأت في ذلك منفعة للناس

ودقة في تحقيق العدل ووسيلة الى تحقيق الوحدة بين المواطنين في الاستمتاع بهذا العدل . فاذا بيّنا لها ان توحيد التعليم الابتدائي والثانوي في الوطن الواحد وسيلة الى الاصلاح وضرورة من ضروريات هذا الاصلاح ، لم نأثم في ذات الدين ولم نأثم في ذات الحكومة ولم نأثم في ذات الازهر نفسه ، إلا أن تكون المطالبة باصلاح الازهر اساءة اليه وجناية عليه واثماً يكرهه الله ويكرهه المسلمون .

وما أعرف وما أظن مسلماً يعرف ان للازهر عصمة دينية أو غير دينية – تجعله فوق الاصلاح وتجعله مصوناً يعاقب الداعون الى اصلاحه بالشتم والتنقص . ومن يدري لعلهم ان يعاقبوا بالمحاكمة أيضاً أمام مجلس من هذه المجالس الازهرية التي تستبيح لنفسها ان تحاكم الناس على الخطأ في الرأي ، وتصب عليهم العقاب لانهم رأوا ما لا يحب الشيوخ .

وقد حاول الناس اصلاح الازهر من قبل ، وقيل فيهم مثل ما يقال الآن في الذين يدعون الى الاصلاح . وقد مضى وقت كانت محاولة الاصلاح للازهر كفراً ، وكان التفكير فيه اثماً ، وكان الكيد فيه للمصلحين مظهراً من مظاهر النصح للدين . والناس لم ينسوا بعدُ قصة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله . ولكننا كنا نظن ان هذا العصر قد انقضى وان الناس يستطيعون الآن ان يطالبوا بالاصلاح في الازهر كما يطالبون بالاصلاح في الجامعات

وغيرها من معاهد التعليم .

ولست أدري متى يفرق الازهريون والشيوخ منهم خاصة بين أنفسهم وبين الدين ، بل لست أدري متى يفرق الأزهريون بين الأزهر الشريف نفسه وبين الدين . فالأزهر معهد من معاهد العلم لا أكثر ولا أقل ، يجوز عليه ما يجوز على هذه المعاهد ، ولا يعصمه تخصصه بتعليم الدين من ان يتعرض للخطأ ومن أن يصيبه الضعف ومن ان يطالب الناس باصلاحه ، ليبرأ من الخطأ والضعف جميعاً بمقدار ما يتاح لاعمال الناس ان تبرأ منهما . ومن العناء حقاً ان نضطر بعد مضي السنين الطوال الى ان نبديء ونعيد في الاشياء البديهية ، لان قوماً لا يفهمونها أو لا يريدون ان يفهموها . وليس أدل على حاجة الأزهر الى الاصلاح والى الاصلاح بتوحيد التعليم خاصة ، من هذه الخصومة المضحكة المحزنة بين الشيوخ وبيني حول هذا الموضوع . فلو قد تعلم الشيوخ كما يتعلم الناس لما كتب كاتبهم هذه الاحاديث ، ولما فهموا ان المطالبة باصلاح الأزهر دعوة آثمة الى الغاء التعليم الديني . ولو قد تعلم الشيوخ كما يتعلم الناس لما قال قائلهم : انه وزملاءه قد درسوا العلوم المدنية مفصلة كما لم يدرسها أحد . فدرسوا الحساب والجبر والهندسة والجغرافيا باقسامها الطبيعية والسياسية والاقتصادية ، ودرسوا علم الحيوان بفروعه كلها واجروا عمليات التشريح في المعامل ، ودرسوا الطبيعة والكيمياء . ودرسوا علم

النفس التربوي والاجتماعي والجنائي ، ودرسوا الفلسفة القديمة والحديثة ، والمنطق القديم والحديث ، وعلوماً أخرى لا أكاد أحصيها. ولست أدري إن صح هذا كله ماذا تنتظر الحكومة ، وما لها لا تلغي جامعاتها ومدارسها ومعاهدها على اختلافها وتحول التلاميذ والطلاب جميعاً الى الازهر ليدرسوا فيه هذه العلوم ، وغير هذه العلوم ، مفصلة كما لم يدرسها أحد وليتخصصوا مع هذه العلوم كلها في علوم الدين واللغة على اختلافها ، ليكون كل واحد منهم دائرة من دوائر المعارف تغدو وتروح وتذهب وتجيء وتملأ الارض كلها علماً بعد ان ملئت جهلاً .

لو تعلم الازهريون كما يتعلم الناس لما قال قائلهم مثل هذا الكلام الذي لا يقوله عالم جدير بهذه الصفة . فالعالم الصحيح يمتاز قبل كل شيء بأنه يشعر دائماً بالقصور والتقصير ، ولا يضيف الى نفسه هذه الاحاطة الكاملة الشاملة التي لا تتاح لعالم من العلماء ٥

من أجل هذا كله نطالب باصلاح الازهر وبتوحيد التعليم الثانوي والابتدائي في الدولة كلها ، على ان يفرغ للتخصص في علوم الدين من يريد، وعلى الا يكون التخصص في علوم الدين مانعاً لصاحبه من المشاركة في حياة الناس العملية والعقلية ان شاء .

والعالم الصحيح يتجنب الخوض فيما لا يحسن ، وليس من الحق في شيء ان التخصص في علوم الدين المسيحي يسير

قريب المنال كما يظن ذلك الشيخ الجليل ، وانما الحق ان علوم الدين المسيحي عميقة واسعة متنائية الاطراف بعيدة المنال تكلف أصحابها جهوداً لا تخطر للشيخ وامثاله على بال . ولكن نقص التعليم في الازهر هو الذي أتاح للشيخ ان يقول مثل ما قال . ولو قد تعلم الشيوخ كما يتعلم الناس ، لما توهموا ان المطالبة بتوحيد التعليم تعرّض حفظ القرآن للخطر . ففي الارض بلاد اسلامية ليس فيها الأزهر ، وليس للازهر عليها سلطان ، ولم يهمل فيها مع ذلك حفظ القرآن ، ولم تهمل فيها مع ذلك علوم الدين . ولكن الشيخ يرسل الكلام ارسالاً في غير تحفظ ولا احتياط ، لا لشيء الا لانه يتعلم كما يتعلم الناس وانما عاش وما زال يعيش في القرون الوسطى ، والناس يحيون في العصر الحديث ؛ وهو بالطبع قد عرف من هذه العلوم التي ذكرها وذكرها غيره من زملائه أسماءها وظاهراً من أطرافها ولكنه لم يتعمق شيئاً منها ولم يدرسها مفصلة ، ولو قد فعل لما قال هذا الذي يقول .

والامر بعد ذلك أيسر من كل هذا الخصام الذي لا يفيد ولا يغني عن أحد شيئاً . فاذا كان التعليم الابتدائي والثانوي في الازهر مطابقين بالفعل للتعليم في مدارس الدولة في كل ما يتصل بالعلوم المدنية ، فقيم تعدد الشهادات والاجازات ؟ ولم لا يتقدم الازهريون إلى امتحانات الدولة ليظفروا بشهاداتها واجازاتها ويشاركوا في تعليمها العالي لا

يشُردون عنه ولا يحال بينهم وبينه ؟

وما مصلحة الأزهر في أن ينفرد بالاشراف على ما لا يحسن من العلم ؟ وما يمنع الازهر من أن يخضع في هذه العلوم المدنية لاشراف الدولة ونصحها وتوجيهها ليفتح لطلابه أبواباً من النشاط ما زالت مغلقة دونهم ؟ والدولة بعد ذلك ليست غريبة عن الازهر . فالأزهر مصري ، والدولة مصرية ، وللدولة السيطرة على التعليم كله في أرض الوطن ، وفيه التعليم الأجنبي . فمن أين يتاح للازهر هذا الامتياز الذي يضر ابناءه ولا ينفعهم ، يضرهم في حياتهم العملية والعقلية جميعاً .

والدولة تنفق على الأزهر وترسل اليه المعلمين الذين يدرّسون لابنائه العلوم المدنية ، فما يمنعها من أن تشرف على هذا التعليم لتستوثق من انه يحقق المصلحة الوطنية التي تقوم عليها وترعاها وتنفق عليها أيضاً ؟

ألا يوافق الشيوخ على ان هذا من الأوليات التي لا ينبغي أن تكون موضوعاً للخصام فضلاً عن الجدال وفضلاً عن الشتم واطالة الألسنة ؟

والغريب ان يظن الأزهريون اني اجهل مكانة الأزهر وخطره في الحياة المصرية خاصة وفي الحياة الاسلامية عامة . ولو قد قرأوا بعض ما نشر لي من الكتب لعرفوا اني سبقتهم جميعاً إلى التنويه بمكانة الأزهر وتنبيه الدولة إلى انه مجد لمصر يجب أن يرعى وان تشمله العناية الكاملة من

الحكومة والشعب جميعاً . ولكن الشيوخ يدرسون العلم كله مفصلاً ولا يقرأون ما يكتب عن معهدهم وينشر في اقطار الأرض ويترجم إلى بعض اللغات الحية الكبرى . ذلك فيما أعتقد لأنهم لا يتعلمون كما يتعلم الناس .

ليصدقني الشيوخ ولتصدقني الحكومة قبل الشيوخ ان توحيد التعليم الابتدائي والثانوي واجب وطني لا ينبغي التقصير فيه ولا التأخير في ادائه . وشباب الأزهريين شيوخاً وطلاباً يريدونه ويطالبون به ويلحون فيه . فلتخط الحكومة خطوتها الثانية وليس عليها في ذلك بأس ولا جناح :

الخطوة الثانية وإن غضب الغاضبون

عفا الله عن هؤلاء الشيوخ الاجلاء من علماء الأزهر الشريف الذين يجادلون في الخطوة الثانية فيسرفون على أنفسهم وعلى قرائهم في الجدال ، وهم يقرأون في كتبهم ان الله لا يحب الاسراف وان خير الأمور أوساطها وان المنبتّ لا ارضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

وهم حين يسرفون على أنفسهم وعلى الناس لا يخالفون عن أصول الاخلاق التي تُستحب للرجل الكريم ولا سيما حين يكون من رجال الدين فحسب ، وإنما يخالفون عن أمر الدين نفسه وهم يتلون قول الله عز وجل « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وانتم تتلون الكتاب فلا تعقلون» . ذلك ان الدين يأمرهم بالا يقولوا على الناس غير

الحق وهم يقولون عليّ غير الحق حين يلحون في اني أطالب بالغاء التعليم الديني في مصر .

ومع اني قد الححت في اني لا أطالب بالغاء هذا التعليم الديني ولم أطالب به قط ، فهم ما يزالون يبدئون ويعيدون في هذا الكلام لأنهم لا يريدون ان يحقوا حقاً أو يبطلوا باطلاً كما يريدهم الله على ان يفعلوا لأنهم من رجـال الدين ، وانما يريدون ان يشنعوا ويشهروا ويثيروا الناس ويذكوا غيرتهم على الدين وحرصهم على رعايته وحمايته . يفعلون ذلك وهم يعلمون حق العلم انهم يخالفون عن حق ويخالفون عن أمر الدين ، ولا يعنيهم إلا أن يشفوا صدورهم من صديق للازهر يرونه له خصماً .

وشيوخ الأزهر لا يقفون عند هذا الحد ، ولكنهم وشيخهم النمر خاصة يورطون أنفسهم في إثم آخر لا يحبه الله ، وقد عاب به قوماً لا أذكرهم هنا لأني لا أريد أن اسوء الشيوخ ولكنهم يعرفونه حق معرفتهم لأن الله يقول لهؤلاء القوم : « افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » .

ويقول فيهم أيضاً : « وهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه » . وقد كتبت مقالين عن هـذه الخطوة الثانية لم أذكر فيهما تصريحاً ولا تلميحاً اغلاق الأزهر ولا الغاء التعليم الديني فيه ولا الغاء التعليم الديني في غيره من المدارس والمعاهد على اختلافها . فما حكم الله في اولئك

الذين يقرأون كلام الناس ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون !

وما حكم الله في شيخ منهم يريد أن يخاصمني بكتاب من كتبي فينشر في « الجمهورية » فصلاً طويلاً عريضاً يزعم فيه ان الدكتور طه يرد على الدكتور طه . ثم يروي جملاً من كتاب « مستقبل الثقافة » يخترلها اختزالاً مما قبلها وما بعدها لا يريد بذلك إلا التشنيع والتشهير واثارة الناس، وهو يعلم ان اختزال الكلام على هذا النحو تعمد لافساده وتعمد للوقوع في هذا الاثم الذي لا يحبه الله من المؤمنين الصادقين ؟ والشيخ النمر تفوق في الخطف . وكنت أظن ان آفة الخطف لم تصل إلى الازهر بعد وانها آفة مقصورة على بعض الذين يتعجلون حين يكتبون في الصحف ، لا يتعمدون اساءة ، وإنما يعجلهم الوقت عن القراءة المستأنية والتثبت في الفهم والنقل جميعاً . فقد أثبت لنا هذا الشيخ انه خاطف بارع يحسن اختزال الجمل كما يحسن تحريف الكلم عن مواضعه ، يريد أن يصورني فانياً في حضارة الغرب مؤثراً لها على كل شيء طالباً إلى الناس ان يفنوا فيها . وهو يعلم حق العلم اني قد دافعت عن الحضارة الاسلامية وعن الثقافة العربية ، كما لم يدافع عنها إلا الأقلون من غير شيوخ الأزهر . وهو يعلم ان لي في الدفاع عن الحضارة العربية والثقافة الاسلامية وعن الاسلام نفسه مواقف لم يقف مثلها هو ولا أمثاله من الازهريين ، لأني لا أخاصم المسلمين عن الاسلام وإنما

أخاصم عنه غير المسلمين في غير موطن من أوروبا ، ولأني قد أرمى في بعض البيئات الأوروبية بالتعصب للاسلام على حين يقوم هو وأمثاله من الشيوخ مقامات اكرهها لنفسي ويكرهها الله لمن يحب من عباده . فأنا لا أكفر مسلماً ولا اغري به ولا أثير عليه ولا أحاكم على الخطأ ولا أعاقب فأسيء العقاب ، والشيخ يعرف من الذين يفعلون هذا كله ويفعلونه باسم الاسلام ، والاسلام منه بريء .

والاستاذ الشيخ نمر الذي يحاجني اليوم بكتاب «مستقبل الثقافة» بين اثنتين كلتاهما شر . فأما ان يكون قد قرأ هذا الكتاب قراءة مستوعب له مستقص لما فيه ، واذن فقد تعمد اهمال ما فيه من خبر صريح لا لبس فيه ولا غموض إلى جانب اختزاله لما نقل من هذا الكتاب على نحو مهين لمن يتورط فيه ، واما أن يكون قد القى على هذا الكتاب نظرة خاطفة ومد اليه يداً مختلسة تلتمس ما ينفعه بعد التحريف والاختزال ، وتترك عن عمد ما يلزمه الحجة ويقيم عليه البرهان ويضطره إلى الصمت ، لأنه يبين له ولغيره من الشيوخ ان الخطوة الثانية التي أدعو اليها الآن شيء قديم طالبت به منذ أعوام طوال قبل ان تثار الحرب العالمية الأخيرة ، وطالبت به في كتاب « مستقبل الثقافة » نفسه وفي صفحات منه طوال لم تصل اليها عين الشيخ ولا يده لأنه لم يقرأ الكتاب ، وانما خطف منه متعجلاً ما ظن انه ينفعه فيما يعمد اليه من التشهير والتشنيع

والسعي إلى السوء الذي لا يسعى اليه رجل الدين . وانا ناشر للشيخ وأمثاله هذا الفصل الذي اختصصت به الأزهر في مستقبل الثقافة ليقرأه في الجمهورية بعد أن تعمد الا يقرأه في موضعه من الكتاب . والفصل يقع في صحيفة ٣٥٠ إلى صحيفة ٣٥٧ .

«وفي مصر لون من الوان التعليم العالي لا بدّ من ان نقف عنده وقفة قصيرة لتكون دورتنا حول الثقافة في مصر محيطة بها من جميع أقطارها ، وهو التعليم الديني في الازهر الشريف . وقد عرضنا للازهر أثناء هذا الحديث غير مرة واطلنا الوقوف عنده أحياناً ، ولكننا نحب ان نسجل هنا اننا مؤمنون بأن الازهر في تكوين الثقافة أعظم خطراً وأبعد أثراً في حياة مصر خاصة وفي حياة العالم الاسلامي عامة ، مما يظن الازهريون أنفسهم لأسباب مختلفة . منها ان الازهر أكثر معاهد التعليم في مصر وفي الشرق الاسلامي حظاً من الطلاب . فيجب أن تظفر فيه هذه الكثرة الضخمة من الشباب المصريين والمسلمين بثقافة ليست أقل من الثقافة التي يظفر بها الشباب في الجامعة وفي مدارس التعليم العام لا من جهة الكم ولكن من جهة الكيف كما يقال . ومنها ان الأزهر معهد الدراسات الدينية الاسلامية وهو من هذه الجهة شديد الاتصال ويجب أن يكون شديد الاتصال بطبقات الشعب على اختلافها وتباينها . فهو إذن من أهم المصادر للثقافة في

مصر والشرق ويجب أن تكون الثقافة التي تصدر عنه وتتغلغل في طبقات الشعب كلها ، ثقافة راقية ممتازة ملائمة لحياة الشعب وحاجاته لا مناقضة لهذه الحاجات وتلك الحياة .

ومنها ان الازهر مظهر من مظاهر المجد المصري القديم حمل لواء المعرفة في مصر وفي الشرق الاسلامي قروناً متصلة ، فيجب أن يكون حاضره ومستقبله ملائمين لماضيه المجيد ويجب أن يكون عنواناً للمجد المصري الحديث كما كان عنواناً للمجد المصري القديم .

وسبيل ذلك ان تكون الثقافة التي تصدر عنه والمعرفة التي تُطلب فيه ملائمتين أشد الملاءمة لحاجات الناس وآمالهم في هذا العصر الحديث .

ومنها ان الازهر مصدر الحياة الروحية للمسلمين ، وهو من هذه الجهة مطالب بما لا تطالب به المعاهد الأخرى . مطالب بأن يشيع في نفوس الناس الأمن والرضى والامل والرجاء ويعصمهم من الخوف والسخط ومن اليأس والقنوط وهو لن يبلغ منهم ذلك إلا إذا لاءم بين الثقافة التي تصدر عنه فتنتشر في أقطار الأرض الاسلامية وبين نفوس المسلمين وقلوبهم كما يكوّنها العصر الحديث وكما يصوغها التعليم المبدئي الحديث .

وليس من الخير أن يكون الأزهر حرباً على الحياة الحديثة فان هذه الحرب لا تجدي ولا تفيد وانما الخير والواجب أن يكون الأزهر ملطفاً للحياة الحديثة مخففاً

لاثقالها ملائماً بينها وبين ما يأمر الله به من الخير والمعروف مباعداً بينه وبين ما ينهى الله عنه من الشر المنكر .. وذلك لا يكون إلا إذا عرف رجال الدين حياة الناس كما يحيونها واتقنوا العلم باسرارها ومشكلاتها وما تجر على الناس من شر وما تدفعهم اليه من اثم . وسبيل ذلك ان يتثقف الازهر بالثقافة الحديثة كما يتثقف بهـا غيره من المعاهد ، وان يمتاز بعد هذا بما لا تمتاز به المعاهد الأخرى من هذه الثقافة الدينية الخالصة بحيث إذا اتصل رجـاله بطبقات الناس لم يناقضوهم ولم يباينوهم ولم يجدوا مشقة في الوصول إلى قلوبهم والانتهاء إلى نفوسهم والتأثير في هذه النفوس وتلك القلوب .

والشر كل الشر أن يتحدث رجل الدين إلى الناس فلا يفهمون عنه ، لأنه قديم وهم محدثون ،وان يتحدث الناس إلى رجال الدين فلا يفهم عنهم لأنهم محدثون وهو قديم ؛ ولا ينبغي أن يغترّ الأزهر لأن الناس يسمعون لـه الآن ويفهمون عنه بعض الشيء، فكثرة المصريين لا تزال متأثرة بعقلية القرون الوسطى ، ولكن طبيعة الحياة ستخرجها غداً أو بعد غد عن هذا الطور وستصوغ الاجيال الناشئة والاجيال المقبلة صيغة حديثة أوروبية .

فلا بدّ من أن يجاري الأزهر هذا التطور ليكـون اتصاله بالاجيال الناشئة والاجيال المقبلة أقوى وأجدى من اتصاله بالاجيال الماضية والاجيال الحاضرة ، ومنها أخيراً ان

الأزهر مشرق النور الديني للبلاد الاسلامية كلها . وأخص ما يمتاز به الاسلام انه دين الحرية والعلم والمعرفة ، وأنه دين الحرية والعلم والمعرفة كما تفهمها الاجيال على اختلافها لا كما فهمها جيل بعينه ، وكما تحققها العصور على اختلافها لا كما حققها عصر بعينه .

فالاسلام دين التطور والطموح إلى المثل العليا في الحياة الروحية والمادية جميعاً . ويجب أن يكون رجاله الناشرون له الذائدون عنه الداعون اليه ملائمين كل الملاءمة لطبيعته هذه السمحة التي تشجع التطور ولا تمانعه وتؤيد الطموح ولا تأباه . وسبيل ذلك ألا تكون محافظة الازهر على القديم مانعة له من الاخذ بأسباب الحديث .

. كل هذه الاسباب تحقق ما قدمناه من انمهمة الأزهر أخطر جداً مما يظن الأزهريون . واذن فلا بدّ من أن تكون سيرة الازهر ونظم التعليم فيه ملائمة لهذه المهمة الخطيرة . وهذا يقتضي أولاً ان يعدل الأزهر عدولاً تاماً عما دأب عليه من الانحياز إلى نفسه والعكوف عليها والانقطاع عن الحياة العامة . وقد يقال ان الازهر قد أخذ يترك هذه السيرة ويتصل بالحياة العامة ويأخذ حظوظاً حسنة من الثقافات الحديثة على اختلافها . وهذا صحيح في ظاهره ولكنه في حقيقة الأمر غير صحيح ، فالازهر ما زال متحازاً إلى نفسه مستمسكاً بهذا الانحياز . حريصاً عليه . وهو من أجل هذا الانحياز نفسه يريد أن يتصل

بالحياة العامة على النحو الذي نراه الآن :

يريد أن تكون له نظمه الخاصة واجازاته وطرقه الخاصة بالحياة والتعليم ، ويريد مع ذلك ان يفرض نفسه على الحياة العامة فرضاً ، وان يفرض نفسه باسم الدين ، وما هكذا يكون الاتصال الصحيح بالحياة العامة والاشتراك فيها . إن الأزهر حين يسلك طريقه التي يسلكها في هذه الايام لا يشارك في الحياة العملية والعلمية وانما ينافس فيها ويريد الاستئثار بها أو ببعض فروعها دون غيره من المعاهد . تنشئ الدولة معاهد التعليم فينشئ الأزهر معاهد على نحو ما تنشئ الدولة . وتنشئ الدرجات الجامعية فينشئ الأزهر الدرجات الجامعية ، ثم يقول للدولة هذه معاهدي تشبه معاهدك وهذه درجاتي واجازاتي تشبه درجاتك واجازاتك فينبغي اذن أن يكون الشباب الذين يخرجون من معاهدي ويظفرون باجازاتي ودرجاتي كالشباب الذين تخرجينهم وتمنحينهم الاجازات والدرجات ، ويجب ان يشغلوا من المناصب ما يشغله هؤلاء وان ينهضوا من أعباء الحياة العامة بما ينهض به هؤلاء . فان لم تفعلي فأنت ظالمة لرجال الدين وظالمة للدين نفسه .

وينتج عن هذا النظام ثنائي غريب في التعليم أولاً ، وفي اجازاته ودرجاته ثانياً ، وفي شغل مناصب الدولة ان تم للأزهر ما يريده ثالثاً .. وهذا شيء لا يرى في غير مصر ولا يلائم عقلاً ولا نظاماً .. إنما طبيعة الاصلاح ان يمتاز

الأزهر أولاً بتعليمه الديني وان يمتاز بهذا التعليم الديني من الناحيتين العملية والعلمية فيهيئ شبابه للنهوض بالاعباء الدينية التي تحتاج اليها الحياة العامة من جهةوللتفرغ للبحث العلمي الخالص في شؤون الدين من جهة أخرى ، هذا النحو من الامتياز بالتعليم الديني والاستئثار بالمناصب الدينية في الحياة العامة لا غبار عليه ولا جدال فيه ، ومن طبيعته ان يمتاز الأزهر باجازاته ودرجاته الدينية التي تؤهل ، لا نقول لشغل المناصب الدينية العامة ، بل للاستباق إلى هذه المناصب كما قدّمنا في شأن الجامعة . فأما إذا أراد الأزهر ان يشارك شبابه في غير هذه المناصب الدينية من الحياة العامة فحقه في ذلك واضح لا جدال فيه ، وثابت لا يمكن انكاره ، لأن شبابه مصريون عليهم من الواجبات ولهم من الحقوق مثل ما على غيرهم وما لهم من الحقوق والواجبات . ولكن ينبغي ان يسلكوا إلى هذه الاعباء طرقها الطبيعية وان يدخلوها من أبوابها المألوفة أي ينبغي ان يتعلموا في معاهد الدولة المدنية ويظفروا باجازاتها ودرجاتها المدنية ويسابقوا غيرهم من اخوانهم المدنيين إلى المناصب العامة . ذلك احرى ان يلغي هذا النظام الثنائي الغريب وان يحقق الوحدة العقلية في مصر ، وان يحتفظ لسلطان الدولة بما ينبغي له من السيطرة على الشؤون العامة جميعاً وعلى مناصب الدولة بنوع خاص ، هو أحرى ان يصل الازهر والازهريين بالحياة المصرية اليومية ويمزج

الأزهر والأزهريين بهذه الحياة مزجاً . »

وللفصل بقية لا تتسع لها صحيفة سيارة ، ويستطيع من شاء أن يقرأها في موضعها من الكتاب . وأقل ما يدل عليه هذا الذي نشرته من هذا الفصل ان شيوخ الازهر لم يقرأوه خاصة ، ولو قد فعلوا لأراحوا الناس من هذا الاسراف الذي لا يغني عنهم ولا من الناس شيئاً .

ولي مع الشيوخ حديث آخر كنت أريد أن أسوقه اليهم اليوم ولكنني أردت أن يعلموا علم هذه الخطوة الثانية كما ينبغي فيقصروا عما يلجون فيه من التكلف والتزيد والكلام الكثير الذي لا خير فيه .

والشيوخ ينذرونني اليوم في « الجمهورية » باعلان عن مجلة الأزهر وما سيظهر فيها من أحاديث يظنون انها تخيف وتقلق ... فأحب لهم أولاً ان يعرفوا انهم لا يُخيفون ولا يُقلقون ، وان لنا جواباً على كل سؤال وحديثاً نرد به على كل حديث ... وكم احب ان يذكر الشيوخ ذلك البيت الذي يقرأونه في كتب البلاغة :

جاء شقيق عارضاً رمحه
إن بني عمك فيهم رماح

وان يقرأوا كذلك بيتاً آخر لا يقرأه منهم إلا الاقلون :

ومن ربط الجحاش فإن فينا
قناً صلباً وافراساً حسانا

أما بعد فعسى أن يكون هذا الكلام الواضح قريبه المنال لا يحتاج شيوخنا إلى أن يستعينوا على فهمه بشرح أو حاشية أو تقرير ، وعندي لهم من ذلك ان أحبوا ما يريدون ...

تعبئة

كانت رائعة هذه التعبئة الهائلة التي احتفل لها شيوخ الأزهر الشريف ، وكانت مروعة هذه القذائف التي لا يبلغها الاحصاء إلا في المشقة الشاقة والعسر العسير ، وكانت كل هذه التعبئة وكل هذه القذائف المدمرة موجهة إلى شخص واحد . والغريب انها لم تقطع لسانه ولم تخفت صوته ولم تمنعه من الاملاء ولم تصده عن المطالبة بالخطوة الثانية ، لأن فيها اصلاحاً للأزهر ورفعاً لمكانة شيوخه وتمكيناً لهم من ان يحسنوا النهوض بخدمة الاسلام والذود عنه ونشره في أقطار الشرق والغرب جميعاً .

فشيوخ الأزهر الشريف سواء أرادوا أم سخطوا لا يؤدون للاسلام حقه من العناية والرعاية والقيام دونه

وإذاعته في أقطار الأرض لأنهم لا يقدرون على ذلك ولأن كواهلهم أضعف من أن تنهض بهذا العبء الثقيل .

والاسلام والحمد لله ينتشر في أقطار مختلفة من الارض حتى ضاق به المستعمرون وأخذوا يكيدون له الكيد ويتهيأون لمقاومته بعد أن تبين لهم ان ما يرسلونه من البعـوث المسيحية الكاثوليكية والبروتستنتية لم تستطع أن تصد الناس عنه ولا أن تردهم عن الاسراع اليه والدخول فيه دون أن يبذل المسلمون في ذلك جهداً أو يحتملوا فيه عناء أو ينفقوا عليه مالاً قليلاً أو كثيراً .

والبعوث المسيحية تجد مع ذلك وتكد وتتكلف العناء وتحتمل الاثقال ، ولكنها على رغم هذا كله لا تستطيع أن تمنع أهل أقطار كثيرة في افريقيا من أن يدخلوا في دين الله أفواجاً لما يرون عن قرب من سماحته ويسره ونفوذه إلى أعماق الضمائر والقلوب . وأنت تستطيع أن تبحث عن شيوخنا في أعماق افريقيا فلن تجد منهم أحداً ، ولكنك ستجد مكانهم عشرات من الرهبان والقسس البروتستنتيين يحاولون جاهدين ان ينشروا المسيحية في تلك البيئـات الوثنية ومعهم كثير من مغريات الحضارة فيتاح لهـم من حين إلى حين بعض ما يريدون . وفي الارض أقطار أخرى فيها كثير من المسلمين الذين يحتـاجون إلى من يفقههم في الدين .

ولكن شيوخنـا لا يصلون إلى هـذه الاقطـار ولا

يحاولون الوصول اليها إلا ان تعينهم الدولة على ذلك وتمنحهم من وسائل التيسير ومن الأجور المغرية ما يرغبهم في المهاجرة في سبيل الله ، وهم مع ذلك يقرأون قول الله عز وجل :

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً . »

ذلك لأنهم لم يؤهلوا لهذه المهمة الضخمة ولم يأخذوا لها العدة وانما استراحوا إلى حياتهم هذه الوادعة لا يزعجهم عنها الا منفعة تهوّن عليهم احتمال الازعاج والله يريد من الذين وقفوا حياتهم وجهودهم على خدمة دينه ونشره والذود عنه أكثر مما يصنعون . وشيوخنا يقرأون ويفسرون لطلابهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى امرأة ينكحها أو دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر اليه . »

وهذا الحديث مروي من أوثق كتب السنة ، وكثير من العلماء المتقدمين يرقى بــه إلى منزلة الحديث المتواتر . فما قول شيوخ الأزهر في الذين لا يهاجرون إلا إلى دنيا يصيبونها ؟ وهل يستطيع شيوخ الأزهر المعاصرون أن ينبئونا بأنباء الذين يهاجرون منهم في سبيل الله ويضربون في الارض لا يبتغون على ذلك اجراً غير هذا الاجــر

العظيم الذي ضمنه الله للمهاجرين الصادقين ؟... أيظن الشيوخ انهم ابلوا فأحسنوا البلاء حين اتهموا مسلماً بأنه يكيد للاسلام ، واتهموا مصرياً بأنه يمهد للمستعمرين ثم جردوا له هذه الكتيبة من رماتهم فأطلقوا السنتهم فيه بالباطل غير صادقين ولا ناصحين لله ولرسوله وللمسلمين ؟

وما رأي الشيوخ في انهم يتهمون بالكيد للاسلام رجلاً ابلى في الذود عن الاسلام خيراً مما أبلوا ، وأعلن اليهم ألف مرة ومرة انه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ايماناً لا يبلغه الشك ولا يجد إلى قلبه سبيلاً وهم يأبون عليه ذلك ولا يقبلون منه ، وهم يقرأون ان كانوا يقرأون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عصم دماء قوم وأموالهم بعد أن كان قد أهدر دماءهم وعصم هذه الدماء لأن هؤلاء الناس أعلنوا اليه انهم يشهدون ان لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله ؟ وما رأي شيوخنا الاجلاء حماة الاسلام وائمة المسلمين في انهم يخالفون عن سنة رسول الله ويتبعون أهواءهم ولا يتبعون إلا هذه الاهواء ؟

وفيم كل هذا العناء ؟ وفيم كل هذا اللجاج ؟ وفيم كل هذا الشطط ؟ وفيم اصدار عدد خاص من مجلة الأزهر للنيل من رجل أراد الاصلاح وطالب به ؟ فان كان مصيباً فليس لهم إلا اتباعه ، وان كان مخطئاً فليس لهم إلا أن يجادلوه بالتي هي أحسن كما أمر الله في القرآن الكريم .

من الذي أعلم شيوخ الأزهر بأني سفير فوق العـادة لفرنسا أنشر لها في مصر وفي غير مصر كيدها للاسلام والمسلمين وأثبت سلطانها على البلاد الاسلامية التي تذيقها ألوان البأس ، والعذاب ؟ من أين استقوا هذا العلم ومن الذي أنبأهم به ؟ وهل علموا ان الله يأمرهم بألا يطلقوا ألسنتهم في الناس حتى يتبينوا صدق ما يلقى اليهم مـن الكلام ؟ أقرأوا ام لم يقرأوا قول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قومـاً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . »

احدى اثنتين ، إما ان يكونوا قد قرأوا هذه الآية ، واذن فقد خالفوا عنها وعصوا فيما ينشرون في مجلتهم امر الله . واما ان يكونوا قد نسوها ولم يقرأوها . واذن فما زعمهم انهم حفظة القرآن وحماته ؟ ام تراهم قد تجسسوا وبثوا العيون والارصاد حتى علموا علم هذه السفارة التي تلقيتها من فرنسا لأنشر في مصر وفي غير مصر كيدهـا للإسلام والمسلمين ؟ واذن فقد خالفوا عن أمر الله مرة أخرى : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم » .

والامر أيسر من هذا كله . فقد طالبت بتوحيد التعليم العام في الدولة ، ولم أعرض من قرب أو بعد لتعليم الديني

في الازهر لا في كلياته العالية ولا في معاهده الابتدائية والثانوية ، فضلاً عن ان اكون قد أردت إلى اغلاق الأزهر أو الغاء تعليم الدين واهمال حفظ القرآن . لم أعرض لشيء من ذلك لا تصريحاً ولا إشارة ولا تلميحاً ، فمن أين ابتدع الشيوخ هذا الزور الذي لجوا فيه وأرسلوا أنفسهم إلى غير غاية فيما لا يليق برجال الدين مما لا يغني عنهم ولا عن الناس شيئاً ؟

وما مصلحتهم في اثارة العامة واغراء بعض الضعفاء بالشر ؟ ألم يكن خيراً لهم أن يسألوا صاحب هذا الرأي عن الطريق التي يريد ان يسلك إلى تحقيق هذا التوحيد ، فان وجدوا في هذه الطريق ما يسوء الأزهر من قريب أو بعيد بينوا لخصمهم ما تورط فيه من الخطأ . فأنا لم أطلب حتى ادماج معاهد التعليم الابتدائي والثانوي الازهري في وزارة التربية والتعليم كما تصوروا ، وإنما طالبت بتوحيد منهج مشترك من التعليم بين المصريين جميعاً ، ووسائل هذا التوحيد عندي يسيرة جداً يمكن انجازها في سطور قليلة .

أولاً : يظل التعليم الابتدائي والثانوي جزءاً من الازهر كما هو .

ثانياً : يوضع منهج مطابق لمنهج التعليم العام في وزارة التربية والتعليم ويفرض على المعاهد الابتدائية والثانوية الازهرية .

ثالثاً : تؤلف هيئة مشتركة من الازهر ووزارة التربية والتعليم للاشراف من قرب على تنفيذ هذا المنهج ، وتتخذ وزارة التربية والتعليم وسائلها للتثبت من تنفيذه بالتفتيش والمشاركة في الامتحان .

رابعاً : يوفق بين هذا المنهج وبين ما يدرس في الأزهر من علوم أساسية للتخصص في علوم الدين . ويكون ذلك باصلاح المناهج الازهرية والغاء ما فيها من التزيد والتكرار؛ ويحسن ان ييسّر ويبسط ويستخلص منه جوهره وصفوه ، ويحسن كذلك ان تلغى كتب البلاغة ودرس البلاغة كله على النحو القديم وان يدرس مكان ذلك تاريخ النقد العربي ومذاهب النقد الحديثة في الغرب . وإذا تم هذا الاصلاح في مناهج الازهر فمن أيسر الاشياء ان يؤخذ الطلاب بحفظ القرآن الكريم وان يدرس لهم تفسيره يسيراً سمحاً لا إشكال فيه ولا تعقيد ويدرس لهم كذلك شيء من الحديث ووسائل درس الحديث خاصة ، ويعدل عن التعقيد والتطويل في درس التوحيد ويرجأ تعمقه وتعمق الفلسفة الاسلامية والفلسفة كلها إلى الكليات وما يتبعها من التخصص ودراساته العليا .

وليس بد من أن يدرس الفقه مع شي كثير جداً من التيسير والتبسيط وتحديد أساليب الدرس ؛ وإذا نظم التعليم الابتدائي والثانوي في الازهر على هذا النحو وقويت فيه العناية باللغة العربية وأدبها فليس من شك في أن

الشهادة الثانوية للازهر ستكون أقوم جداً من الشهادة الثانوية التي يظفر بها طلاب المدارس المدنية . وستكون أجدر بأن تفتح لطلاب الأزهر أبواب التعلم العالي في الجامعات والمعاهد على اختلافها :

وستعترف الدولة لها بهذه القيمة الممتازة ، وسيقبل الناس على ارسال أبنائهم إلى الأزهر اقبالاً أشد وأقوى من اقبالهم عليه إلى الآن ، لأن التعليم في الازهر حينئذ سيفتح لشبابه أبواب الدراسات الدينية والدنيوية ، وسيكون هؤلاء الشباب ملمين الماماً حسناً بمقدار مجزٍ من العلوم التي تنفعهم في دينهم ودنياهم جميعاً . ستتيح لهم أن يقبلوا على التخصص في علوم الدين وهم أعظم قدرة على فهمها وذوقها وتعمقها والانتفاع بها ونفع الناس بها أيضاً ، وسيقبل بعضهم على الدراسات المدنية وقد احسنوا فقه الدين وذاقت قلوبهم حلاوته وأشعرت ضمائرهم حبه وحصنت نفوسهم من التورط في كثير من الشر الذي يتعرض له الشباب الذين يخرجون من المدارس المدنية .

أيرى شيوخ الازهر ان من يطالب بهذا النوع من الاصلاح كائدٌ للدين يبغي له الغوائل ، مسيءٌ إلى الازهر يمهد لالغائه وطمس ما ينبغي ان يشرق عنه من هذا النور الوضاء الذي لن ينفع المسلمين وحدهم بل سينفع معهم قوماً آخرين ؟

ألا يرى الشيوخ أنهم كانوا في حاجة إلى شيء من

الأناة والريث وإلى شيء كذلك من البحث الهادىء والمناقشة المطمئنة ليصلوا ولنصل معهم إلى الحق الذي ينبغي ان نسعى اليه جميعاً ؟ ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، ومن يضلل الله فلا هادي له ومن يهد الله فلا مضل له .

وصدق الله العظيم ... انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .

فهرست

	صفحة
خطأ التقدير	٥
العائد	١٧
مضى القطار في موعده	٣٤
الربوة المنسية	٤٦
القرية الظالمة	٦١
الصراع	٧٩
من أدبنا الحديث	٩٠
المطولة : رد قلبي	٩٦
من أدبنا الحديث	١٠٨
من أدبنا الحديث	١١٥
أنا الشعب	١٢٥
شهريار	١٤١

صفحة

صبح النوم ١٥٢
من تاريخ الشعر العربي ١٦١
حديث الجياع ١٧٣
وما زال الغيث منهمراً ١٨٠
والفلسفة ١٨٨
مثل ١٩٧
واجب ٢٠٥
نعم واجب ٢١٣
حق الخطأ ٢٢١
حتى بعد الحكم ٢٣٣
الخطوة الثانية ٢٤٢
بل يجب أن تكون الخطوة الثانية . . . ٢٥٠
الخطوة الثانية وإن غضب الغاضبون . . . ٢٥٨
تعبئة ٢٧٠

٢٥٨ ثانية / ١ / ٦٠

مطابع دار العلم للملايين
بيروت

صدر عن دار العلم للملايين

للدكتور طه حسين

		ق.ل
* مرآة الضمير الحديث	(الطبعة الثالثة)	٢٠٠
* بين بين	(الطبعة الثانية)	٢٠٠
* خصام ونقد	(الطبعة الثانية)	٣٠٠
* نقد واصلاح	(الطبعة الثانية)	٣٠٠
* أحاديث	(الطبعة الثانية)	٢٠٠
* رحلة الربيع والصيف		٢٥٠
* من لغو الصيف		٢٥٠
* من أدب التمثيل الغربي		٢٥٠

تطلب كتب دار العلم للملايين

في العراق : من مكتبة النهضة - بغـ

في الاقليم السوري : من مكتبة النوري -

الثمن ٣٠٠ ق.ل او ما يعادلها